التبيان
في
علوم القرآن والسنة

دكتور
أحمد السيد حجازي

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً . ﴾

سورة الإسراء - الآية ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مقدمة ﴾

الحمد لله .. الواحد الديان ، خلق الإنسان علمه البيان ، وميزه على سائر مخلوقاته بالعقل واللسان ، وأضاء بصائره و أبصاره بنور القرآن ... نحمدك اللهم حمدا يعصمنا من الزلل فى القول والعمل ..." ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ".

والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه .

وبعد .. فإن كتاب الله عز وجل هو الهادي إلى الصراط المستقيم ، من إستمسك به نجا ، ومن أعرض عنه فقد ضل وهوى . " يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين " والقرآن الكريم هو النعمة الكاملة ، والسعادة الشاملة ، فطوبى لمن هداه الله للعمل به ، والقيام على خدمته وتوضيح معانيه ، وبيان أحكامه للناس ، وهنيئا لمن وفقه الله للسير على نبراسه ، والوقوف عند حدوده ، فالتزم ما أمر به ، وانتهى عما نهى عنه ، واقتفى آثار العلماء الذين وقفوا حياتهم على الغوص وراء معانيه وإدراك مراميه وأظهروها للأنام ترشد الناس إلى الطريق الصحيح .

وهذه بحوث ودراسات فى علوم القرآن والسنة النبوية الشريفة ، تضم ما يحتاج إليه الدارس فى دراسته والشاب المسلم فى ثقافته مع وضوح المعنى وسهولة اللفظ . لعل الله – عز وجل – أن ييسر بها فهم كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، "ذَلِكَ الْكِتَابُ الذى لا ريب فيه " فيه هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ .[1] "

فقد وقفت أمام هذا الدستور العظيم ، أتأمل جليل معانيه ، وعظيم مراميه .. ونظرت فى السنة المطهرة .. وطال بي الوقوف والنظر والتأمل .. فليس أحب إلى الإنسان من أن يعيش فى رحاب كتاب الله – عز وجل – وسنة رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – فكانت هذه الدراسات والنظرات . وجعلت هذه الدراسة فى بابين يتفرعان إلى عدة فصول :

﴿ الباب الأول ﴾

"التبيان فى علوم القرآن"

ويشتمل على ستة عشر فصلا :

الفصل الأول : مفهوم علوم القرآن .
الفصل الثانى : الوحى.
الفصل الثالث : نزول القرآن الكريم .
الفصل الرابع : أول مانزل من القرآن وآخر مانزل منه .
الفصل الخامس : تنجيم القرآن .
الفصل السادس : أسباب النزول .
الفصل السابع : جمع القرآن .

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢ .

﴿ الباب الثانى ﴾

" التبيان فى الشريعة السمحاء "

ويشتمل على أربعة فصول :

ومهدت لهذا الباب بدراسة مسايرة العبادات للفطرة الإنسانية .

والله أسأل أن يعلمنـي الكتـاب ، وأن يلهمنـي الصـواب ، وأن يهدينـي سواء السبيل إنه على ما يشاء قديـــر .

وما توفيقي إلا باللـه عليه توكلت وإليه أنيـــب .

د . أحمد السيد حجازي

الباب الأول

التبيان في علوم القرآن

الفصل الأول

مفهوم علو م القرآن

أولا : المعنى اللغوي لعلوم القرآن :

العلـــوم :

جمع علم . والعلم فى اللغة مصدر يرادف الفهم والمعرفة ، ويرادف الجزم أيضا عند قوم . (١)

يقول ابن منظور : " وعلمت الشئ اعلمه علما ، عرفته ؛ وعلم الأمر وتعلمه أتقنه . (٢) " يعنى أدركه وفهمه وأحاط به ودرسه .

و إن قلنا إن العلم بمعنـى اليقين – كما قال الغزالي – فى العلم إنه معرفة الله عز وجل وآياته وأفعاله فى خلقه ، فهذا من إطلاق العام على الخاص لمزية فى ذلك الخاص .

وفى اصطلاح المتكلمين صفة توجب لمحلها تميـيزا لا يحتمل النقيض – ولو كان هذا التمييز بواسطة الحواس – كما رأى الأشعرى – وهو قريب من المعنى اللغوى .

---

(١) كما فى المصباح المنير ، وانظر أيضا مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقاني جـ١ /١٢ (ط الحلبي) .

(٢) لسان العرب لابن منظور – طبعة بيروت جـ ١٢ /٤١٧ .

وفى اصطلاح الحكماء يطلق ويراد منه صورة الشئ الحاصلة فى الذهن ، أو حصول صورة الشئ فى الذهن ، وهذان المعنيان من لوازم المعنى اللغوى للعلم ، فإطلاقه عليهما من إطلاق اسم الملزوم وإرادة اللازم ، إذ هما ناشئان عن الفهم ومترتبان عليه .

و يقول الراغب : " العلم إدراك الشئ بحقيقته [١] " إدراكا جازما حقيقيا مطابقا للواقع ناشئا عن دليل .

فعلم كذا مثلا هو جملة مسائل مضبوطة بجهة واحدة فى وحدة موضوع وغاية ، ولأن بحثنا فى علوم القرآن بمعنى كونه فنا مدونا ، والذى يدون إنما هو القواعد والمسائل – فالمعنى المقصود إذن من علوم القرآن هو المسائل المتنوعه المختصة بالقرآن .

﴿ معنى كلمة القرآن ﴾

أما لفظ القرآن فى اللغة : فمصدر مرادف للقراءة ، أى التلاوة تقول : قرأ يقرأ قرآنا ، وقراءة بمعنى تلا يتلو تلاوة .

يقول ابن منظور : ' قرآن بمعنى الجمع لأنه يجمع السور ويضمها [٢] ' فهو مشتق من قرنت الشئ بالشئ إذا ضممت أحدهما إلى الآخر .

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى – ص ٣٥٥ ط – دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٢ .

(٢) لسان العرب ج١ /١٢٨ .

يقول عز وجل : " إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ." أى جمعه فى صدرك وقراءته ، " فإذا قرأناه فاتبع قرآنه " أى قراءته ، " ثم إن علينا بيانه [١] " – فإذا بيناه لك بالقراءة وبنطقك إياه فاعمل بما بيناه لك لتثاب على ذلك

ويقول الراغب : " والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل [٢] " فيتكون منها منظوم التلاوة وهى الآيات .

أما قول الزجاج إنه وصف على فعلان مشتق من القروء بمعنى الجمع ، سمى به الكلام المنزل على النبى – عليه السلام – لجمع الآيات والسور والأحكام والقصص فيه ، أو لجمعه ثمرات الكتب السابقة .

وقول الفراء إنه مشتق من القرائن لأن القرآن يصدق بعضه بعضا .

وقول الأشعرى إنه مشتق من قولهم قرنت الشئ بالشئ ، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به القرآن لقران الآيات والسور والحروف فيه .

ويقال للقرآن فرقان أيضا : باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق بعضه عن بعض فى النزول أو فى السور والآيات.

قال تعالى : " تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا [٣] " وهاديا وبشيرا ومرشدا ، قال عز وجل : " وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ [٤] " يعنى عل مهل ، وعلى فترات ؛ تثبيتا لقلبك وقلب من يقرأ .

---

(١) سورة القيامة – الآيات : ١٧ – ١٩.

(٢) مفردات الراغب ، ص ٤١٤.

(٣) سورة الفرقان – الآية ١ .

(٤) سورة الإسراء – الآية ١٠٦ .

وهذان الاسمان قرآن وفرقان هما أشهر أسماء الكتـاب الكريـم الـذى " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد " تـنزيل من رب العالمين فلا يتطـرق إليـه البـاطل ، ولا مجـال للطعن فيـه ، لأنـه منزل من رب العالمين ، من إله حكيم فى تشريعه و أفعالـه ، محمـود مـن خلقه لكثرة نعمه وأفضاله .

تعريف القرآن بالمعنى الشرعي :-

أما القرآن بالمعنى الشرعي : فهو كلام الله تعالى المـنزل علـى نبيـه محمد – صلى الله عليه وسلم – المعجـز بسـورة منـه ، المتعبد بتلاوتـه ، المكتوب فى المصاحف ، المنقول إلينا بـالتواتر ، مـن أول سـورة الفاتحـة إلي آخر سورة الناس .

وعبارة كلام الله عز وجل يخرج به كلام غيره من سائر المخلوقين ، وبالمنزل على النبى محمد – عليه السلام – يخرج به المـنزل علـى غيره من الرسل كألواح موسى وصحف إبراهيم وإنجيل عيسى عليهم السـلام .

وخرج (بالمعجز) الأحـاديث القدسية علـى رأى مـن قـال إن لفظهـا منزل مـن عند اللـه تعـالى . وخـرج (بـالمتعبد بتلاوتـه المكتـوب فـى المصاحف المنقول بالتواتر) جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة كمـا خرج به القراءات الشاذة .

وبهذه القيود خرج من القرآن كل ماعداه وإندرج فيه كل ما هو منـه . فقرآنيـة القـرآن مـا أجمـع القـراء علـى تواتـره والمكتوب فـى المصـاحف والمحفوظ فى الصدور ، والـذى حفظـه المولـى عـز وجل عن التبديـل أو التحريف " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ".(1)

(1) سورة الحجر– الآية ٩ .

والقـرآن الكريـم يطلـق علـى جميـع أجزائـه ككـل ، كمـا يطلـق علـى بعضه ، فمن قرأ القرآن كله أو بعضه يقال عنه إنه قرأ القرآن أو قرأ قرآنا والقرينة والسياق يحددان المراد [١] " ، فـالموضوع الـذى تعالجـه الآيـة أو الآيات يلقى الضوء على مقصود لفظ قرآن و يحدده .

وفى القرآن الكريم ما يفيد إطلاق اللفظ على الكل كقوله عز وجل :" وَرَتِّلِ الْقُـــرْآنَ تَرْتِيلًا " يعنى كلما قرأت القرآن رتله بقواعـد الـترتيل المعروفة ، وأيضا قوله سبحانه : " فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ "[٢]

وفى القرآن ما يفيد أن بعض القـرآن يطلـق عليـه لفـظ القـرآن ، ومـن ذلك قوله عز وجل :" وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورًا [٣] " ، يعنى إذا قرأت شيئا من القرآن الكريم .

ويقول الزرقاني :" قد يقال إن إطلاقه على الكل حقيقة وعلـى البعض مجاز والتحقيـق أنـه مشـترك لفظـى لكـل مـن كـل القـرآن أو بعضـه بدليـل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البعض كليهمـا : والتبـادر أمـارة الحقيقة [٤] " يعنى أن إطلاق قرآن حقيقة على كله أو على بعضه على حد سواء .

---

(١) مناهل العرفان جـ١/١٩ .
(٢) سورة المزمل – الآية ٤ ، ٢٠
(٣) سورة الإسراء – الآية ٤٥ . (٤) مناهل العرفان جـ١ /٢٣ .

أما الراغب فيقول :" تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لا لكونه جامعا لثمرة كتبه وحسب بل لكونه جامعا لثمرة جميع العلوم (١) " .
وقد أشار الحق سبحانه إلى ذلك بقوله :" وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (٢) " .
أى وكل أمر من أمور الدين والدنيا بيناه أحسن تبيين ، وقوله عز وجل أيضا :" وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٣) " .

ثانيا : المعنى الإصطلاحي لعلوم القرآن :-

أ - علوم القرآن بالمعنى الإضافي :-

تبين لنا مما تقدم المراد من كلمة (علوم) و كلمة (قرآن) ، وإذا عرفنا المراد من كل منهما عرفنا بمقتضى الإضافة التى بينهما أن معنى علوم القرآن أنواع المعارف والعلوم المتصلة بكتاب الله عز وجل من كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه وكانت كتابات متناثرة هنا وهناك قبل معرفة وتدوين هذا العلم كفن مدون ، وتشمل هذه الكتابات على سبيل المثال لا الحصر ، علم التفسير ، القراءات ، وبلاغة القرآن وإعجازه وإعراب القرآن ، و أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ... وغير ذلك من العلوم الدينية والعربية المتصلة بفهم القرآن الكريم وما يتعلق به بوجه عام .

(١) مفردات الراغب - ص ٤١٤ .
(٢) سورة الإسراء - الآية ١٢ .
(٣) سورة النحل - الآية ٨٩ .

وقد أشار صاحب مناهل العرفان إلى أن " القرآن كتاب هداية وإعجاز فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه فذلك من علـــــوم القرآن (١) ".مما يدل على مدى اتساع مضمون هذا التعريف ليشمل العديد مما كتب فى هذا المجال .

ب - أما مفهوم علوم القرآن بمعنى الفن المدون وحكمة دراسته :-

فهذا المفهوم مستمد من هذه العلوم السابق الإشارة إليها ومأخوذ منها ، ويمكن تعريفه بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه . (٢)

وذلك ليتأكد المفسر من إحكام الآية وأنها لم يرد لها ناسخ ، ومعرفة المحكم والمتشابه من الآيات ، ومعرفة القراءات تفيد معان متعددة وأحكام متنوعة ، ومعرفة خصائص المكي والمدني من الآيات يعين أيضا على فهمها ، ودلالة القصص القرآني وما يحويه من عبر عن طبائع البشر وحياتهم .

ومما يفيد دارس التفسير كذلك الحكم فيما وراء ضرب الأمثال من عظات بالغات ، وما أقسم به المولى سبحانه فى كتابه الكريم ، ولماذا أقسم ، وبم أقسم ، وأهداف القسم والنواحي البلاغية فيه .

---

(١) مناهل العرفان ج١/٢٤ .

(٢) مناهل العرفان ج١ / ٢٧ .

علما بأنه سبحانه يقسم بما شاء وأني شاء ، وخاصة فيمُفتتح بعض السور فى حين أن البشر لا يجوز لهم أن يقسموا إلا بذاته أو بأحد صفاته أو القرآن الكريم .

ومما تجدر الإشارة إليه قول الزركشي : " ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر ومعانيه لا تستقصى وجبت العناية بالمقدور الممكن (١) " فما لا يُدرك كله لا يترك كله .

جـ - موضوع علوم القرآن :-

هو القرآن الكريم من هذه النواحى وغيرها ، مما يتعلق بمباحثه . فعلم القراءات مثلا موضوعه القرآن الكريم من حيث لفظه وأدائه ، وعلم التفسير موضوعه القرآن من حيث بيان المراد منه بقدر الطاقة البشرية ... إلي غير ذلك .

د - الحاجة إلى دراسة علوم القرآن :-

١ - دارس القرآن الكريم يجب أن يتسلح بسلاح قوى ضد غارات أعدائه ، التى تشن من آن لآخر ، قصد النيل من الكتاب العزيز ، ولا شك أن الدفاع عنه يستلزم دراسة ملابساته وفقهه ومعرفة وجوهه .

---

(١) أنظر البرهان للزركشي ج١ / ٩ .

٢ - الإستعانة بأبحاثه الكثيرة على فهم القرآن الكريم والوقوف على أسراره وأغراضه ، إذ كيف يتأتى لدارس القرآن أن يتوصل إلى إصابة الهدف وهو لا يعلم كيف نزل ، وأسباب نزوله ، وناسخه ومنسوخه ؟

٣ - معرفة الأحوال التى لابست القرآن منذ نزوله على النبى – عليه السلام – إلى الوقت الحاضر . فمن هذا الفن يعرف كيف نزل عليه – صلى الله عليه وسلم – وكيف عنى به فى كل زمان ، ومدى الجهود التى بذلت لحفظه حتى روى على سبيل التواتر فىكل عصر ومصر . وكيف عنيت الأمة بتفسيره واستخراج الأحكام منه .

٤ - وإذا كان من الواجب على كل مسلم أن يدافع عن كتاب الله عز وجل بكل ما أوتى من وسائل ، فإن أول هذه الوسائل أن يعرف علومه ويعكف على دراستها .

وبهذا ينتهى الحديث فى هذا المبحث عن مفهوم علوم القرآن بالمعنى اللغوى لكل من علوم وقرآن ، وكذلك معنى قرآن بالمفهوم الشرعي ، والمعنى الإصطلاحي لعلوم القرآن بكل معنييه الاضافى وكفن مدون ، وموضوع علوم القرآن ، والحاجة إلى دراسة علوم القرآن حتى نكون على وضح السبيل ... وعلى الله قصد السبيل .

الفصل الثاني

﴿ الوحي ﴾

أرسل الحق – تبارك وتعالى – رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وختمهم بالنبى الأمي ، محمد صلى الله عليه وسلم ، الهادى لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة ، كما قال تعالى : " قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ". وكما قال عليه السلام : "بعثت إلى الأحمر والأسود " ، قال مجاهد : يعنى الإنس والجن .. فهو عليه السلام رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، مبلغا لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من كتابه العزيز (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

** فما هو الوحي ؟ وما معناه ؟

الوحى فى اللغة يطلق على معان كثيرة ، فقد جاء فى القاموس المحيط : الوحى الإشارة والكتابة ، والمكتوب ، والرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفي .

وقال الراغب : " أصل الوحى الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة . قيل أمر وحى يعنى سريع ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة بعض الجوارح .. وبالكتابة .

وقد ورد لفظ (الوحى) ومشتقاته فى القرآن الكريم ٧٨ مرة ، وبمعان كثيرة ولكنها لا تخرج عن المعاني اللغوية الموجودة فى المعاجم .

فقد ورد بمعنى الإشارة فى قوله تعالى عن زكريا : " فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١) ".

وورد بمعنى الإلهام فى قوله تعالى : " وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٢) " .

وقوله سبحانه : " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ(٣) " اى ألهمناها فى اليقظة أو فى المنام .

وورد بمعنى الإعلام فى الخفاء – أى أن تعلم إنسانا بأمر ما لا تريد أحدا يعلمه ، فى قوله تعالى : " وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ (٤) " .

كما ورد لفظ الوحى بمعنى الكتاب والرسالة لما فيهما من التخصيص فى قوله سبحانه :

" وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ (٥) ".

وورد لفظ الوحى فى قوله تعالى : " وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ (٦) " بمعنى يوسوسون فى صدورهم كلاما خفيا .

---

(١) سورة مريم – الآية ١١ .
(٢) سورة النحل – الآية ٦٨ .
(٣) سورة القصص – الآية ٧ .
(٤) سورة الأنعام – الآية ١١٢ .
(٥) سورة الشورى – الآية ٥١ .
(٦) سورة الأنعام – الآية ١٢١ .

**** فما هـــو وحـــى الله إلى أنبيائه ؟**

اتفق العلماء على أن الوحى الخاص بالأنبياء والرسل الذين يصطفيهم الله لرسالاته .. هو الأمر الذى يلقيه إليهم .. أو هو الكلام الذى يلقيه إليهم من العلم الضرورى الذى يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون قد أعد أرواحهم لتلقى هذا الوحى . إما بواسطة كالملك ، أو بغير واسـطة كالإلهام والرؤيا الصادقة..أو هو إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة ، فهو أخص من المعنى اللغوى لخصوص مصدره ومورده . فقد خص المصدر بالله تعالى ، وخص المورد بالأنبياء ويطلق عليه الوحـــى الشرعى (١) .

أما الزهرى فقال : " الوحى مايوحى الله به إلى نبى من أنبيائه ، فيثبته فى قلبه فيتكلم به ويكتبه ، وهو كلام الله ، ومنه مالا يتكلم به ولا يكتبه لأحد ، ولا يأمر بكتابته ، ولكن يحدث به الناس حديثا ، ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه (٢) ."

وعموما فقد اتفق العلماء على أن معنى الوحى الخاص بالأنبياء والرسل هو الإعلام الخفى بأمور الرسالة الإلهية التى يكلفون بها .

هل كان الوحى ضروريا لتبليغ الرسالات ؟

جاء فى كتاب الله تعالى عدد غير قليل من الآيات الكريمة تتحدث عن أهمية الوحى الإلهي ، وضرورته لرسل الله وأنبيائه الذين اصطفاهم

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ، د. محمد محمد أبو شهبة - ص ٨٤ .

(٢) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ج ٢/ ٢١٤ .

وكلفهم بهداية البشرية على مــر العصور والأزمـان ، وفي مختلف بقاع الأرض . ومن هذه الآيات قوله سـبحانه : "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(١) ".

وقوله تبارك وتعالى : "وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) " ومثل قوله عز شأنه :"وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (٣) ".

وقوله تعالى : "رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (٤) ".

وأيضا قوله تعالى : "وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا (٥) ".

وعن ضرورة الوحى وأهميته تحدثت السنة المطهرة أيضـا . فقد أخرج الشيخان عن المغيرة بن شعبة – رضى الله عنـه – أن رسول اللـه – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا أحد أحب إليه العذر مـن اللـه ، ومن أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين ."

كيفيات الوحــى :–

للوحى صور مختلفة ترجع كلها إلى صورتيـن أساسيتين : ﴿ الوحى الجلى .. والوحى الخفى ﴾ . أما الوحى الجلى فيكون عن طريق الكـــلام

(١) سورة الإسراء – الآية ١٥ .
(٢) سورة القصص – الآية ٤٧ .
(٣) سورة طه – الآية ١٣٤ .
(٤) سورة النساء – الآية ١٦٥ .
(٥) سورة القصص – الآية ٥٩ .

الصريح إما من الله عز و جل مباشرة بدون واسطة على نحو ماحدث مع سيدنا موسى – عليه السلام – ، وإما عن طريق جبريل عليه السلام . قال تعالى : " إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١) ".

ففى هاتين الآيتين يشير الله تعالى إلى الوحى الجلى بصورتيه ، وينبغي أن نعرف أن كلام الله لموسى ليس كلاما ككلامنا ، ولكنه كلام لا يعرف كيفيته إلا الله تعالى . يقول المفسرون : يسمع موسى كلام الله عز وجل من كل جهة من غير أن يرى ربه سبحانه وتعالى فى أثناء كلامه له ، فقد قال تعالى : " وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ (٢) ".

بمعنى أن يوحى إليه وحيا فى المنام أو بالإلهام أو يكلمه مباشرة فيسمع كلامه دون أن يراه ، أو يرسل إليه ملكا من الملائكة كجبريل عليه السلام .

وأما الوحى الخفى فيكون تارة إلهاما يلقيه الله فى قلب نبيه فيدرك ما يوحيه الله إليه ، ولا يجد فى نفسه شكا فيه . ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى أجلها" .

---

(١) سورة النساء – الآية ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) سورة الشورى – الآية ٥١ .

وتارة يكون رؤى صادقة يراها النبى فى نومه وتتحقق فى اليقظة كأنها فلق الصبح ، على نحو ما حدث للأنبياء جميعا .

وقد نزل القرآن كله على النبى – عليه السلام – بالوحى الجلى عن طريق جبريل أمين الوحى عليه السلام ، قال تعالى : " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ ، على قَلْبِكَ لتكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ ، بلسانٍ عربيٍ مُبِينٍ [1] " . وقال سبحانه : " قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالحَقِ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلمُسلِمِينَ [2] ".

وقد ذكر الراسخون فى العلم للوحى المنزل على قلب النبى الأمى كيفيات :

أولها : الرؤيا :

فقد قالت عائشة – رضى الله عنها – فيما رواه البخارى وغيره : " أن أول ما بدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الرؤيا الصادقة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ...

والثانية :

أن يأتى الملك فى صورته وهيئته التى خلق عليها : على نحو ما رأينا فى حديث جابر بن عبد الله الأنصارى الذى يروى عن النبى عليه السلام أنه سأل جبريل عليه السلام مرة أن يريه نفسه على صورته التى

---

(١) سورة الشعراء – الآيات ١٩٣ – ١٩٥ .

(٢) سورة النحل – الآية ١٠٢ .

خلقه الله عليها ، فواعده بحراء ، وظهر له عند مطلع الشمس وقد ملأ السماء حتى سد الأفق إلى المغرب ، فخر النبى – صلى الله عليه وسلم – مغشيا عليه . وذكر القرآن الكريم ذلك فى سورتى التكوير والنجم . حيث قال تعالى : " إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ، وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (١) ".

وقال تعالى : " وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ، وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ(١) ".

والثالثة :

أن يأتيه الملك فى صورة إنسان يراه ويكلمه : كما فى الصحيح " وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول " وزاد أبو عوانة فى صحيحه : " وهو أهونه على ".

وقد نزل عليه مرة فى هذه الصورة والنبى عليه السلام بين أصحابه ، فرأوه وسمعوا كلامه ، كما فى الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : "بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر،لايرى عليه أثر السفر ، ولايعرفه منا أحد،حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة التكوير – الآيات ١٩ : ٢٣ . (٢) سورة النجم – الآيات ١ : ١٥ .

فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن إستطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنىعن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاءيتطاولون فى البنيان. قال : ثم انطلق ، فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم ، قال : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (١) ".

الرابعة : أن يأتيه الملك فى مثل صلصلة الجرس :-

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم إن هذه الحالة كانت أشد حالات الوحى عليه . فقد صح فى مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو – سألت النبى صلى الله عليه وسلم : هل تحس بالوحى ؟
فقال : " أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض ".

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان .

وعن عائشة رضى اللـه عنهـا أنهـا قـالت : " ولقد رأيتـه ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه و إن جبينه ليتفصد عرقا " بـل لقد كانت وطأة الوحى فى هذه الصـورة تبلـغ أحيانـا مـن الشـدة مـا يجعل راحلته تبرك إلى الأرض إذا كان فوقها .

وقال الخطابى : والمراد بصلصلة الجرس : أنه صوت متداول يسمعه ولايتبينه أول مايسمعه حتى يفهمـه بعد. وقيـل : هـو صـوت خفق أجنحـة الملك . والحكمة فى تقدمه ، أن يقرع سمعه للوحى ، فـلا يبقـى فيـه مكانـا لغيره ، ثم تبدأ بعد ذلك آيات القرآن تتوالى على سمع النبى .وقيل :إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد أو تهديد .

الخامسة : أن ينفث فى روعه – بضم الراء – الكلام نفثا :–

كمـا قـال – صلـى اللـه عليـه وسلم – إن روح القدس نفث فـى روعى [1] " . وفى رواية ابن حيان : إن روح القدس نفـث فـى روعـى أن نفسا لـن تمـوت حتـى تستكمل رزقهـا وأجلهـا ، فـاتقوا اللـه واجملـوا فـى الطلب ، خذوا ما حل ودعوا ما حرم " .

وهذه الكيفية ترتبط بالسابقة ، حيث تسبق صلصلة الجرس النفـث فـى الروع ويلقى إليه ما يلـقى ، وأحيانا تكون هذه الصـورة مستقلة كمـا روت عائشة رضى اللـه عنها أن النبى عليـه السـلام كـان يثقل جسده ويتفصد عرقا .

(١) الروع : القلب والعقل – أخرجه الحاكم .

السادسة : أن يأتيه الملك في النوم :-

وقد عد قوم من هذا الوحى سورة الكوثر ، كما روى مسلم عن أنس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : أنزل على آنفا سورة الكوثر ... [1] " .

ورغم هذا فهناك تحفظ على هذه الكيفية من كيفيات الوحى ، لأن جلال القرآن وعظمته يمنعان من القول بنزول بعضه فى النوم .

فقال الإمام الرافعى فى أماليه : " ففهموا من الحديث أنها نزلت فى تلك الإغفاءة ، وقالوا : من الوحى ما كان يأتيه فى النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحى ، وقال هذا صحيح . لكن الأشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل فى اليقظة ، وكأنه خطر له فى النوم سورة الكوثر المنزلة فى اليقظة ، أو عرض عليه الكوثر الذى ورد فى السورة ، فقرأها وفسرها لهم : وورد فى بعض الروايات أنه أغمى عليه ، وقد يحمل ذلك على الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحى ، ويقال لها برحاء الوحى " .

وقد ذكر السيوطى فى تعقيبه على ما قاله الإمام الرافعى بقوله : " الذى قاله الرافعى فى غاية الإتجاه ، وهو الذى كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه ، والتأويل الأخير أصح من الأول ، لأن قوله إنما يدفع فى كونها نزلت قبل ذلك ، بل نقول : نزلت فى تلك الحالة ، وليست الإغفاءة إغفاءة نوم ، بل الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى [2] . وربما تكون هذه الحالة مرتبطة بالرؤيا ، وقد يكون ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبور

---

(١) أنظر البرهان ج١/٢٢٩ ، والإتقان ج١/١٢٦

(٢) معترك الأقران - ج٢/٢١٥ .

هذه السورة فى ذاكرته أثناء هذه الإغفاءة ، ولأن هذه الصورة نزلت لتكريمه وتعظيمه أمام من أرادوا إهانته وتحقيره وهو أمر يسر النفس .

السابعة :-

أن يكلمه الله إما فى اليقظة ، كما فى ليلة الإسراء والمعراج ، أو فى النوم كما فى حديث معاذ : " أتانى ربي فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ... الحديث " .

قال السيوطى فى الإتقان : " وليس فى القرآن من هذا النوع شئ فيما أعلم ، نعم يمكن أن يعد منه آخر سورة البقرة ... وبعض سورة الضحى ، وألم نشرح . فقد أخرج ابن أبى حاتم من حديث عدى ابن حاتم ، قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سألت ربى مسألة وودت أنى لم أكن سألته ، قلت : أى ربى .. إتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما . فقال : يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك ، وضالا فهديتك ، وعائلا فأغنيتك ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، لا أذكر إلا ذكرت معى !(١) " . وفى جميع هذه الحالات كان الوحى يفصم عنه وقد وعى النبى كل ما أوحى إليه من آيات أو سور ، وكأنها نقشت فى صدره نقشا . قال تعالى : " سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٢) " .

و قد كان عليه السلام فى أول الأمر يحرك شفتيه بالقرآن خلف جبريل خوفا من نسيانه ، فأنزل الله تعالى قوله : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(٣) " .

(١) الإتقان فى علوم القرآن – ج١٢٦/١ .
(٢) سورة الأعلى – الآية ٦ .
(٣) سورة القيامة – الآيات ١٦ : ١٩ .

أى لا تحرك به لسانك قبل فراغ جبريل منه مسارعة منك فى حفظه وخوفا من نسيانه . لأن الله عز وجل قد تكفل بجمعه فى صدرك وقراءتك له . وانتظر قراءة جبريل واستمع إليه . فكان الرسول عليه السلام بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع إليه ، فإذا انطلق جبريل قرأه كما قرأه جبريل عليه .

الفصل الثالث

نزول القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان . قال تعالى : " شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ [1] " ، وفى ليلة القدر منه حيث قال تعالى : " إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [2] " ، و أوضح القرآن أنها ليلة مباركة جليلة الشأن رفيعة القدر ، يقول تعالى فى سورة الدخان : " إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ [3] " .

أنزل القرآن العظيم .. فى شهر رمضان .. وفى الليلة المباركة .. فمتى كان مو عدها ؟ وما علاماتها ؟

أما موعدها :-

فقد اختلف العلماء فى تحديده فقال أبو داود .. إنها تقع ليلة سبع عشرة ، وروى فى ذلك حديثا مرفوعا عن إبن مسعود .

ويحكى عن الحسن البصرى أيضا : أنها تقع ليلة بدر . وكانت ليلة جمعة هى السابعة عشر من شهر رمضان . ومن صبيحتها كانت وقعة بدر . وهو اليوم الذى قال تعالى فيه (يوم الفرقان) .

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٨٥.

(٢) سورة القدر – الآية ١ .

(٣) سورة الدخان – الآية ٣ .

ويحكى عن على وابن مسعود أيضا : أنها تقع فى ليلة تسع عشرة ، وقيل ليلة إحدى وعشرين – لحديث أبى سعيد الخدرى ، قال اعتكف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل . فقال : إن الذى تطلب أمامك ، ثم قام النبى – عليه السلام – خطيبا صبيحة عشرين من رمضان فقال : من كان اعتكف معى فليرجع ، فإنى رأيت ليلة القدر ، وأنى أنسيتها ، وأنها فى العشر الأواخر ، فى وتر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء ، وكان سقف المسجد جريدا من النخل وما ترى فى السماء شيئا ، فجاءت قزعة فمطرنا ، فصلى بنا النبى حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تصديق رؤياه .

ومنهم من قال ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد الله بن أنيس فى صحيح مسلم . وقيل ليلة أربع وعشرين .. عن بلال قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليلة القدر ليلة أربع وعشرين.

ومنهم من قال ليلة خمس وعشرين .. لما رواه البخارى عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى .

وكذلك قيل إنها تكون فى ليلة سبع وعشرين لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب عن رسول الله– عليه السلام – أنها ليلة سبع وعشرين .

وعن معاوية وابن عباس وابن عمر وغيرهم .. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها ليلة سبع وعشرين .

وقال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد – عليه السلام – فسألهم عن ليلة القدر ، فأجمعوا أنها فى العشر الأواخر ، قال ابن عباس : فقلت لعمر : إنى لأعلم أى ليلة القدر هى ، فقال عمر : وأى ليلة هى ؟ فقلت : سابعة تمضى أو سابعة تبقى ، من العشر الأواخر . فقال عمر : من أين علمت ذلك ؟ قال ابن عباس : فقلت خلق الله سبع سموات ، وسبع أراضين ، وسبعة أيام . وأن الشهر يدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمى الجمار سبع لأشياء ذكرها ، فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له .

وحكى عن بعض السلف أنه حاول إستخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن الكريم من قوله (هى) فى الآية الكريمة " سلام هى حتى مطلع الفجر " لأن (هى) الكلمة السابعة والعشرين من السورة .

ومنهم من قال إنها فى ليلة تسع وعشرين . فعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن ليلة القدر . فقال رسول الله – عليه السلام – فى رمضان فالتمسوها فى العشر الأواخر ، فإنها فى وتر إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أو فى آخر ليلة .

وهنا نتساءل ، لماذا كان هذا الخلاف حول تحديدها .. مع أن الأسانيد جميعها تنتهى إلى صحابي جليل ثم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . ولماذا تباينت الأقوال وتعددت ؟

إذا تتبعنا هذه الروايات نحس بأن هناك حكمة عظيمة ، قصد إليها رسولنا الكريم من عدم تحديد ليلة القدر ، لأن هذه الليلة المباركة إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فأكثروا من العبادة بخلاف ما إذا علموا عينها . فإن الهمم ربما تتقاصر على قيامها فقط .

واقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر فى إبتغائها ، ويكون الاجتهاد أكثر فى العشر الأواخر من الشهر . ولذلك كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان حتىتوفاه الله . ثم اعتكف أزواجه من بعده .

و عن أمارة هذه الليلة المباركة :-

فقد قال الرسول – عليه السلام – : " إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بلجة ، كأن فيها قمرا ساطعا ، ساكنة ساجية ، لا برد فيها ولا حر . ولا يحل لكوكب يرمى به حتى يصبح ، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ " .

فعن ابن عباس : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال فى ليلة القدر :" ليلة سمحة طلقة ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء " .

وهنا .. يعترضنا سؤال .. من المعروف أن القرآن لم ينزل على النبى – صلى الله عليه وسلم – جملة واحدة ، وإنما نزل مفرقا على مدار ثلاثة وعشرين عاما هى مدة بعثته عليه السلام منذ أن بعث إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى . فكيف يكون القرآن قد نزل فى ليلة واحدة هى ليلة القدر ؟؟

وقد أجاب العلماء عن هذا السؤال بثلاثة أقوال :

القول الأول :-

ويرى السيوطى فى كتابه الإتقان أنه هو الأصح والأشهر ، وهو أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة فى ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك منجما على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طوال سنوات بعثته . وقد دلل السيوطى على صحة هذا الرأى بقول ابن عباس : " أنزل القرآن فى ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعضه فى إثر بعض " .

القول الثانى :-

أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا فى عدد من ليالى القدر يساوى عدد سنوات بعثته عليه السلام ، فى كل ليلة منها ينزل الله ما يقدر إنزاله فى هذه السنة ، ثم ينزل هذا القدر على النبى – صلى الله عليه وسلم – منجما طوال السنة .

القول الثالث :-

أن نزول القرآن الكريم على النبى – عليه السلام – بدأ فى ليلة القدر ، ثم ظلت آياته وسوره تنزل عليه بعد ذلك طوال مدة بعثته حسب تقدير الله وحكمته . وأكثر العلماء يميلون إلى القول الأول ، وفيه يقول السيوطى : " هو الأصح الأشهر " ، ويقول عنه ابن حجر فى شرحه على البخارى : " هو الصحيح المعتمد " ، ويبرر السيوطى السبب فى إنزال القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا بأن ذلك تفخيم أمره وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم .

وأخذ السيوطى أيضا يبين أن نزوله جملة إلى سماء الدنيا ثم نزوله مفرقا يجمع بين صفة الكتب السابقة ، وما تميز به القرآن عنها جميعا ، وهو نزوله مفرقا على الأرض ، ونقل رأيا مؤيدا لذلك يتضمن أن فى نزول القرآن جملة تسوية لمحمد – صلى الله عليه وسلم – بموسى عليه السلام ، وفى نزوله منجما إلى الأرض تفضيل لمحمد على موسى ... إلخ هذه الآراء .

ولأن كل الآثار الواردة فى هذا الشأن تكاد تكون جميعها موقوفة على ابن عباس ، وليس من بينها حديث مرفوع إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيمكن لنا مناقشة هذه الآراء . ولو أن هناك حديث واحد مرفوع إلى النبى – عليه السلام – لما كان هناك فكرة للمناقشة وخاصة إذا كان سنده صحيحا . أما أن ينفرد ابن عباس وحده بهذه الرواية دون بقية الصحابة فإن هذا الأمر يثير عدة تساؤلات :

- من الذى أخبره بأن القرآن نزل إلى سماء الدنيا جملة ؟؟ هل هنـاك خبر من السماء ؟ ولمــن ؟

- وإذا كان رسول الله - عليه السلام - قد حدث بذلك .. فلماذا لم يسمعه أحد غير ابن عباس مع حرص جميع الصحابة على معرفة كل ما يصدر عن الرسول من قول وعمل ؟

- ولماذا لم نجد أثرا واحدا مـــن الآثار المنسوبة إلى ابن عباس واصلا إلى النبى عليه السلام ؟

كل هذه التساؤلات تثيرها هذه الروايات ويثيرها القول الأول الذى يميل إليه أكثر العلماء ، وهذا الميل مبنى على النقل . ونلمس فيه الدفاع عن نزول القرآن منجما مخالفا فى طريقته طريقة نزول الكتب السابقة ، وكأن هذا ضعف فيه .

ولم يكتفوا برد القرآن على القائلين بهذا الرأى فقد قال تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا "(١) .

وليس فى هذا الرد دلالة على أن القرآن نزل جملة واحدة ، إن فيه تأكيدا على أن القرآن لم ينزل جملة واحدة ، ونزل منجما لأنه يبين الهدف والحكمة من وراء ذلك .

ولأن معظم الفقهاء سلفيون يرفضون فكرة المجاز فإن كل الآيات التى تأولوها على أنها تعنى نزول القرآن جملة لاتوحى بهذا . فقد فسروا الهاء فى قوله تعالى : " إنا أنزلناه فى ليلة القدر " أى القرآن كله .

---

(١) سورة الفرقان - الآية ٣٢ .

ولو تأملنا إلى الآية من وجهة النظر البلاغية فإننـا يمكن أن نقول إن الضمير هنا أطلق على الكل وأراد به الجزء ، وهى علاقة مجازية ، فليس المقصود هنا القرآن جميعه بل جزء منه .

ثم ألسنا نطلق على الآيـة الواحدة (قرآنـا) كمـا نطلـق علـى الآيـات الكثيرة ؟ ومن هنا فــــان (الهاء) لا تعنى الكل بل تعبر عن الجزء .

وعلى هذا فإن القول الأول رغم كل المـأثورات التـى تدعمـه لا يسـلم من النقد والمآخذ خاصة وأنه يتعرض لمسألة غيبية ليس هناك خبر صـادق من صاحب الرسالة المتصل بالوحى يمكن أن يحسمها.

أما القول الثانى :-

وإذا كان القـول الأول تضمـن آثـارا تؤيـده ، ومـع إختلافنـا فـى مـدى صحتها ، فإن القول الثانى لا يدعمه إلا قليل مـن الآثـار ، وبالتـالى نتحفظ تجاه هذا القول أيضا لأنه ما الداعى إلى تقطيع القرآن وتقسيمه على بضـع وعشرين سنة ينزل فى كل سنة جزءا معينـا ، ولـو صـح ذلـك لاستغرق نزوله ثلاثين سنة لأنه ثلاثون جزءا ، وهذا لم يحدث ، ويبدو أن أصحـاب هذا الرأى اختلط عليهم أمر نزول جبريل فى شهر رمضـان مـن كل عـام ليراجع مع رسول الله – عليه السلام – ذلك الجزء الذى حفظه طوال العام وليجيد تلاوته ، تداخل هذا الأمـر مـع أمر النزول فقـالوا نـزل فـى بضـع وعشـرين سنة .

أما القول الثالث :-

ويرى أصحابه أن بداية نزول القرآن الكريم كان فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات ، وهذا القول مقبول عقلا ، لأنه يتطابق مع الواقع ومع آيات القرآن الكريم الدالة على ذلك . وإذا كان القرآن الكريم قد نزل مفرقا فإن هذا لا يعد عيبا فيه يدافع عنه ، بل يعد تمييزا له عن الكتب السابقة . كما أن نزوله مفرقا يبعث على التمكن من حفظه حتى لا يحدث له كما حدث للكتب السابقة من تبديل وتغيير . كما أن نزول القرآن منجما فيه دلالة على أنه خاتم ، حتى يتمشى مع الحوادث التى ستقع فى كل زمان أحداث مشابهة لها فيسترشد الناس بما نزل لكى يحكموا فى الحوادث التى تقع أمامهم .

أما السر فى نزول القرآن منجما – أى مفرقا – فقد تولى الحق سبحانه وتعالى توضيحه ، فقال : " وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً (١) " .

يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل .. فأجابهم الله تعالى بقوله : " كذلك " أى أنزلناه كذلك مفرقا ، (لنثبت به فؤادك) . أى لنقوى به قلبك ، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادث كان أقوى للقلب .

وأشد عناية بالمرسل إليه ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه ، وتجديد العهد به ، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الكتاب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، وقال المفسرون : " لنثبت

---

(١) سورة الفرقان – الآية ٣٢ .

به فؤادك " أى لتحفظه ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق عليه حفظه .

وقال أحد الباحثين [١] : أن هناك حكمة أخرى أرادها الحق سبحانه . وهى التدرج فى تربية الأمة دينيا وخلقيا وإجتماعيا وعلما وعملا ، وهذه الحكمة هى التى أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله : " وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا [٢] " .

وقال الزركشى : " إنما لم ينزل جملة واحدة ، لأنه منه الناسخ والمنسوخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما نزل مفرقا ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار على قول قيل ، أو فعل فعل ، ونزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم . وفسر به قوله تعالى : " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا " .

---

(١) د. / محمد محمد أبو شهبة ، المدخل لدراسة القرآن الكريم ، ص ٨٢ .
(٢) سورة الإسراء – الآية ١٠٦ .

الفصل الرابع

أول ما نزل من القرآن

اختلفت الروايات حول أول ما نزل من القرآن الكريم ، وهنـاك أقـوال أشار إليها السيوطى فى كتابه (الإتقان) موضحا هذا الاختلاف ...

القول الأول :-

وهو الذى رجحه السيوطى حيث بدأ بقولـه : " وهـو الصحيـح " قولـه تعالى : " إقرأ باسـم ربـك الـذى خلـق. خلـق الإنسـان مـن علـق " ، وأورد صاحب الإتقان الرواية المنسوبة للسيدة عائشـة رضـى اللـه عنهـا فـى هـذا الشأن حيث تقول : " أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسـلم مـن الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيـا إلا جـاءت مثـل فلـق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يـأتى حـراء فيتحنـث فيـه الليـالى ذوات العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فيتزود لمثلهـا ، حتى فجأة الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال : إقرأ ، قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما أنا بقـارئ ، فـأخذنى فغطنـى حتى بلغ منى الجهد ، ثـم أرسلنى ، فقـال : إقـرأ ، فقلـت مـا أنـا بقـارئ . فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقـال : إقـرأ ، فقلـت مـا أنـا بقارئ ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهـد ثـم أرسلنى فقـال : إقـرأ باسـم ربك الذى خلق ، حتى بلغ مالم يعلـم ، فرجـع بهـا رسـول اللـه صلـى اللـه

عليه وسلم ترجف بوادره . وهذا الحديث تجتمع عليه معظم الآراء ، ورغم ذلك نجد أقوالا أخرى .

القول الثانى :-

ويرى أصحابه أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : " يا أيها المدثر " ، وقد رواه أيضا الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال يا أيها المدثر ، قلت : أو إقرأ باسم ربك ، قال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامى وخلفى و عن يمينى وشمالى ، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو : يعنى جبريل ، فأخذتنى رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى ، فأنزل الله يا أيها المدثر قم فأنذر .

القول الثالث :-

ويقول أصحابه بأن أول ما نزل هو سورة الفاتحة ، وقد أورده صاحب الكشاف حيث يقول : " ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت اقرأ ، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب .

القول الرابع :-

ويقول أصحابه أن أول مانزل من القرآن الكريم " بسم الله الرحمن الرحيم " . وقد حكاه ابن النقيب فى مقدمة تفسيره ، وأخرج الواحدى بإسناده عن عكرمة والحسن قالا : أول مانزل من القرآن بسم الله الرحمن

الرحيم ، وأول سورة إقرأ باسم ربك ، وأخرج ابن جرير وغيره من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : أول ما نزل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم قال : يامحمد إستعذ ثم قل بسم الله الرحمن الرحيم .

وسنناقش هذه الأقوال ولنبدأ **بالقول الثانى** لأن الروايات المروية فيه تؤكد صحة ترجيح القول الأول " إقرأ باسم ربك الذى خلق " ، لأن النبى يقول إننى كنت راجعا من غار حراء ، ونظرت الى السماء فوجدت الملك ، .. وهنا نقف قليلا لنتساءل ، كيف عرف الرسول عليه السلام أن هذا هو الملك إن لم يكن قد رآه قبل ذلك ، وكانت هذه الرؤية فى المرة التى جاء فيها بسورة إقرأ باسم ربك الذى خلق .

وأيضا فى وصفه بقوله تعالى : " يا أيها المدثر " دليل آخر على أنه حدث له ذات مرة أن دثر وزمل ، ولذلك كان النداء له بالحالة التى هو عليها من الخوف والفزع ، ولاتتفق مع ما أورده السيوطى من إجابات على هذا الموضوع ، وخاصة ماجاء بأنها أول سورة كاملة نزلت لأنها تتضمن حديثا عن موقف لأحد الكفار – الوليد بن المغيرة – وما قاله عن القرآن ، والوعيد الذى توعده الله تعالى به حيث قال تعالى : " ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا " . حينما خاف من أهله ، وكان قريبا من الإسلام ، ولخوفه من المعايرة تراجع وقال : " إن هذا إلا سحر يؤثر " ، وبالتالى فكيف تكون السورة مرة أول مانزل ، ومرة أخرى بأنها أول سورة كاملة نزلت ؟؟ و إذا أرجعنا تاريخ نزولها بعد إقرأ ، فلا يمكن أن تكون هى أول سورة نزلت من القرآن .

أما القول الثالث : وهو الخاص بسورة الفاتحة ، فمن الثابت أنها نزلت بعد ذلك لأنها لم ترد إلا فى روايات قليلة ، ويقال إنها نزلت مرتين أحدهما بمكة والأخرى بالمدينة ، وعلى هذا فليس هناك سند صحيح على أوليتها ، كما أنها من السور التى نزلت جملة واحدة فى القرآن وربما كانت الأولى فى هذا الباب ، وعليه فلا أولية لها فيما نحن بصدده .

أما القول الرابع : فهو لا يعد قولا برأسه لأن أى آية من الآيات السابقة التى ورد فيها ترجيح بأنها الأولى كانت مصدرة بقوله تعالى : " بسم الله الرحمن الرحيم " ويعقب صاحب الإتقان على ذلك بقوله : " وعندى أن هذا القول لايعد قولا برأسه فإنه من ضرورة نزول السور " ، وبالتالى يمكن القول بأنها أول ما نزل على الإطلاق وهى أمر حتمى .

لما الحديث عن أول ماتزل فيشمل كذلك الآيات التى نزلت غير البسملة . كما أن القرآن الكريم قد أشار إلى أنها كانت مستخدمة وموجودة عند أصحاب الرسالات السابقة بدليل أن سيدنا سليمان صدر كتابه إلى بلقيس ملكة سبأ بها ، يقول تعالى : " إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم " .

ولذلك فمن المرجح أن تكون أقدميتها تسبق القرآن الكريم ذاته .

أما عن **الرأى الأول** : وهو قوله تعالى : " إقرأ " فمعظم الأئمة والمفسرين يؤيدون هذا الرأى . وبالإضافة إلى هذا فبداية السورة تؤكد أن هذا القرآن نزل على النبى صلى الله عليه وسلم لأن النبى عليه السلام كان أميا ، وبالتالى فلابد من تعليمه أولا ، وإخباره بماهية ماسينزل عليه . ثم أن الرواية تؤكد رؤيته للوحى لأول مرة ، ولذلك إرتجف وارتعد حينما رآه

لأنه لم يكن لـه عهد بهذه الهيئـة من قبل ، وظـل يرتعد ويرتجف حتـى وصلت خديجة ، وبعثت بالرسول عليه السـلام و أبـى بكـر إلـى ورقـة بـن نوفل ، وكان علـى علم بـالكتب السماوية السـابقة ، فـأخبره بـأن هذا هـو النـاموس الـذى نـزل علـى الأنبيـاء السـابقين ، كمـا بينـت الكتـب السـماوية السابقة ، ومن هذه اللحظة عرف محمد عليه السلام أن هذا هـو المـلاك أو الوحى .

آخـر ما نـزل من القـرآن :-

ويختلف العلماء أيضا حول آخر مانزل من القرآن إختلافا يرجـع إلـى مارواه الصحابة عن ذلك ، **وسـنعرض لكل هذه الآراء فيما يلـي :**

القول الأول :-

يقول بعض الصحابة إن آخر مـانزل مـن القرآن آيـة الكلالـة ، وهـى آخر آية فى سورة النساء : **" يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة "**

القول الثانـى :-

ويرى بعض الصحابة أن آخر ما نزل آية الربا : **" يا أيها الذين آمنـوا اتقوا الله و ذروا مـابقى مـن الربـا إن كنتـم مؤمنيـن "** ﴿ سـورة البقـرة – الآية ٢٧٨ ﴾ . وهذا القول يقول به كثير من العلماء والمحدثين .

القول الثالث :-

ويرى بعض الصحابة أن آخر مانزل من القرآن قوله تعالى : " واتقوا

يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون " ﴿ البقرة - ٢٨١ ﴾ ، وبينما تذكر رواية أن بين نزول هذه الآية وموت النبى - عليه السلام - واحد وثمانين يوما ، هناك رواية أخرى تقول إن بين نزول هذه الآية وبين وفاة الرسول - عليه السلام - تسع ليال .

القول الرابع :-

ويرى القائلون به أن آخر مانزل قوله تعالى : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلاهو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم " .

القول الخامس :-

وبعض الصحابة يقولون إن آخر مانزل من القرآن قوله تعـــالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " ﴿ المائدة - ٣ ﴾ ، وهناك روايات أخرى كثيرة وأقوال فى آخر مانزل من القرآن .

وقد وقف العلماء أمام هذا الإختلاف ، فقالوا إن هذه الأقوال ليس فيها شئ مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد صدرت عن الصحابة بضرب من الاجتهاد أو غلبة الظن . ويحتمل أن يكون كل منهم قد أخبر عن آخر ماسمعه من النبى عليه السلام ، أو أن يكون قد أراد آخر مانزل فى موضوع معين لا من القرآن كله .

وحاول السيوطى أن يوفق فى كتابه (الإتقان) بين من قال بآية الربا و آية الدين ، وبين القائلين بآية " يستفتونك " حيث قال : " ربما كانت آية

يستفتونك هى آخر ما نزل من آيات المواريث . أما آيات البقرة " آية الربا ، واتقوا ، وآية الدين " هى آخر ما نزل بصفة عامة ، ويكون السبب فى هذا الترجيح عنده أن آية الربا وآية الدين ، وبينهما آية " واتقوا يوما " فيها إشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول .

وإذا ماوقفنا أمام هذه الأقوال والآراء جميعها وجدنا أن أكبر الآيات دلالة على تمام الدين وكماله قوله تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " . وذلك إذا أخذنا منطق السيوطى فى الترجيح . لأن آية المواريث فيها أحكام ، وقد تكون تماما لأحكام المواريث ، وكذلك آية الربا قد تكون تماما للحدود ، وآية الدين قد تكون تماما للمعاملات .

ونحن نقف مع الدكتور يوسف خليف فى تتبعه التاريخى لنزول القرآن الكريم ، فمن الثابت أن الآية (٢٨١) من سورة البقرة : " واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون " . نزلت بمنى فى حجة الوداع ، وكذلك نزلت سورة النصر ، وأن آية المائدة : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " ، نزلت بعرفات فى حجة الوداع أيضا .

ومن ذلك نستطيع أن نقول ، نزلت آية المائدة فى عرفات ، ثم نزلت آية البقرة وسورة النصر بعد ذلك فى منى . وبهذا – والله أعلم – تكون آخر سورة كاملة نزلت هى سورة النصر ، وأن آخر آية نزلت هى آية البقرة ، وكلتاهما تؤذن بانتهاء الرسالة وتعلن انتشار الإسلام .

الفصل الخامس

تنجيم القرآن

لم ينزل القرآن الكريم جملة واحدة فى صحف مكتوبة كما نزلت الكتب السماوية السابقة ، وإنما نزل مفرقا على مدار سنوات بعثته – صلى الله عليه وسلم – أو كما يقول العلماء نزل منجما .

وقد أثار المشركون حول هذا الموضوع إعتراضا سجله القرآن الكريم ، وتولى الرد عليه حيث قال تعالى : "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (١) " .

ولنقرأ أيضا قوله سبحانه : "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (٢) ".

فقد بين الله تعالى فى هذين الموضعين الحكمة فى نزول القرآن منجما ، **والأسباب التى من أجلها لم ينزل القرآن الكريم جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة :**

وأول هذه الأسباب : تثبيت فؤاد النبى عليه السلام ، وإشعاره بأن الله معه دائما لايتخلى عنه ، فكلما تعقدت الأمور ، واشتدت الأزمات حول الرسول عليه السلام ، وثارت المشكلات ، نزلت آيات من القرآن تعيد الطمأنينه إلى نفسه فيثبت فؤاده ، ويشعر بأن الدعوة ماضية فى طريقها حتى تبلغ مداها ، على الرغم من كل العقبات والأزمات والمشكلات . ولاشك فى أن تكرار نزول الوحى من عند الله فيه ارتياح وفرح وسرور ينشرح له صدر

(١) سورة الفرقان – الآية ٣٢ : ٣٣ . (٢) سورة الإسراء – الآية ١٠٦ .

النبى عليه السلام لأن فيه دلالة على العناية الإلهية به . وتعهد الله له ورضاه عنه . ولذلك يقولون أن الرسول كان أجود مايكون فى رمضان لكثرة لقائه جبريل عليه السلام ، حيث كان جبريل يلقاه فى كل ليلة من ليالى رمضان فيدارسه القرآن .

ولهذا السبب إشتملت الآيات والسور المكية التى نزلت فى المرحلة الأولى من تاريخ الدعوة الإسلامية على أحاديث كثيرة عن قصص الأنبياء والرسل ، كما إشتملت على أحاديث عن الأمم الغابرة . لأن فى ذكر هذه القصص و هذه الأنباء تثبيت لفؤاد النبى عليه السلام وعزاء له على مايلقاه من أذى قومه ، وإعلامه بأنه ليس بدعا من الرسل ، ولكن الجميع لقوا مالقى من تكذيب أقوامهم لهم وتعرضوا أيضا لكثير من ألوان الأذى والاضطهاد . وفى هذا يقول تعالى : " وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (١) " ، وفى آيات كثيرة من القرآن الكريم نستمع إلى الله عز وجل وهو يهون عن رسوله الكريم مايلقاه من عناء ومشقة فى سبيل دعوته نحو قوله سبحانه : " فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٢) " . و قوله تعالى : " وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (٣) ". وقوله تعالى : " وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ، فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا (٤) " .

<u>والسبب الثانى فى نزول القرآن منجما</u> : التدرج بالتشريع والأحكام ، و مسايرة حاجات المجتمع الجديد الذى كان يؤسسه الرسول عليه السلام

(١) سورة هود – الآية ١٢٠ .
(٢) سورة يس – الآية ٧٦ .
(٣) سورة المزمل – الآية ١٠ .
(٤) سورة الأنعام – الآية ٣٤ .

ويرسى قواعده . حتى لايفاجأ المسلمون بكل مافرضه عليهم الإسلام من أحكام وتشريعات فيثقل عليهم تنفيذها ويضيقوا بها ، ومن هنا نرى أن أول مانزل من القرآن آيات العقائد التى تتضمن أصول الإسلام الاعتقادية ، حتى إذا ما آمن بها العرب واقتنعوا بها بدأت تنزل آيات الأحكام والتشريعات .

ولذلك لم تحرم الخمر مرة واحدة ، وإنما تدرج الإسلام فى تحريمها ، ففى أول الأمر نزل قوله عز وجل : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا (١) ". و بعد ذلك كانت الخطوة التالية حيث نزل قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَاتَقُولُونَ (٢) " .

وبعد ذلك حرمت الخمر نهائيا عندما أنزل الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ...فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٣) " .

وهكذا تدرج القرآن الكريم فى تحريم الخمر على العرب . فنراه عز وجل يبين لهم أولا فى شئ من اللين أن ضررها أكبر من نفعها ، وبعد ذلك نهاهم عن شربها فى أوقات الصلاة حتى يقيموها على وجهها الصحيح . وكانت الخطوة الأخيرة فصدر الأمر بتحريمها نهائيا لأنها رجس من عمل الشيطان فعليهم أن يجتنبوه .

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢١٩ . (٢) سورة النساء – الآية ٤٣ . (٣) سورة المائدة – الآية ٩٠ : ٩١ .

ولو أن تحريم الإسلام للخمر كان مرة واحدة لوجدوا مشقة وعسرا في ذلك . ومن هنا نلاحظ أن الخمر لم تحرم إلا فى المرحلة الأخيرة من تاريخ الدعوة الإسلامية . وذلك لأن التحريم النهائى نزل بسورة المائدة . وسورة المائدة نزلت بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة . وليس هناك شك أن مثل المجتمع الإسلامى فى المراحل الأولى من بنائه فى حاجة إلى قوانين وتشريعات وأحكام تلبى حاجاته ومطالبه المتجددة والمتطورة ، ومن الطبيعى أن ينزل القرآن الكريم متدرجا بهذه القوانين والتشريعات والأحكام وفق ظروف هذا المجتمع ومطالبه ، فكلما احتاج إلى تنظيم أو تشريع أنزل الله عز وجل من القرآن مايحقق له هذه الحاجات ويلبى هذه المطالب .

والسبب الثالث : تيسير حفظه على رسول الله صلى الله عليه وسلم و على الذين يؤمنون به ، وذلك لأن العرب الذين أنزل القرآن فيهم كانوا – معظمهم – أميين لايقرءون ولايكتبون . ولو أنزل القرآن جملة واحدة لوجد العرب مشقة وعسرا فى حفظه ، قال تعالى فى هذا المعنى : " وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث " .

وفى هذا يقول بعض العلماء : " أنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبى يكتب ويقرأ ، وأنزل القرآن الكريم مفرقا لأنه أنزل غير مكتوب على نبى أمى ". وليس من اليسير حفظ القرآن الكريم كله جملة واحدة . وقد قال عز وجل يصف كتابه الكريم : " إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا [1] " ، أى قولا شديدا ليس من السهل حفظه جملة واحدة . ولذلك أنزل القرآن على النبى آيات آيات ، وإن لم يمنع هذا من نزول بعض السور كاملة . وفى هذا تيسير على الأمة الإسلامية . إلى جانب ذلك كان الرسول عليه السلام

حريصا على أن يفهم أصحابه ماينزل عليه من القرآن . وكان الصحابه لايتجاوزن الآيات التى يحفظونها حتى يفهموا معانيها ويتدبروا مافيها .

والسبب الرابع : هو الرد على ماكان يثيره اليهود والمشركون من مشكلات فى وجه النبى عليه السلام ، ومايطرحونه عليه من أسئلة يريدون بها احراجه . فكان القرآن الكريم يتولى الإجابة عن هذه الأسئلة ، ويرد على هذه المشكلات.ولذلك نرى طائفة من القرآن الكريم تبدأ بقوله تعالى : " يسألونك " نحو قوله عز وجل : "وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ (٢) ".و قوله تعالى : "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ (٣) " ، وقوله سبحانه : "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ (٤) " ، وقوله عز وجل : "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ (٥) " .

ومن ذلك مايروى من أن اليهود طلبوا إلى مشركى مكة أن يسألوا الرسول عليه السلام عن ثلاثة أشياء إن عرفها فهو نبى ، و إن لم يعرفها فهو يدعى النبوة : عن فتية آمنوا بربهم وناموا سنين طويلة ثم أيقظهم الله تعالى بقدرته ، وعن رجل طواف بالأرض يجوبها شرقا وغربا ، وعن ماهية الروح . وهى المسائل التى تولى القرآن الإجابة عنها فى سورة الكهف ، والإسراء .

ومن ذلك أيضا ماكان يتوجه به بعض الصحابة إلى الرسول الكريم من استفسارات عن بعض شئون دينهم ودنياهم ، فكان القرآن الكريم يتولى الرد عليهم ، نحو قوله تعالى : "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ (٦) " ، وقوله سبحانه : "يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ (٧) ".

---

(١) سورة المزمل – الآية ٥ . (٢) سورة الكهف – الآية ٨٣ . (٣) سورة الإسراء – الآية ٨٥ .
(٤) سورة البقرة – الآية ٢١٥ . (٥) سورة المائدة – الآية ٤ . (٦) سورة النساء – الآية ١٢٧ .
(٧) سورة النساء – الآية ١٧٦ .

الفصل السادس

أسباب النـزول

يقسم العلماء نزول القرآن إلى قسمين : قسم نـزل ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب إلا السبب العام الذى نزل من أجله القرآن وهـو الهداية والدعوة إلى الإسلام والإيمان بعقائده . وقسم نـزل عقب واقعة أو إجابة لسؤال أو حلا لمشكلة أو عقب قصة معينة . وهذه الأسـباب الخاصـة التـى نزلت بعض الآيات مرتبطة بها عرفت بأسباب النزول .

ويتضح من هذا التقسيم أن المقصود بما نزل إبتـداء أى بـدون أسباب هو الجزء الخاص بالقصص القرآنى ، أو الآيـات التـى نزلـت بفرائـض أو أمر أو نهى، والآيات التى لها أسباب كانت فى مناسبات محددة ومعروفة .

ونلاحظ أن القرآن الكريـم لـم يتحـدث عن نفسـه مـرة مـن المـرات إلا وذكر أنه جاء لسبب . قال تعالى :" و أنزلنـا إليـك الذكـر لتبيـن للنـاس مـا نزل إليهم ولعلهم يهتدون ". ولنقرأ قوله عز وجل فى سورة الشعراء التـى تتحدث عن قصص الأنبيـاء : " طسـم . تلـك آيـات الكتـاب المبيـن . لعلـك باخع نفسـك ألا يكونـوا مؤمنيـن " ليتبين لنـا أن سـبب ذكـر هـذه القصـص يرجع إلى الحالة التى كان عليها النبى عليه السلام من الجهد والمعاناة من أجل أن يؤمن النـاس جميعـا ، وقـد أراد اللـه تعـالى أن يطمئنـه أن طبيعـة البشر والناس ألا يؤمن أكثرهم وأن ذلك حدث مع غيره من الأنبياء .

ولذلك نستطيع أن نقول إن القرآن الكريم كله نزل بأسباب ، حتـى لـو لم تكن هذه الأسباب ظاهرة كأن تكون إجابة لدعاء قلبى للنبى عليه السلام.

فالله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وكثير من الأنبياء كان يدعو الله خفية فيجيبه الله علنا .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الله تعالى يعلم ما كان يدعو به الرسول صلى الله عليه وسلم سواء بالقلب أو باللسان ويلبى دعائه .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أحيانا يغلب عليه الضعف بحكم بشريته مما كان يعانيه من إيذاء أهله وعدم تصديقهم له فكان الله سبحانه وتعالى ينزل عليه قصص الأنبياء الذين لاقوا ما لاقى من صنوف الضيق حتى يثبت على موقفه فليس هو النبى الوحيد الذى يعانى . وهذا هو السبب الخفى. وبعد .. **فهل هناك ضرورة لمعرفة أسباب النـــــــــزول ؟ أم أنه لا فائدة منها لإنها بمثابة التاريــــــخ ؟**

الحقيقة أن معرفة أسباب النزول من المسائل المهمة التى لابد من معرفتها سواء لمن يتصدى لتاريخ القرآن أو من يتصدى لتفسيره . فهى تعين المؤرخ على تتبع المراحل التى نزل فيها القرآن . وتبين له المناسبات التى إرتبط نزوله بها . وتساعد المفسر على معرفة المعنى الصحيح المقصود من الآيات . وقد حرم العلماء تفسير القرآن على من لا يعرف هذه الأسباب . يقول الواحدى : " لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ". لأن الجهل بهذه الأسباب كثيرا ما يوقع فى الخطأ فى فهم الآية،وقد ذكرت أقوال كثيرة فى فضل معرفة أسباب النزول منها :

أولا : أن معرفة أسباب النزول تساعد على فهم معانى القرآن وآياته ، فكما يقول ابن تيمية : " إن معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب " .

ثانيا : تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب ، فهناك فقهاء يهتمون عند استنباط حكم من أحكام الدين بفهم السبب الذى نزلت من أجله ، وبالتالى يتحدد مجال الحكم ، ويمكنهم بعد ذلك القياس على ما يشبهها من حالات .

ثالثا : معرفة الحكمة الباعثة على هذا الحكم ، وبالتالى يتضح أمر التشريع الإسلامى .

رابعا : معرفة أسباب النزول تعين أيضا على فهم الاختلافات بين القرآن والكتب السماوية الأخرى ، وتحددها ، فقد كان اليهود والنصارى يعيشون فى الطائف والمدينة ولديهم كتبهم ولكى يؤمنوا بالقرآن فكان لابد أن يعرفوا أوجه اختلاف القرآن الكريم عن كتبهم ، وما كان لهم أن يفهموا أحكام القرآن بدقة إلا بعد معرفة أسباب النزول .

ولا سبيل إلى معرفة أسباب النزول إلا بالنقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا الرسول عليه السلام ، وعاشوا نزول القرآن ، ووقفوا على المناسبات الخاصة التى نزلت فيها بعض الآيات . وحديث الصحابى فى

هذه المسألة يعده العلماء فى حكم الحديث المرفوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقول علماء الحديث : " إذا أخبر الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند ".فرواية سبب النزول عن صحابى مقبول عند علماء الحديث وإن لم تعززه رواية أخرى ، لأن قول الصحابى فيما لا مجال للاجتهاد فيه ، حكمه عندهم حكم الحديث المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما إذا روى سبب النزول عن تابعى فحكمه لا يقبل إلا بشرطين :

الشرط الأول :-

أن يعزز الحديث بحديث لتابعى آخر منطبق عليه ، وذلك حتى نطمئن إلى صحة الحديث، وأن التابعى لم يقله باجتهاد وإنما سمعه من بعض الصحابة .

والشرط الثانى :-

أن يكون التابعى الذى رواه من أئمة التفسير الذين ثبت أخذهم عن الصحابة بدون شك فى ذلك .

وهنا نتساءل : هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟

اختلف العلماء حول هذا الموضوع فمنهم من قال إن العبرة بعموم اللفظ ، ومنهم من ذهب إلى أن العبرة بخصوص السبب .

ويقف السيوطى فى جانب الفريق الأول يؤيد موقفهم كما أشار هو إلى ذلك فى كتابه (الإتقان) بقوله : " والأصح عندنا الأول ".

ونــرى أن العبرة بعموم اللفظ مع ضرورة الاستفادة بخصوص السبب ، لأن القرآن العظيم لم ينزل لقوم بعينهم بل نزل إلى البشرية جمعاء ، ولم ينزل محدد الزمن ولكن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . و إلا لأصبح مثله مثل غيره من الكتب السماوية التى نزلت لقوم دون الآخرين . أما القرآن فهو يخاطب الناس جميعا ، ونزل دستورا لهم يهديهم فى كل زمان ومكان ، وبالتالى فإن ما نزل فى حادثة مخصوصة يعم فى كل القضايا المتشابهة ، فمعرفة السبب الخاص وراء الآية يساعد على تطبيق الآية فى الحالات المشابهة للحالة الأولى . كما أن القرآن الكريم الذى كان ينزل فى حوادث محددة أو مناسبات خاصة لم يكن يقصر ألفاظه على الحادثة أو المناسبة فقط ، بل كان ينزل عاما ، وقليلا ما ذكر القرآن الحادثة بالتخصيص وذكر الأسماء ، مثل زواج النبى عليه السلام من زينب بنت جحش التى كانت زوجا لزيد بن حارثه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى كان يدعى زيد بن محمد حيث تبناه عليه السلام – إلى أن نزلت سورة الأحزاب فحرمت التبنى ، ونهى الرسول والمسلمون عن ادعاء الأبناء . وفى هذه المسألة نجد أن اللفظ جاء عاما لم يقصد اسما بعينه ، حيث قال تعالى : " وما جعل أدعياءكم أبناءكم " ، وقال أيضا : " ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ".

ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة

وهو فى حقيقته نوع من أسباب النزول ، والأصل فيه موافقات عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ". وقال ابن عمر : " ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر . وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال :" كان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن ".

وأخرج البخارى عن أنس قال : " قال عمر :وافقت ربى فى ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت . واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وقلت يا رسول الله ا، نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه فى الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى ، أو وافقنى ربى فى أربع : نزلت هذه الآية :" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين – الآية – فلما نزلت قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين " ، فنزلت : فتبارك الله أحسن الخالقين .

وأخرج عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى أن يهوديا لقى عمر بن الخطاب فقال إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا ، فقال عمر : من

كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عـدو للكـافرين .
قال : فنزلت على لسان عمر .. وهكـــذا .

وإذا تتبعنا هذه الآيات وجدنا أن لها مناسبات وأسـباب وقد أفتى فيهـا عمر برأى كان يوافق الآية التى تنزل فيها قبل نزولها حدسا ، وليس هـذا إدعاء معرفة عمر رضى الله عنه الغيب ولكنــه نـور الإيمـان الـذى يجعل صاحبه ينطق بالحق .

وممن نزل القرآن على لسانهم من الصحابة سعد بن معاذ ، فقد أخرج سنيد عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل فـى أمـر عائشـة قال : سبحانك هذا بهتان عظيم ، فنزلت كذلك . ومنهم مصعـب بـن عمـير فى قوله يوم أحد :" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . فنزلت الآية هكذا ، وكان لها سبب وذلـك أن بعض المؤمنين الضعفاء عندما سمع أشاعة مقتل النبى عليه السلام فى أحد بدأوا يهربون من المعركة ، فقال مصعب هذا وأخذ يكرره .

الفصل السابع

جمـــــع القـــــرآن

يقصد بجمع القرآن تلك الجهود التى استهدفت جمع نصوصه وتنظيمها فى إطار موحد انتهى إلى شكل المصحف الذى بين أيدينا .

وقد جمع القرآن الكريم ثلاث مرات فى ثلاثة عهود : المرة الأولى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، والمرة الثانية فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، والمرة الثالثة فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقد اختلفت طريقة الجمع ودوافعه فى كل مرة من المرات الثلاث .

جمع القرآن فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :-

ظل القرآن الكريم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم طوال سنوات البعثة منذ فجأه الوحى فى غار حراء وهو فى الأربعين من عمره حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى فى الثالثة والستين . وكان القرآن – كما قلنا من قبل – ينزل منجما تبعا للأحداث والمناسبات التى واجهتها الدعوة الإسلامية ، والقرآن الكريم يسجل هذه الحقيقة فيما ذكره على لسان المشركين من أنهم كانوا يودون أن ينزل هذا الكتاب الذى يزعم محمد أنه يوحى إليه دفعة واحدة ، ويرد عليهم بمايفحمهم فى قوله تعالى :" وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ".

وقد استمر الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما وأجزاء متفرقة ، تتراوح بين الوحدة الصغيرة (الأية) والوحدة الكبيرة

(السورة) ، وقد تكون السورة صغيرة كسورة الإخلاص والكوثر ، وقد تكون كبيرة كالأنعام مثلا .

إن كتابا ينزل على مدى ثلاث وعشرين عاما ، فى مواطن متفرقة فى المدينة ، وفى مكة ، وخارجها ، وفى أحوال مختلفات ، بعضها هادئ ، وأكثرها غير مستقر ، كتاب أملاه الروح الأمين على قلب النبى عليه السلام . يحتاج بطبيعة الحال إلى جهود هائلة لجمعه وترتيبه وضبط نصوصه ، مع ما كان يواجه ذلك العصر من عجز فى أدوات الكتابة والتدوين .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ صحابته ما ينزل عليه من آيات القرآن وسوره فيحفظونها فى صدورهم ، وعرف عن بعضهم أنه كان يحفظ القرآن كله كالخلفاء الأربعة ، وعائشة وحفصة و أم سلمة ، وأبى ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، والعبادلة الأربعة : ابن عباس ، وابن عمر ، وابن عمرو ، وابن الزبير ، وغيرهم كثيرون .

ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بحفظ القرآن فى القلوب والصدور ، وإنما رأى – إلى جانب ذلك – أن يأمر بتدوينه وكتابته فى صحف . مبالغة فى حفظه والعناية به . ومن هنا كان نهيه عليه السلام عن كتابة الحديث ، حتى لا يختلط النصان ، أو يشغلهم ذلك عن كتابة القرآن الكريم .

فعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

واتخذ النبى عليه السلام من أجل ذلك جماعة من الصحابة ليكونوا كُتّابا للوحى يكتبون بأمره كل ما ينزل عليه من القرآن يلقبون بكتاب الوحى ، بلغت عدتهم فى أتم إحصاء حتى الآن ثلاثة وأربعين كاتبا ، كان من بينهم زيد بن ثابت ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، و أنس بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، والزبير بن العوام ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعبد الله بن رواحة. وكان من أكثر هؤلاء الكتاب نهوضا بهذا العمل الصحابى الجليل زيد بن ثابت رضى الله عنه ، وقد كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحى ، ولو فى جوف الليل ، يقول ادعوا لى زيد بن ثابت ، فيأتى ومعه الأقلام والمحبرة وشئ من الجلد أو الرقاق أو العظام أو قطع الجريد أو قطع الحجارة ، فيملى عليه النبى عليه السلام ما نزل من القرآن ، ثم يقول : ضعوا هذه الآية أو الآيات فى السورة التى تذكر فيها البقرة مثلا بين آية كذا وآية كذا ، فيمضى زيد إلى أحد بيوت زوجات النبى يكون فيه قطع الحجارة وغيرها مما كتب عليه الوحى السابق فى السورة المذكورة ، فيضع الآيات الجديدة فى مكانها الذى أشار إليه الرسول عليه السلام ثم يبدأ تناقل الصحابة للآيات التى تسامعوا بنزولها ، فيحفظونها عن ظهر قلب ، ويحاولون أن يفهموا معناها فهما يساعدهم على تطبيق مضمونها إن كان هذا المضمون بحاجة إلى تطبيق .

ومعنى هذا أن النبى عليه السلام كان يأمر أصحابه من كتاب الوحى أن يكتبوا ما ينزل عليه من القرآن أولا بأول ، وأنه كان يرتب لهم الآيات التى تنزل عليه منجمة فى مواضعها من السور ، حتى إذا ما كانت آخر سنة من حياته عليه السلام ، وتم نزول القرآن الكريم كله ، كانت كتابته قد تمت ، وكان ترتيبه قد أخذ صورته النهائية فى ضوء العرضة الأخيرة له مع جبريل عليه السلام ، فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت فى آخر سنة من حياة النبى عليه السلام : " أسر إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل يعارضنى بالقرآن كل سنة ، وأنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى ". حيث كان جبريل عليه السلام يراجع مع النبى ما نزل من القرآن فى شهر رمضان من كل عام ، فكان النبى يعتكف العشر الأواخر منه ، وفى السنة الأخيرة من حياته – السنة العاشرة للهجرة – اعتكف عشرين يوما من رمضان ، لأن جبريل راجع معه القرآن مرتين .

وبديهى أن جبريل عليه السلام كان يقرئه إياه ، ويسمعه منه مرتبا ترتيبا داخليا ، من حيث تكوين السور من الآيات ، وترتيبا كليا من حيث ترتيب السور على النحو المعهود فى المصحف الذى بين أيدينا ، فترتيب الآيات والسور هو توقيف نزلت به إرادة الله سبحانه ، وليس لأحد اجتهاد أو خيار أو هوى فى هذا الترتيب . وهو الترتيب الذى حفظ به الصحابة نصوص الوحى تعليما وتلقينا .

على هذا النحو تم جمع القرآن الكريم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم و تمت كتابته فى رقاع مختلفة مما كان يستخدم فى الكتابة فى هذه

المرحلة من تاريخ الحضارة العربية فى اللخاف وهى صفائح الحجارة أو الحجارة الرقاق وفى العسب وهو جريد النخل حيث يكشفون عن الخوص ويكتبون فى الطرف العريض منه ، وفى أكتاف الإبل والغنم بعد أن تجف ، وفى قطع الأديم وهو الجلد المدبوغ ، ومنه نوع رقيق يسمى الرق ، وكانت الكتابة فيه معروفة عند العرب . ولكن هذه الرقاع المختلفة لم تكن بالطبع مجموعة فى مصحف واحد . وإنما كانت صحفا مفرقة جمع بعضها إلى بعض من غير أن يشدها خيط يجمعها بين دفتين . وكان كل ما يكتب يوضع فى بيت النبى عليه السلام . ومن شاء من الصحابة نسخ لنفسه ما يشاء منه . فلما إنتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الصديق الخلافة ، انتقلت هذه الصحف إلى بيته .

جمع القرآن فى عهد أبى بكر :-

بعد لحاق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخلافة ، فارتد كثير من القبائل عن الإسلام ، وامتنع بعضها عن دفع الزكاة مستندة إلى تأويل فاسد للآية الكريمة : " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم " . وقالوا : لقد كان الأمر بالأخذ موجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مات ، فسقط الأمر ، لأن الغرض من أخذ الزكاة فات بموته .

وهكذا واجه المسلمون فتنة عظيمة أنستهم مصيبتهم فى فقد الرسول عليه السلام ، وسرعان ما جفت الدموع ، وتجمع شمل المسلمين ،

وحشدت الطاقات فى مواجهة الأخطـار ، وعقد الخليفـة الأول ألويـة لأحد عشر جيشا لردع المرتدين ، وإعادتهم إلى صوابهم .

وكـان جمـع أبـى بكـر للقـرآن الكريـم بعـد موقعـة اليمامـة التـى دارت رحاها بين المسلمين والمرتدين فى السنة الثانية عشرة للهجـرة . ففـى هـذه الموقعة استشهد سبعون من حفظة القرآن الكريم ، ففزع عمر بن الخطـاب ودخل على الخليفة أبى بكر وأخبره بأن عددا كبيرا من القراء قد إستشهد ، وأن قدرا كبيرا من القرآن يوشك أن يضيع وقد استحر القتل بهؤلاء الحفاظ الذين كانوا من جانب آخر حريصين على الشهادة فى سبيل الله .

وأشار عمر على أبى بكر أن يجمع القرآن حتى لا يضيع نصه بسـبب الظروف الجديدة . يريد بذلك مراجعة الصحف التى كتبت أيام النبـى عليـه السلام على ما يحفظه الصحابة فى صدورهم ، حتى يطمئـن إلـى أن شـيئا من القرآن لم يضـع ، ثم ترتيبها كما حفظت عن النبى عليه السلام وربطهـا بخيط حتى لا يضيع شئ منها أو يختلط ترتيبها الذى وقف النبـى صحابتـه عليه .

واستعظم أبو بكر أن يفعل شـيئا لـم يفعلـه الرسـول عليـه السـلام فـى حياته ، ولكن عمر مازال به حتى أقنعه ، فأرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت " كاتب النبى " وعهد إليه بهذا العمل . وقال له : إنك رجل شـاب عـاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليـه وسـلم ، فتتبـع القرآن فاجمعه . يقول زيد : " فوالله لوكلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمـع القـرآن . قلـت : كيـف تفعلـون شـيئا لـم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير . فلم يزل أبو

بكــر يراجعني حتى شـرح الله صـدرى للذى شرح لـه صـدر أبـى بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصـدور الرجـال ، حتى وجدت آخر سورة التوبـة مـع أبـى خزيمـة الأنصـارى لـم أجدهـا مـع غيره : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه مـا عنتم " حتـى خاتمة براءة . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر ".

بدأ زيد بن ثابت يباشر مهمته الجليلة بمعونـة مـن الصحابـة رضـوان الله عليهم ، وكان منهاجه على النحو التالى :

أولا : يضع بين يديه الأصول المكتوبة فـى بيوت أزواج النبـى عليـه السلام .

ثانيا : يعرض المكتوب علـى محفوظـه ومحفوظ الصحابـة ، علـى أن يكون مقياس الصحـة أن يشـهد شـاهدان علـئ مـا يجـئ بـه كل صحابى بأنهما سمعاه من النبى صلى الله عليه وسلم وأنه كتـب بين يديه وذلك لتوثيق النص المكتوب . ولكنهم قبلوا آخر سورة التوبة من أبى خزيمة الأنصارى مع أنها لم توجد عند غيره ، لأن النبى عليه السلام كـان قد جعل شـهادته بشـهادة رجلين ، ولذلك كان يلقب بذى الشهادتين .هذا مـع أن زيـدا ومـن كـانوا يعاونونه كانوا يحفظون القرآن كلـه ، وذلـك مبالغـة فـى تحـرى الدقة والاحتياط وحرصا على سلامة وصحة النص القرآنى .

ثالثا : يراجع عمر رضى الله عنه ومن معه كل ما يكتب .

وبهذا المنهج تم إنجاز أول مصحف فى التاريخ بل أول كتاب موثق طبقا لمنهجية فى التحقيق والتدقيق لا تغفل أدنى حرف فيه ، ويشهد على وثاقه حروفه كل أفراد الأمة الشاهدين فى المدينة المنورة ، واكتملت النسخة ورتبت الصحف وفق آخر عرضة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وضمت بين دفتين ، وشدت بخيط حتى لا يضيع منها شئ ، وحفظت فى بيت أبى بكر ، وأطلق عليها – بعد تبادل الرأى بين أبى بكر والصحابة – اسم (المصحف) ، وهى تسمية لم تكن معروفة أيام النبى عليه السلام .

وظل المصحف فى بيت أبى بكر ، حتى إذا مالبى نداء ربه انتقل إلى بيت عمر ، فلما لبى عمر نداء ربه انتقل إلى بيت ابنته حفصة أم المؤمنين بناء على وصيته ، فلما تولى عثمان الخلافة لم يشأ أن يطلبه منها احتراما لوصية عمر من ناحية واحتراما لشخصيتها من ناحية أخرى ، فظل محفوظا عندها .

جمع القرآن فى عهد عثمان :-

إذا نظرنا إلى الهدف من جمع القرآن فى عهد أبى بكر لوجدناه المحافظة على النص القرآنى من أن يضيع بعضه بسبب استشهاد طائفة من حفاظه فى حروب الردة وما ينتظر من استشهاد غيرهم فى حركةالفتوح الإسلامية التى كان المسلمون على أبوابها .

أما فى عهد عثمان فنرى أن الهدف من جمع القرآن هو توحيد النص القرآنى ، والقضاء على إختلاف المسلمين الذين انتشروا مع حركة الفتوح الإسلامية فى أرجاء العالم على قراءته ، أو – بعبارة أخرى – جمع

المسلمين على مصحف واحد ، والتخلص من المصاحف الفردية التي نشأ عنها هذا الاختلاف .

وكانت البداية عندما لاحظ أحد كبار الصحابة ، وهو حذيفة بن اليمان ، الذى كان مشتركا فى فتوح أرمينية وآذربيجان صورة من الاختلافات التى حدثت بين المسلمين فى مختلف الأمصار ، بين البصرة والكوفة ودمشق وحمص ، وقد أخذت الصراعات تتفاقم بين أطرافها ، حتى ليقول الواحد منهم لصاحبه : " قراءتى خير من قراءتك " ، حتى كاد يكفر بعضهم بعضا ، فهال هذا الأمر حذيفة بن اليمان ، وفزع إلى عثمان بالمدينة وأخبره بالذى رأى ، وقال : " أنا النذير العريان ، فأدركوا الأمة " ، واستجاب عثمان رضى الله عنه لهذا المطلب فجمع الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ، ورأوا جميعا ما رأى حذيفة ، فأرسل عثمان إلى السيدة حفصة أم المؤمنين يطلب منها نسخة القرآن المحفوظة عندها ، وقال : " أرسلى إلينا بالصحف ننسخها ثم نردها إليك " ، وكانت هذه الصحف هى التى حفظت عندها ، بعد وفاة أبيها عمر بن الخطاب .

وشكل عثمان لجنة من كبار الصحابة من حفاظ القرآن منهم زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن العاص ، وعهد إليها بالقيام بهذا العمل الجليل ، نسخ المصاحف التى قدر أمير المؤمنين حاجة المسلمين إليها . روى البخارى فى صحيحه أن حذيفة ابن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى

الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك , فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت و عبدالله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة . إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ".

وبدأت اللجنة عملها ، وكان ذلك – فيما يرجحه ابن حجر – فى السنة الخامسة والعشرين للهجرة ، وقال بعض الباحثين فى السنة الثلاثين وهى السنة التى كان فيها غزو أرمينية . ورغم أن أعضاء اللجنة جميعا كانوا يحفظون القرآن كله فى صدورهم ، فإنهم جعلوا اعتمادهم على الصحف التى كانت محفوظة فى بيت السيدة حفصة بناء على أمر عثمان وتوجيهاته ، وذلك ليكون المصحف العثمانى مستندا إلى أصل أبى بكر المستند بدوره إلى أصل الرسول عليه السلام ، الذى كتب بين يديه بأمر منه وتوقيف ، حتى لا يكون هناك مجال للشك أو الطعن .

ومضت اللجنة فى عملها ملتزمة شرط عثمان فى الرجوع إلى لغة قريش الذى نزل بها القرآن إذا وقع خلاف بينها .

وكتبت اللجنة عدة مصاحف أرسل بها عثمان إلى الآفاق بعد أن احتفظ بواحد منها لنفسه بالمدينة . وقد اختلف العلماء فى عدد هذه

المصاحف وفى الآفاق التى أرسلت إليها ، فمنهم من قال إنها أربعة ، ومنهم من قال إنها كانت خمسة ، وقال آخرون إنها كانت سبعة ، وهو العدد الذى يرجحه الباحثون على أساس أن الحكمة من عمل عثمان هى جمع المسلمين فى شتى الأقاليم الإسلامية على مصحف واحد .

يقول ابن أبى داوود فى كتابه (المصاحف) إن عثمان لما كتب المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف ، فبعث واحدا إلى مكة ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى اليمن ، وآخر إلى البحرين ، وآخر إلى البصرة ، وآخر إلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحدا " . وصرح عثمان لمن يشاء من الصحابة أن ينسخ لنفسه من هذا المصحف الإمام نسخة . وقد قام بعض الصحابة بنسخ نسخ لأنفسهم على نحو ما فعل عبدالله بن الزبير وأمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة .

وأمر عثمان بعد أن أرسل نسخ المصحف الإمام إلى الأقاليم المختلفة بأن تحرق جميع المصاحف الفردية الموجودة فى أيدى الناس ، حتى لا يعود الخلاف بينهم ، ولم يستثن إلا المصحف الذى كان عند حفصة ، إلى أن توفيت فأحرقه مروان بن الحكم الخليفة الأموى المتوفى سنة ٦٥ ه ولقى عمل عثمان تأييدا من كبار الصحابة ، فهذا على بن أبى طالب يقول :" لاتقولوا فى عثمان إلا خيرا ، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا على ملأمنا " . ويقول :" لو وليت ما ولى عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل ". ولكن هذا لم يمنع من أن يقف بعض الصحابة من هذا العمل موقف المعارضة والإنكار، وعلى رأس هؤلاء عبدالله بن مسعود الذى أبى أن يحرق مصحفه ، وأخذ يقول للناس :" من إستطاع أن

يغل مصحفا فليغلل ، فإنه من غل شيئا جاء بما غل يوم القيامة ". ويروى ابن أبى داوود فى كتابه (المصاحف) : " أن هؤلاء المعارضين فزعوا إليه يسألونه الرأى ، فأنكر على عثمان هذا العمل على أساس أن القرآن أنزل على سبعة أحرف تيسيرا على المسلمين ، فلا يحل لأحد أن يضيق عليهم ما يسره الله لهم . وعموما فقد رجع ابن مسعود بعد حين عن معارضته ، وعاد إلى رأى الجماعة مقتنعا بصواب ما قام به عثمان من جمع المسلمين على كلمة واحدة ، والقضاء على فتنة كادت أن تندلع بينهم.

على هذه الصورة تم جمع القرآن الكريم للمرة الثالثة ، واجتمع الناس على المصحف الإمام ، وبذلك تمت وحدة المسلمين ، واستقر رسم المصحف على ما سمى بالرسم العثمانى ، وهو ما كتب به القرآن على عهد عثمان ، وقد ساعد ذلك على تقليل الخلافات ، وتحديد الوجوه التى يقرأ بها المسلمون فى حدود هذا الرسم الذى أجمع صحابة الرسول عليه السلام عليه .

ونحن نقرأ القرآن الكريم الآن على الصورة التى قرأ بها الصحابة الأولون ، ونقف عندما وقفوا عنده ، وننطق حروف القرآن نطقا يتحرى الدقة والوضوح ، تماما كما كان يفعل السابقون ، دون أدنى تحريف أو تغيير يتصل بحرف من حروفه .

أما ضبط الكلمات بالشكل ، أو بمعنى آخر ضبط أواخر الكلمات بحركات الإعراب ، فقد تم على يد أبى الأسود الدؤلى قاضى البصرة أيام الأمويين المتوفى سنة ٦٧ بأمر من أميرها زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣ هـ ، وذلك عندما كثر دخول الأعاجم فى الإسلام ، وفشا اللحن

على ألسنةالمتكلمين بالعربية . وكانت حركات الإعراب التى وضعها أبو الأسود نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة ، ونقطة تحته للدلالة على الكسرة ، ونقطة بين يديه للدلالة على الضمة ، ونقطتين للدلالة على التنوين . أما وضع النقط على الحروف المتشابهة أو ما يسمى بإعجام المصحف فقد تم على يد نصر بن عاصم المتوفى سنة ٩٩ هـ ، وهو من تلاميذ أبى الأسود ، وكان ذلك فى ولاية الحجاج بن يوسف المتوفى سنة ٩٥ هـ على العراق . وقد وضعت هذه النقط على الحروف بمداد يخالف لون المداد الذى وضعت به نقط أبى الأسود تمييزا بينهما .

واستمر الأمر كذلك إلى أن جاء الخليل ابن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ فاستبدل بنقط الإعراب حركات الإعراب المتداولة بيننا اليوم ، الفتحة والكسرة والضمة والتنوين .

ولاشك أن من آيات الله سبحانه فى هذا الدين حفظ القرآن الكريم من أى تحريف أو تغيير بعكس ما حدث للكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل ، فقد تعرضا للكثير من التحريف والتبديل بأيدى الكتبة الوضاعين . وهو أمر اعترفت به المجامع المقدسة التى انعقدت على فترات تاريخية مختلفة .

لقد كان حفظ القرآن على هذا النحو المذهل الذى لم يحدث لأى كتاب سبقه مصداقا لقوله تعالى :" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ".

الفصل الثامن

المكــي والمــدنـــي

من المعروف أن الأمم تولـى اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكرى ومقومات حضارتها ، وقد أحرزت الأمـة الإسلامية قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التى شرفت بها الإنسانية جمعاء .

فنجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطا يحدد المكان والزمان ، وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع يستند إليه الباحث فى معرفة أسلوب الدعوة ، وألوان الخطاب ، والتدرج فى الأحكام والتكاليف ، ومما روى فى ذلك قول ابن مسعود رضى الله عنه :" والله الذى لا إله غيره مانزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولانزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب اللـــه تبلغه الإبل لركبت اليه [1] .

والذى يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصـائص ليست للآيات المدنية فى وقعها ومعانيها ، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى فى التشريع والأحكام .

فحيث كان القوم فى جاهلية تعمى وتصم ، يعبدون الأوثان ، ويشركون بالله مالم يُنزل به سلطانا ، وينكرون الوحى ، ويكذبون بيـــوم

---

(١) أخرجه البخارى .

الدين ، وينكرون البعث والنشور ، وكانوا يقولون :"أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١) " ، وهم ألداء فى الخصومة .

أهل مماراة ولجاجة فى القول عن فصاحة وبيان فنزل فيهم الوحى المكى قوارع زاجرة وحججا قاطعة ليحطم وثنيتهم ويدعوهم إلى الوحدانية ويقيم دلائل النبوة ويضرب لهم الأمثال للحياة الأخرى ومافيها من جنة ونار ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويسوق إليهم قصص المكذبين الغابرين عبرة وذكرى ويقيم لهم الأدلة الكونية والبراهين العقلية .

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وامتحنت فى عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ماعند الله على متع الحياة ، حين تكونت هذه الجماعة – نزلت الآيات المدنية طويلة المقاطع تتناول أحكام الإسلام وحدوده وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله .

وتفصل أصول التشريع وتضع قواعد المجتمع ، وتحدد روابط الأسرة ، وصلات الأفراد ، وعلاقات الدول والأمم ، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم ، وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم . " وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢) ".

ولما كان نزول القرآن منجما ، سببا فى أن بعضه نزل بمكة ، وبعضه نزل بالمدينة ، وبعضه نزل فى غير ذلك من الأماكن .

قال ابن النقيب فى مقدمة تفسيره[٣]:المنزل من القرآن على أربعة أقسام مكى ومدنى ومابعضه مكى وبعضه مدنى، وماليس بمكى ولا مدنى.

---

(١) سورة الصافات – الآية ١٦. (٢) سورة يوسف – الآية ٢١. (٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ١/٩ .

وقد اختلف العلماء فى تعريف المكى والمدنى من القرآن ، ولهم فى ذلك ثلاثة اصطلاحات مشهورة :

الاصطلاح الأول (التقسيم الزمانى) :-

وهو أن المكى من القرآن مانزل قبل الهجرة ، والمدنى منه مانزل بعد الهجرة ، وهذا التقسيم هو الصحيح فى تعريف المكى والمدنى .، وعليه يكون التقسيم شاملا لجميع أجزاء القرآن ، وهذا شرط لابد منه لصحة التقسيم ، ثم إن هذا القول فى تعريف المكى والمدنى هو الذى يوافق ماكان يقصده الصحابة - رضوان الله عليهم بهذين اللفظين .

والحد الفاصل فى هذا التقسيم ، هو هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فما نزل قبل الهجرة يكون مكيا ، ومانزل بعد الهجرة يكون مدنيا سواء بمكة أم بالمدينة عام الفتح أم عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار .

الاصطلاح الثانى (التقسيم المكانى) :-

وهذا التعريف يراعى فيه مكان نزول الآيات أو السور ، فما نزل بمكة - سواء قبل الهجرة أم بعدها - يعد مكيا ، وما نزل بالمدينة يعد مدنيا . قال السيوطى [1] ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية، وفى المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع. وهذا التعريف لوحظ فيه المكان ، وعليه فسورة الفتح مكية لأنها نزلت بالحديبية.

---

(١) الإتقان جـ١/٩ .

وقد اعترض على هذا التعريف أنه غير حاصر لأنه يثبت الواسطة ، وهذا غير مغتفر فى التقسيم، لأن شرطه أن يكون ضابطا حاصرا ، وبناء عليه فهناك آيات من القرآن أو سور لايمكن وصفها بأنها مكية ولامدنية . ومثاله : مانزل من القرآن فى أسفار النبى صلى الله عليه وسلم .

الاصطلاح الثالث :-

أن المكى من القرآن ماوقع خطابا لأهل مكة ، والمدنى منه ماوقع خطابا لأهل المدينة . وعلى هذا يحمل قول علقمة : كل شئ نزل فيه يأيها الناس فهو بمكة ، وكل شئ نزل فيه يأيها الذين آمنوا، فهو بالمدينة ، وقد أسند هذا القول إلى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، وقد نص عليه جماعة من الأئمة ، منهم أحمد بن حنبل وغيره ، وبه قال كثير من المفسرين ، ونقله عن ابن عباس رضى الله عنه.

وهذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر ، فإن سورة البقرة مدنية وفيها : " يَاَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (١) ". وفيها :" يَاَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً (٢) ". وسورة النساء مدنية وفيها :" يَاَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ(٣) ". وفيها :" إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ (٤) ". وسورة الحج مكية وفيها :" يَاَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا (٥) " ، فإن أريد بذلك الغالب فهو صحيح .

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢١ .
(٢) سورة البقرة – الآية ١٦٨ .
(٣) سورة النساء – الآية ١ .
(٤) سورة النساء –الآية ١٣٣ .
(٥) سورة الحج – الآية ٧٧.

وهذا القول كسابقه ، يضعفه : **أولا** : إنه لايجوز أخذه على إطلاقه كما تقدم .

وثانيا : لأنه لايشمل سور القرآن كلها ، فتبقى كثير من سور القرآن لاتدخل تحت هذا التقسيم ، لأن كثيرا منها يخلو من النداء " يأيها الناس " و " يأيها الذين آمنوا ".

معرفة المكـي والمـدني

اعتمد العلماء فى معرفة المكى والمدنى على منهجين أساسـيين :

﴿ المنهج السماعى النقلى والمنهج القياسى الاجتهادى ﴾[1] .

والسماعى يعتمد على النقل ، والقياسى يعتمد على العقل ، والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى الدقيق .

والمنهج السماعى النقلى يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحى وشاهدوا نزوله أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه .

و يذكر السيوطى :" إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قول لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب فى بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول صلى الله عليه وسلم .[2]

---

(١) انظر البرهان للزركشى جـ١/١٨٩.

(٢) الاتقان للسيوطى جـ١/٩ .

وذلك كله يتضح لنا مما درسه الفقهاء رضوان الله تعالى عليهم ، حينما نشأت المذاهب الفقهية ومدارس أهل الرأى والاجتهاد على حد سواء مما أنار الطريق أمام السالكين على نهج الحق.

والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكى وخصائص المدنى ، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدنى أو تتضمن شيئا من حوادثه قالو إنها مدنية ، وإذا ورد فى السورةالمدنية آية تحمل طابع التنزيل المكى أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فى السورخصائص المكى قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فيها خصائص المدنى قالوا إنها مدنية . وهذا قياس اجتهادى ، ولذا قالوا مثلا : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية ، وهكذا ، قال الجعبرى :" لمعرفة المكى والمدنى طريقان : سماعى وقياسى [1] ". ولاشك أن السماعى يعتمد على النقل ، والقياسى يعتمد على العقل والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى .

فوائد العلم بالمكى والمدنى

وللعلم بالمكى والمدنى فوائد .. أهمها :-

أولا - تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها فى أسلوب الدعوة إلى الله :-

فإن لكل مقام مقالا ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معانى البلاغة ، وخصائص أسلوب المكى فى القرآن والمدنى منه تعطى الدارس منهجا لطرائق الخطاب فى الدعوة إلى الله بمايلائم نفسية المخاطب ،

---

(١) انظر الاتقان جـ١/١٧ .

(٢) الاتقان للسيوطى جـ١/٢٨.

ويمتلك عليه لبه ومشاعره ، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطابة فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس و معتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا واضحا جليا بأساليب القرآن المختلفة فى مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

ثانيا – فيما يذكره السيوطى من فوائد :-

" معرفة ذلك الاستفادة به فى التفسير فالعلم بالمتأخر يكون ناسخا أو مخصصا [1] "، فإذا توقفنا أى الآيتين ناسخ للآخر فهنا نجزم بأن المدنى ناسخ للمكى لسبق عهده عنه .

ثالثا – الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية :-

فإن تتابع الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساير تاريخ الدعوة بأحداثها فى العهد المكى والعهد المدنى منذ بدأ الوحى حتى أخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذى لايدع مجالا للشك فيما روى عن أهل السير موافقا له ، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات .

رابعا – وفيما ينوه إليه الزرقانى :-

" ومن فوائده أيضا معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام مما يوحى بسمو السياسة الإسلامية فى تربية الشعوب والأفراد [2] – والأخذ بأيديهم إلى منازل فضله ، وفى هذا ذكرى وعظة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

---

(١) الاتقان للسيوطى جـ١/٢٨. (٢) مناهل العرفان ج١/١٩٥.

خامسا – تأكيد الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالما من التغيير والتحريف :–

ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام ، حتى ليعرفون ويتناقلون منازل منه قبل الهجرة ، ومنازل بعدها ، ومنازل بالحضر ومنازل بالسفر ، وما نزل بالنهار ومانزل بالليل ، ومانزل بالشتاء ومانزل بالصيف .. إلى غير ذلك . وهذه العناية من قبل المسلمين نحو القرآن الكريم ، تحمل أعداء الإسلام إلى التفكير المرة بعد المرة ، قبل أن يوجهوا أى طعن فى القرآن ، أو فى الإسلام ، أو قبل توجيه أى ادعاء كاذب ليس عليه دليل .

العلامات والضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى :–

علم مماتقدم أنه لاطريق لمعرفة المكى والمدنى من القرآن إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين – رضى الله عنهم – بيد أنه يمكن الوقوف على ضوابط معينة ، وضعها العلماء فى هذا الشأن لمعرفة المكى والمدنى . فقد استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية ، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكى والمدنى ، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التى يتناولها .. وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات .

ضوابط المكى ومميزاته الموضوعية :–

١– كل سورة فيها سجدة تلاوة فهى مكية علما بأن سورة الحج المدنية ، نرى السجدة فيها عند الشافعية فقط كماهو موضح فى المصحف العثمانى الذى بين أيدينا .

٢- كل سورة فيها لفظ (كلا) فهى مكية ، وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن لأنه نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة فتكررت فيه على وجه التعنيف والتهديد لهم والإنكار عليهم .

٣- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى سورة البقرة .

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية ، وقد علمت أن سورة البقرة وآل عمران مدنيتان ، فلاينطبق عليهما هذا الضابط .

٥- كل سورة فى أولها حروف التهجى كـ (ألم) و (الر) و (حم) ونحو ذلك فهى مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فهما مدنيتان بالإجماع، وفى سورة الرعد خلاف فى هذه المسألة .

مع ملاحظة أننا أسقطنا من الاعتبار ضابط التفرقة القائل بنداء " يا أيها الناس " أو " يا أيها الذين آمنوا " من التمييز بين المكى والمدنى لأن فيه استثناءات كثيرة . ففى البقرة والنساء والحج وهى سور مدنية فيها نداء يا أيها الناس الذى اعتبره البعض من مزايا المكى .

هذا من ناحية الضوابط .. أما من ناحية **المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب** فيمكن إجمالها فيمايأتى :-

[١] الدعوة إلى التوحيدوعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وهولها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية ، والآيات الكونية .

[٢] الاهتمام بذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة ، وماتحويه من عظات وعبر ، والتركيز على ماتحمله الأنبيـــاء من الأذى فى دعوة

أقوامهم ، ومواقف هؤلاء الأقوام من دعوات الرسل ، وما حل بالأمم المكذبة من عذاب ، وقد كان لذلك أبلغ الأثر فى تبيين العقيدة الإسلامية ، وتفصيل الأصول التى تقوم عليها ، من التوحيد والبعث وإثبات الرسالة ، وهو أيضا من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله تعالى .

[٣] الدعوة إلى أصول الفضائل ومكارم الأخلاق، من الايمان والطاعة والمحبة والرحمة والأخلاق واحترام الغير وبر الوالدين واكرام الجار ... إلى غير ذلك، مع إبطال ماكانوا عليه من عادات سيئة وفواحش منكرة ، كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال اليتيم ، وغير ذلك من العادات القبيحة .

[٤] و مماتميز به أسلوب هذا القسم ، أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز فى خطابه ، حتى جاءت غالب السور المكية قصيرة الآيات ، قصيرة السور . لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن ، وصناعتهم الكلام ، وهمتهم البيان ، فيناسبهم الإيجاز والإقلال ، دون الإسهاب والإطناب ، هذا من جانب ، وجانب آخر هو أن أكثر أهل مكة كانوا من المعاندين المكذبين ، وكانوا لايجدون وسيلة لايذاء النبى – صلى الله عليه وسلم – ومن آمن به إلا اتخذوها ، وامعنوا فى إلحاق الأذى بهم عن طريقها ، فكان معظم القسم المكى فى الزجر والوعظ والإنذاروالتخويف ، وذلك لايستدعى طولا ، وإنما يستدعى أن تساق لهم النذر القارعة والمواعظ النافعة ، والعبر الجامعة ، فى قصر

وإيجاز ، وأن يكرر عليهم ذلك كلما دعت الحاجة ، فهذا هو الملائم لحالهم ، ومعروف أن البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ضوابط المدنى ومميزاته الموضوعية :-

١- كل سورة ذكر فيها الحدود والفرائض فهى مدنية ، والمراد بالفريضة هنا فريضة الميراث ، لامطلق فريضة ، وإلا ففى المكى فرائض كثيرة كالصلاة والعدل والتواصى بالحق والتواصى بالصبر والوفاء بالعهد وغيرها ، وقد اشتهرت أحكام الميراث باسم الفرائض ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : أفرضكم زيد [١] .

٢- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكامه فهى مدنية ، والمعلوم من سيرة المعصوم صلى الله عليه وسلم أنه لم يؤمر بالقتال إلا بعد هجرته إلى المدينة ، وذلك لضعف المسلمين وقلة عددهم ، بمكة ، وكان أول مانزل فى الإذن بالقتال قوله تعالى :" أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ..... الآيات " [٢]

٣- كل سورة ذكر فيها المنافقون فهى مدنية ، ماعدا سورة العنكبوت ، والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ، ماعدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها ، فإنها مدنية وهى التى ذكر فيها المنافقون ، والحكمة من ذلك أن النفاق لم يظهر إلا بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة ، أما فى مكة فلم يكن هناك نفاق لقلة المسلمين وضعفهم .

٤- كذلك فإن الآيات التى ناقشت أهل الكتاب وأبطلت دعاواهم سواء أكانوا هودا أو نصارى فإنها مدنية .

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح . (٢) سورة الحج - الآية ٣٩ ومابعدها .

٥- والآيات المدنية كذلك تناولت أحكام الصلاة والصيام والزكاة والربا والزنا والسرقة وما إليها [1] . هذا .. مع وجود بعض إشارات للصلاة وللصدقات فى سور وآيات مكية .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :-

[١] بيان الأحكام بالتفصيل ، والتحدث عن دقائق التشريع ، وأنواع القوانين المدنية والجنائية والاجتماعية والدولية ، وسائر ضروب العبادات والمعاملات ، ولم يكن من الحكمة إيراد هذا البيان فى العهد المكى لاستحالة تنفيذه ، إذ لم يكن للمسلمين سلطان حينئذ، أما فى المدينة فقد كثر عدد المسلمين كثرة تحتاج إلى القوانين المختلفة التى تنظم حياتها ، وتصلح شئونها ، وتقيم العلاقات بينها وبين غيرها ، على أسس من الحكمة والعدالة والمصلحة ، وكان الإسلام قد أصبح وله من القوة ماهو كفيل بتنفيذ ماشرع من الأحكام ، وتطبيقه على كل مايشرع لهم ، فلذلك كله كان الوقت صالحا لهذه التكاليف ، ففاضت السور المدنية بالتشريعات الكثيرة المتنوعة ، واقرأ فى ذلك إن شئت ، سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والنور والأحزاب وغيرها .

[٢] الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين ، وبيان عاقبتهم فى الدنيـــــــا

---

(١) انظر مناهل العرفان جـ١٩٨/١ .

والآخرة. واقرأ إن شئت قوله تعالى في وصفهم "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ... الى آخر الآيات التى وردت بشأنهم فى سورة البقرة (١) "، وقوله عز وجل فى بيان حقيقةموقف المنافقين من الإسلام : " الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية (٢) ". وقوله تعالى فى سورة التوبة التى فضحتهم وهتكت أستارهم : " يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ.وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ.لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣) ". وقوله تعالى : "وَمِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَمْ يُعْطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(٤) ". وقوله تعالى : " وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٥) ".

---

(١) سورة البقرة – الآيات ٨ :٢٠ .

(٢) سورة النساء – الآية ١٤١ .

(٣) سورة التوبة – الآيات ٦٣، ٦٤ .

(٤) سورة التوبة – الآية ٥٨ .

(٥) سورة التوبة – الآية ٦١.

[٣] مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم . واقرأ إن شئت قوله عز وجل : " وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ .. الآية (١) "، وقوله تعالى : " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ... الآية (٢)، و قوله تعالى فى شأن اليهود : " وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣) " ، وقوله تعالى فى إبطال دعواهم أنهم الناجون عند الله وحدهم : " قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) ". وقوله تعالى فى مناقشة النصارى : " لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً... الآية (٥) ". وقوله تعالى : " مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ... الآية (٦) ". وغير ذلك مما اشتملت عليه السور المدنية .

(١) سورة آل عمران – الآية ٢٠ .
(٢) سورة المائدة – الآية ١٩ .
(٣) سورة البقرة – الآية ٨٠ .
(٤) سورة البقرة – الآية ٩٤ .
(٥) سورة المائدة – الآية ١٧ .
(٦) سورة المائدة – الآية ٧٥ .

[٤] طول المقاطع والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها ، وهذا يناسب العهد المدنى ، لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهون أهل مكة فى الذكاء والألمعية وطول الباع فى باحات الفصاحة والبيان ، فيناسبهم الشرح والإيضاح وذلك يستتبع كثيرا من البسط والإسهاب ، لأن دستور البلاغة لايقوم إلا على دعاية مقتضيات الأحوال ، وقد كان الخطاب فى كثير من السور المدنية موجها لأهل الكتاب . ومتعلقا بعقائدهم وكتبهم ، فناسب أن يأتى بهذه الصورة من البسط والشرح والتفصيل .

السور المكية والمدنية والمختلف فيها :-

نقل السيوطى فى الإتقان أقوالا كثيرة فى تعيين السور المكية والمدنية من أوفقها ماذكره أبو الحسن الحصار فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) إذ يقول : المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة ، وماعدا ذلك مكى بإتفاق .

أما السور العشرون المدنية بالإتفاق فهى : سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والجمعة والمنافقون والطلاق والتحريم والنصر . وأما السور الاثنتا عشرة المختلف فيها فهى : سورة الفاتحة والرعد والرحمن الصف والتغابن والتطفيف والقدر ولم يكن وإذا زلزلت والإخلاص والمعوذتين . وأما السور المكية باتفاق فهى ماعدا ذلك ، وهى اثنتان وثمانون سورة.

الفصل التاسع

المحكـــم والمتشـــابه

أنزل الله عز وجـل القـرآن الكريـم علـى عبـده ليكـون للعـالمين نذيـرا وهاديا وبشيرا ، فرسم للخليقة العقيدة القويمة والمبادئ السليمة بأيات بينات واضحة المعالم لاُغموض فيها محكمات هن أساس الدين لتسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم ، وتلك الآيات هى أم الكتـــاب التـى لا يقـع الاختلاف فى فهمها سلامة لوحدة الأمة الاسلامية وصيانـة لكيانهـا " كتـاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (١) ".

وقد تأتى هذه الأصول الدينية فى أكثر من موضع بالقرآن مع اختـلاف اللفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحدا فيشبه بعضهـا الآخـر ويوافقه معنى دون تناقض ، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الديـن فـإن فى آياتها مـن العمـوم والاشـتباه والخفـاء فـى المعنـى بمـا يحتـاج إلـى علـم لإدراك بعضها وبما يفسح المجال أمام المجتهديـن فـى العلـم حتـى يردوهـا إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول ، والجزئيات على الكليات .

أولا : التعريف بكل من المحكم والمتشابه :-

المحكم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت : بمعنى منعت ، والحكم : هو الفصل بين الشيئين ، فالحـاكم يمنـع الظـالم ويفصـل بيـن الخصميـن ، ويميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ويقال : حكمت الســـــفيه

---

(١) معجم مفردات الراغب – ص ١٢٦ .

وأحكمته : إذا أخذت على يديه، وحكمت الدابة وأحكمتها : إذا جعلت لها حكمة، وهى ما أحاط بالحنك من اللجام ، ومنه الحكمة : لأنها تمنع صاحبها عما لايليق .

قال الراغب : الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل (١) " ، على أساس من العلم وميزان العقل . وفى القاموس : " أحكمت الشئ أتقنته ومنعته عن الفساد والخلل (٢). والحكيم هو المتقن للأمور (٣)، يعنى يأتى بها على الوجه الأكمل الأصح .

فإحكام الكلام : إتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره ، والرشد من الغى فى أوامره ، والمحكم منه : ماكان كذلك .

وقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم على هذا المعنى فقال : " آلر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (٤) ". وقال : " آلر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٥) ".فالقرآن كله محكم : أى أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب . وهذا هو الإحكام العام .

والمتشابه لغة : مأخوذ من التشابه : وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر ، والشبهة : هى ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لمابينهما من التشابه عينا كان أو معنى .

---

(١) معجم مفردات الراغب – ص ١٢٦ .
(٢) القاموس ج٢٢٦/١ .
(٣) مختار الصحاح – ص ١٤٨ .
(٤) سورة هود – الآية ١ .
(٥) سورة يونس – الآية ١ .

ويقول الزرقانى : " وتستعمل مادة التشابه فيما يدل على المشاركة فى المماثلة والمشاكلة المؤدية إلى الإلتباس يعنى الغموض ، يقال تشابها واشتبها أى أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا، والشبهة بالضم الالتباس[١]، والإبهام مما يستلزم إعمال الفكر لمعرفة المقصود وتوضيحه وتبينه وتحديده .

وفى البرهان : " المتشابه أصله أن يشتبه اللفظ فى الظاهر مع اختلاف المعانى كقوله سبحانه فى وصف ثمر الجنة (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً)[٢] أى متفق المناظر مختلف الطعوم ، ويقال للغامض متشابه : مثل الحروف المقطعة أوائل السور ، والمتشابه مثل المشكل لأنه أشكل أى دخل فى شكل غيره وشاكله أى صار مثله فى الشكل مع اختلاف يسير .وقيل المشتبه الذى يشبه بعضه بعضا "[٣] يعنى صار شكله .

قال الراغب : " المتشابه فى القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره [٤] " يعنى ما التبس الأمر فى فهم معناه واختلف من شأن توضيحه وتميزه وترجيحه . والاشتباه بغيره إما من حيث اللفظ الذى وضع له ودلالته أى معناه ، كأن يكون مشتركه لفظيا " كاليمين فى قوله : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴾ [٥]: فهل المقصود باليمين اليد اليمنى أو القسم الذى كان قد أقسمه إبراهيم بقوله : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [٦] أى لأكسرن أصنامكم بعد رحيلكم .

---

(١) مناهل العرفان ج٢/٢٧ .
(٢) سورة البقرة – الآية ٢٥ .
(٣) أنظر البرهان ج٢ / ٦٩ .
(٤) معجم مفردات الراغب – ص ١٢٦ .
(٥) سورة الصافات – الآية ٩٣ .
(٦) سورة الأنبياء – الآية ٥٧ .

والاشتباه من حيث المعنى كأوصاف الله تعالى كقوله : " بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ"(١) بل هو جواد كريم سابغ الأنعام يرزق ويعطى كما يشاء وتضييق الرزق ليس لقصور فى فيضه بل لأن إنفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم .و أوصاف القيامة ومافيها من غيب ، كل هذه لايعلم حقائقها إلا الله تعالى .

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لاينافى الآخر ، فالقرآن كله محكم بمعنى الاتفاق ، وهو متماثل يصدق بعضه بعضا ، فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه ، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر ، وإنما يأمر به أو بنظيره ، وكذلك الشأن فى نواهيه وأخباره ، فلا تضاد فيه ولا اختلاف : " وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٢) ".

الإحكام والتشابه فى القرآن الكريم :-

وهناك إحكام خاص وتشابه خاص ذكرهما الله فى قوله : " هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَايَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا (٣) " وفى معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها :

---

(١) سورة المائدة – الآية ٦٤ .

(٢) سورة النساء – الآية ٨٢ .

(٣) سورة آل عمران – الآية ٧ .

(أ) المحكم : ماعرف المراد منه ، والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه .

(ب) المحكم : مالايحتمل إلا وجها واحدا ، والمتشابه : ما احتمل أوجها.

(جـ) المحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه : مالايستقل بنفسه واحتاج إلى بيان يرده إلى غيره .

ويمثلون للمحكم فى القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده . وللمتشابه : بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته التى فى قوله : " الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [1] " ، وقوله : " كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [2] " ، وقوله : " يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [3] " ، وقوله عز وجل : " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ [4] " ، وقوله سبحانه : " وَجَاءَ رَبُّكَ [5] " ، وقوله عز وجل : " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [6] "، وقوله : فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ [7] " ، إلى غير ذلك من الآيات . كما يمثلون له بأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم ، وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة .

---

(١) سورة طه - الآية ٥ .
(٢) سورة القصص - الآية ٨٨ .
(٣) سورة الفتح - الآية ١٠ .
(٤) سورة البينة - الآية ٨ .
(٥) سورة الفجر - الآية ٢٢ .
(٦) سورة الأنعام - الآية ١٨ .
(٧) سورة آل عمران - الآية ٣١ .

ومن كل ماتقدم يتضح لنا أن كلمة (المتشابه) فى الأصطلاح القرآنى تدل على مايعجز المفسر عن معرفة تأويله لكثرة الاحتمالات الواردة عليه ، أو ما كان غامضا لايهتدى العقل إلى معرفة تأويله ، وكان (المحكم) فى الاصطلاح هو الواضح الجلى الذى يهتدى العقل إلى معرفته ، أو ما بعدت الاحتمالات الكثيرة عن معناه .

ثانيا – معنى أن القرآن كله محكم وأن كله متشابه وأن بعضه محكم وآخر متشابه :–

ولقد جاء فى القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم إذ قال سبحانه : " كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (١) " أتت على وجه لا ينظر إليه خلل أو فساد .

وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه بقوله تعالى : " اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً (٢) " قرآنا متشابها يشبه بعضه بعضا فى الفصاحة والبلاغة والتناسب بدون تعارض ولا تناقض .

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه فقال جل ذكره :" هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ " (٣) أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم القرآن فيه آيات بينات واضحات الدلالة لا غموض فيها كآيات الحلال والحرام هن أصل الكتاب وأساسه وفيه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس.

---

(١) سورة هود – الآية ١.

(٢) سورة الزمر – الآية ٢٣.

(٣) سورة آل عمران – الآية ٧.

يقول الزرقانى : " ولا تعارض بين هـذه الإطلاقـات الثلاثـة لأن معنـى إحكامـه كلـه أنـه منظـم رصيـن متقن متين لا يتطـرق إليـه خلـل لفظـى ولامعنوى كأنه بنيان مشـيد محكم لا ينتابـه تصـدع ولا وهن ولاخلل ولا فساد " [١].

فالكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه ، فإذا أمر القـرآن بأمر لم يأمر بنقيضه فـى موضـع آخر وإنمـا يـأمر بـه أو بنظـيره وكذلـك الشأن فى نواهيه وأخباره فلا تضاد فيه ولا اختـلاف "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " [٢] تناقضا كبيرا .

ومعنى كونه كله متشابها أنـه يشـبه بعضـه بعضـا فـى إحكامـه وإتقانـه وحسنه وبلوغه حد الإعجـاز والروعـة فـى ألفاظـه ومعانيـه ومبانيـه فليس هناك مفضول وأفضل فهو متماثل فى نظمه ورصفه وجودته ونسجه .

وتشابه الكلام هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا .

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه :-

فمعناه أن من القرآن ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى منـه وهذا هو المحكم ومنه ما خفيت دلالته على هذا المراد الكريم وهذا هو المتشـابه الذى لا يعلم تمام علمه إلا الله تبارك وتعالى .

وقد اقتضت حكمة المولى ذلك التقسيم ليمحص الله المؤمنين الراسـخين فى العلم الذين يؤمنون به ويعلمون ما تشابه منـه بمـا نـور اللـه بـه قلوبهم وأبصـارهم ، وليعلم الذين فى قلوبهم مرض والذيـن يتبعـون مـا تشـابه منـه ابتغاء الفتنة فضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء السبيل .

(١) أنظر مناهل العرفان ج٢/٢٧١.

(٢) سورة النساء – الآية ٨٢ .

وفيما رواه البخارى عن عائشة قالت : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، إلى قوله سبحانه : وما يذكر إلا أولوا الألباب قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم " (١) ولاتتبع خطاهم .

كما أن الله سبحانه يريد أن يختبر إيمان المخلصين بأمثال هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ليمحصهم .

منشأ التشابه وأقسامه :-

اتضح لنا مما سبق أن منشأ التشابه إجمالا هو خفاء مراد الشارع من كلامه ، وهذا الخفاء إما أن يرجع إلى اللفظ وحده ، أو إلى المعنى وحده ، أو إليهما معا :

أولا - القسم الأول : الخفاء فى اللفظ وحده :-

[أ] التشابه فى المفرد بسبب اشتراكه بين معان عدة . كلفظ اليمين فى قوله سبحانه " فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ " (٢) أى فأقبل إبراهيم عليه السلام على أصنام قومه ضاربا لها بيده اليمنى أوضاربا لها ضربا شديدا فاليمين هى أقوى الجارحتين ، أو ضاربا لها بسبب اليمين التى حلفها .

---

(١) صحيح البخارى ج٦ /٤٢ - أبواب التفسير - تفسير سورة آل عمران .

(٢) سورة الصافات - الآية ٩٣.

" وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ " (١) بعد أن تذهبوا وكله جائز لأن اللفظ مشترك بينها .

[ب] والخفاء فى اللفظ المفرد من جهة الغرابة وندرة الاستعمال كلفظ الأبّ بتشديد الباء فى قوله سبحانه : " وَفَاكِهَةً وَأَبًّا " (٢) وهو طعام البهائم بدليل قوله بعدها : " متاعا لكم ولأنعامكم" ولحيواناتكم .

[ج] **ومثال التشابه فى الألفاظ المركبة بسبب اختصارها** : قوله تعالى :" وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ" (٣، ٤) أى إذا كانت تحت ولاية أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر المثل فليتركها إلى ما سواها فالنساء كثير وانكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنين أو ثلاث أو أربع .

فإن خفاء المراد فى نظم الآية جاء من ناحية الإيجاز ، والأصل وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء ومعناه أنكم إذا تحرجتم من زواج اليتامى مخافة أن تظلموهن فأمامكم غيرهن فتزوجوا منهن ما طاب لكم .

---

(١) سورة الأنبياء – الآية ٥٧ .

(٢) سورة عبس – الآية ٣١ .

(٣) سورة النساء – الآية ٣ .

(٤) أنظر مناهل العرفان جـ٢ / ٢٧٨ .

وقيل إن القوم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى فأنزل الله الآية ومعناه : أن خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنى أيضا وتبدلوا به الزواج الذى وسع الله عليكم فيه فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .

[ج] **ومثال التشابه يقع فى المركب لترتيبه ونظمه والتقديم والتأخير فيه :**

قوله سبحانه :" ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا. قَيِّمًا " (١).

فإن الخفاء هنا جاء من جهة الترتيب بين لفظ (قيّما) وما قبله ولو قيل أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا لكان أظهر أيضا " (٢) – ولكن النسج الحكيم للآيات أجمل فى رصفه وجرسه والله أعلم .

[د] **ومثال التشابه فى المركب بسبب بسطه والإطناب فيه :**

قوله جلت حكمته :" لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ " (٣)، فإن حرف الكاف لو حذف وقيل " ليس مثله شئ " كان أظهر للسامع من هذا التركيب الذى ينحل إلى" ليس مثل مثله شئ" (٤) يعنى ليس مثل ذاته ذات .

ويقول القرطبي : " المعنى ليس كذاته ذات " (٥)، وذات الله لاشبيه لها فلا ند له يعنى لا نظير له ، ولا ضد له كذلك فليس هناك إله خير وإله شر.

---

(١) سورة الكهف – الآية ١ ، ٢ . (٢) مناهل العرفان جـ٢ / ٢٧٩ . (٣) سورة الشورى – الآية ١١ .
(٤) المرجع السابق ، نفس الصحيفة . (٥) تفسير القرطبى جـ١٦ /٨ .

فالتعبير القرآنى فيه من الدقة والحجة واللطافة والانسجام ما فيه مما يعلو على كثير من الأفهام .

ثانيا – القسم الثانى :

وهو ما كان التشابه فيه راجعا إلى خفاء المعنى وحده :-

ومثاله كل ما جاء فى القرآن الكريم وصفا لله تعالى أو لأهوال القيامة أو لنعيم الجنة وعذاب النار فان العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق ذات وصفات الخالق وقيوميته على ماخلق ، فالكائنات جميعا تستمد حياتها ووجودها منه سبحانه .

ومن أمثال التشابه والغموض، اختلافهم فى قوله سبحانه :" الرحمن على العرش استوى " ﴿آية ٥ – سورة طـه ﴾ فالاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ، والايمان به واجب ، فهو سبحانه صار له الملك كله بعد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام كذلك الاحاطة بأهوال القيامة أو نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار كلها لايعلم مداها وكنهها إلا الله سبحانه .

ثالثا – القسم الثالث : وهو ماكان التشابه فيه راجعا إلى اللفظ والمعنى معا :-

مثل قوله سبحانه :" وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا۟ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (١).

فان من لايعرف عادة العرب فى الجاهلية ، لايستطيع أن يفهم النص الكريم على وجهه (٢) وأن يتصوره تماما .

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٨٩ .

(٢) مناهل العرفان جـ٢/٢٧٩ .

" فقد ورد أن أناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولادارا ولافسطاطا من باب "[١].

فإن كان من أهل المدر (يعنى الحضر) نقب نقبا فى ظهر بيته يدخل ويخرج منه وإن كان من أهل الوبر (يعنى الخيام) خرج من خلف الخباء .. فنزل قول الله تعالى :" الآية . فالخفاء فى الآية يرجع إلى اللفظ بسبب اختصاره ، ولو بسط لقيل : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إذا كنتم محرمين بحج أو عمرة ، ويرجع الخفاء إلى المعنى أيضا لأن النص على فرض بسطه فلابد معه من معرفة عادة العرب فى الجاهلية وإلا لتعذر فهمه .

هذه وحسب على سبيل الأمثلة من نصوص فيها التشابه والإبهام والتى تحتاج إلى الدراسة لفهم معناها ومغزاها وبلاغتها .

ويدخل فى زمرة هذا القسم : الحروف المقطعة أوائل السور والتى استهل بها بعضها لأن التشابه والخفاء فى المراد منها جاء من ناحية تركيبها اللفظى وماتشير إليه من معان ، حيث اختلف فيها العلماء أهى للدلالة على أن هذا القرآن مركب من مثل هذه الحروف وأنتم عاجزون عن الإتيان بمثل تركيبها أو أنها أسماء لله وصفات له وأن كل حرف منها له معنى مثل (المص)[٢](أنا الله أعلم وأفصل) أو أن الله أعلم بمراده تمام العلم ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) أسباب النزول وبهامشه الناسخ والمنسوخ : للواحدى النيسابورى [ص ٣٦] -.عالم الكتب بيروت.

(٢) سورة الأعراف - الآية ١ .

أنواع المتشابهات :

ومما تقدم نستطيع أن نقسم المتشابهات ثلاثة أنواع :-

الأول : مالايستطيع الناس أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته ، والعلم بوقت القيامة وغيره من الغيوب التى استأثر الله تعالى بها : " وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ "(١) .

الثانى : مايستطيع الإنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من الإطناب والبسط والإجمال والترتيب فى الأسلوب .

الثالث : مايعلمه خواص العلماء دون عامتهم من المعانى العالية التى تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبر كتاب الله عز وجل . مثل مافتح الله به على ابن عباس بدعوة الرسول – عليه السلام – إذ دعا له بقوله :" اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل (٢) " فقد فتح الله عليه ببركتها وعلمه من لدنه علما نافعا ، وفقها فى الدين ، وتفسيرا لكتاب الله الكريم .

الحكم من وراء المتشابهات :

أولا : بالنسبة للنوع الأول الذى استأثر الله تعالى بتمام علمه :

١ – إقامة الدليل على عجز الانسان وجهالته مهما غزر علمه،

---

(١) سورة الأنعام – الآية ٥٩ .
(٢) مسند أحمد بن حنبل جـ١/٢٦٦ .

فسبحانه قد أحاط بكل شئ علما : " وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ " (١)، أى لانعلم شيئا من معلوماته إلا بما علمنا إياه عن طريق الرسل . " سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (٢).

٢ - الابتلاء والاختبار : أيؤمن الانسان بالغيب أم يكفر ، والعقل مبتلى باعتقاد أحقية المتشابه فالذين اهتدوا يقولون آمنا به كل من عند ربنا والذين فى قلوبهم زيغ يكفرون ويضلون عن سواء السبيل .

٣ - رحمة الله بالانسان الضعيف فأخفى ميعاد قيام الساعة حتى لايفتك بهم الخوف كما أخفى عن كل إنسان أجله حتى يعمل فى بحبوحة من عمره ، فسبحانه الله الحكيم الرحيم .

<u>ثانيا : بالنسبة للنوع الثانى الذى يستطيع الانسان أن يفهمه بالبحث والدرس :</u>

(١) تحقيق اعجاز القرآن : فكل خفاء يؤدى إلى التشابه له مدخل عظيم فى البلاغة ويستتبع ضرورة دراسة علوم كثيرة أخرى كعلم الكلام وأصول الفقه ..... وغيرهما .

(٢) متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب - يقول تعالى :" أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ " (٣ ، ٤) .

---

(١) سورة البقرة - الآية ٢٥٥ .
(٢) سورة البقرة - الآية ٣٢ .
(٣) سورة آل عمران - الآية ١٤٢ .
(٤) أنظر مناهل العرفان للزرقانى جـ٢ /٢٨٢ ومابعدها .

الفصل العاشر

القسم فى القرآن الكريم

يختلف الاستعداد النفسى عند الفرد فى تقبله للحق وانقياده لنوره ، فالنفس الصافية تستجيب للهدى ، وتفتح قلبها لإشعاعه ، ويكفيها فى الانصياع إليه الاشارة أو اللمحة ، وأما غيرها فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر ، وصيغ التأكيد والوعيد والتهديد حتى يتزعزع نكيرها .

والقسم فى الخطاب من أساليب التأكيد التى يتخللها البرهان المفحم والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد .

وقد استفتح الله عز وجل خمس عشر سورة من القرآن الكريم بالقسم[١]، والملاحظ أنها جميعا سور مكية لتقرع أهل مكة بالدليل والحجة.

مفهوم القسم :

يقول الراغب : " وأقسم يعنى حلف " . فالقسم بفتح السين اليمين ، وجمعه أقسام يقال : أقسم بالله وأستقسمه بالله ، وتقاسم القوم يعنى : تحالفوا [٢].

ويقول أيضا فى قوله عز وجل : " قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ [٣] " يعنى أحلفوا بالله . والمقسم هو الحالف : ومنه قوله سبحانه :" كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ [٤] " وهم الذين تحالفوا أو تقاسموا على كيد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) أنظر البرهان للزركشى جـ١٧٩/١ .
(٢) مفردات الراغب – ص ٤١٨ .
(٣) سورة النمل – الآية ٤٩ .
(٤) سورة الحجر – الآية ٩٠ .

ويقول فى قوله عز وجل :" وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (١) " ، يعنى أن الشيطان حلف لآدم وحواء إنه ناصح لهما صادق معهما .

والقسم واليمين واحد ، ويعرف بأنه ربط النفس بالامتناع عن شئ أو الإقدام عليه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادا على اعتقاد فى نفس الحالف . وسمى الحلف يمينا لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف . (٢)

والمعظم عند الحالف حقيقة يكون بالله عز وجل أو بأحد صفاته ، وأما المعظم اعتقادا فهو مايتصور أن له مكانة فى نفس الحالف ، ولايجوز شرعا الحلف بغير الله لأنه ضرب من الشرك لقول الرسول عليه السلام: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ".(٣)

صيغة القسم :

والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل (أقسم) أو (أحلف) متعديا بالباء إلى المقسم به ، ثم يأتى المقسم عليه وهو المسمى بجواب القسم ، كقوله عز وجل :" وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ (٤) ".

وأدوات القسم هى :

(الواو والباء والتاء) - كأن تقول : والله وبالله وتالله ، والتاء لاتدخل إلا على لفظ الجلالة فى القرآن الكريم كقوله تعالى :" تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ " (٥).

---

(١) سورة الأعراف - الآية ٢١ .
(٢) مفردات الراغب - ص ٤١٨ .
(٣) سنن الترمذى جـ٤/٩٤ - كتاب النذور والإيمان .
(٤) سورة النحل - الآية ٣٨ .
(٥) سورة النحل - الآية ٦٣ .

ومثال الواو : " وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ "(١)، والباء :" يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ "(٢) كما جاء فى البرهان ، فالقراءة التى تجيز الوقف بعد لاتشرك ثم البدء بالله إن الشرك .

وأجزاء صيغة القسم ثلاثة :-

١ - فعل القسم :-

مثل أقسم أو أحلف ويتعدى الفعل فى كل منهما بالباء كقوله تعالى :" وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ " (٣) - يعنى حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة ، وقوله سبحانه :" وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ " (٤)، يعنى ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم وماهم بمؤمنين لكفر قلوبهم .

وقد أدخلت (لا) النافية على فعل القسم فى بعض المواضع كقوله تعالى :" لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ " (٥).

فقيل : لا فى الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام والتقدير مثلا لاصحة لما تزعمون أنه لاحساب ولا عقاب ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة إنكم ستبعثون ، وقيل لا لنفى القسم كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكنى أسألك غير مقسم أتحسب أنا لانجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ؟

---

(١) سورة الأنعام - الآية ٢٣ .

(٢) سورة لقمان - الآية ١٣ .

(٣) سورة النور - الآية ٥٣.

(٤) سورة التوبة - الآية ٥٦ .

(٥) سورة القيامة - الآية ١، ٢ .

إن الأمر من الظهور بحيث لايحتاج إلى قسم – وقيل : لا زائدة وجواب القسم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله : أيحسب الإنسان والتقدير لتبعثن ولتحاسبن .

وقد يحذف فعل القسم ويكتفى بالواو ، كما فى قوله جل شأنه :" وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ " (١) وتقديره ورب الليل إذا يغشى وأرخى سدوله على الكون (٢).

٢ – مقسم به :–

والذى يلزم أن يكون جليلا لدى المقسم كذات لفظ الجلالة أو أحد صفاته وتتقدمه أداة القسم وهى الواو والباء والتاء ، وقد تجتمع مع فعل القسم كأن تقول : أقسم بالله أو أحلف بالله .

٣ – مقسم عليه :–

وهو جواب القسم الذى ورد القسم لنفيه أو إثباته وقد يذكر الجواب أو يحذف إذا دل عليه السياق وذلك يكون أوجز وأبلغ كقوله عز وجل :" قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (٣) " ، " صٓ . وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ "(٤)، فإن كلا منهما تعظيم لشأن القرآن الذى يُذكر العباد بماينفعهم وما يضرهم والجواب : إن القرآن لحق .

---

(١) سورة الليل – الآية ١ .

(٢) الإتقان جـ٢/١٣٥ – والأساس فى علوم القرآن ، د./ عبد الحميد متولى [ص١٤٤] .

(٣) سورة ق – الآية ١ .

(٤) سورة ص – الآية ١ .

وقد يشير إلى جواب القسم السياق الوارد فى النص كقوله تعالى :" لَا أُقْسِمُ بِيَومِ القِيَامَةِ "(١) - فالجواب محذوف وتقديره : لتبعثن ولتحاسبن وتدل على ذلكم الجواب قوله سبحانه :" أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ "(٢) والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى أيظن الإنسان الكافر المكذب للبعث والنشور ، أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟

وفى حالة وقوع جواب القسم فعلا ماضيا لحقت به قد ومثاله قوله عز وجل :" وَالشَّمسِ وَضُحَاهَا وَالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَابَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَاطَحَاهَا وَنَفسٍ وَمَاسَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا "(٣) - فالآية الأخيرة هى جواب القسم ، وقد اقترن الفعل الماضى بقد .

أنواع القسم :

القسم فى اللغة العربية نوعان : ﴿ قسم صريح ، وقسم مضمر ﴾

(١) القسم الصريح :-

هو ماذكر معه حرف من حروف القسم كالواو أو الباء ، أو ماذكر معه فعل من الأفعال الدالة عليه كأقسم وحلف ، أو ماذكر معه الحرف والفعل معا نحو " أقسم بالله " ، أو مادل عليه لفظ من ألفاظه اسما كان أو مصدر نحو " يمين الله " أو " قسما بالله ".

---

(١) سورة القيامة - الآية ١ .

(٢) سورة القيامة - الآية ٣ .

(٣) سورة الشمس - الآية رقم ١ - ٩ .

وقد تدخل (لا) النافية على فعل القسم فى بعض المواضع كقوله عزوجل :" لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ . وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (١) ".

فقيل (لا) فى الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام ، والتقدير لاصحة لماتزعمون أنه لاحساب ولاعقاب . ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة ، أنكم ستبعثون . وقيل : (لا) لنفى القسم كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكنى اسألك غير مقسم أتحسب أنا لانجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ؟ إن الأمر من الظهور بحيث لايحتاج إلى قسم ، وقيل أيضا : (لا) زائدة ، وجواب القسم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله تعالى :" أيحسب الإنسان ..." والتقدير لتبعثن ولتحاسبن .

(٢) والقسم المضمر :-

هومالم يذكر معه القسم صريحا ، وله صورتان :
مادلت عليه اللام نحو قوله عز وجل :" قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ (٢) " ، ومادل عليه المعنى نحو قوله تعالى :" إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ (٣) " ، والتقدير فى الحالتين (والله) .وقد ورد القسم فى القرآن الكريم صريحا ومضمرا فى آيات كثيرة فى المرحلتين المكية والمدنية ، وإن يكن أكثر وروده فى الآيات المكية .

---

(١) سورة القيامة – الآية ٢،١ .
(٢) سورة الشعراء – الآية ١١٦ .
(٣) سورة الطارق – الآية ٤ .

وقد جرى القسم المضمر فى القرآن الكريم على أساليب العرب المألوفة لهم ، أما القسم الصريح فهو الذى لفت نظر المفسرين والباحثين ، لمايمتاز به من خصائص مميزة له انفرد بها دون غيره من كلام العرب .

بم يقسم الله ؟

وقد جرى القسم فى القرآن الكريم على خمسة أساليب :

– القسم بذات الله عز وجل الموصوفة بصفاته ، وهو كثير ، ومنه قوله عز وجل :

١ – " زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ (١) " .

٢ – " فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ".

٣ – " تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣) ".

٤ – " وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٤) ".

٥ – " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ (٥) ".

٦ – " فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦) ".

٧ – " فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٧) ".

---

(١) سورة التغابن – الآية ٧ .
(٢) سورة الحجر – الآية ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) سورة النحل – الآية ٦٣ .
(٤) سورة يونس – الآية ٥٣ .
(٥) سورة النساء – الآية ٦٥ .
(٦) سورة مريم – الآية ٦٨.
(٧) سورة الذاريات – الآية ٢٣ .

٨ - "وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَايَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّارَزَقْنَاهُمْ ، تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (١) ".

٩ - "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَاتَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَافِي الأَرْضِ (٢) ".

١٠- "فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُم وَمَانَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٣)".

- القسم بالنبى صلى الله عليه وسلم :-

وقد ورد فى موضع واحد ، وهو قوله عز وجل :" لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون " (سورة الحجر - الآية ٧٢) ، وهو ما اتفق عليه جمهور المفسرين ، كما أنه هو القسم الوحيد بنبى فى القرآن الكريم وقد أقسم الله به ليعرف الناس قدر رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومكانته عنده وأنه بعثه رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا ، وأقسم الله بحياته تقديرا .

وذهب بعض المفسرين إلى أن القسم بالرسول - عليه السلام - ورد فى موضعين آخرين : فى أول سورة (طه) طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " ، وفى أول سورة (يس) . يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين " ، ولكن أكثر المفسرين على أن طه ويس من الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور ،وانفرد الزمخشرى بالقول بأنه قسم بحياة "لوط" عليه السلام، إذ أن الآية فى شأن قومه .

---

(١) سورة النحل - الآية ٥٦.

(٢) سورة سبأ - الآية ٣ .

(٣) سورة المعارج - الآية ٤٠ ، ٤١ .

- القسم بالقرآن الكريم :-

وورد فى خمسة مواضع ، كلها مسبوقة بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور .

١ - " قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ " أول سورة (ق) .

٢ - " صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ " أول سورة(ص) .

٣ - " يسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ " أول سورة (يس) .

٤ - " حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ " أول سورة (الدخان) .

٥ - " حمٓ . والْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " أول سورة (الزخرف).

- أما أكثر أقسام القرآن انتشارا فهى :

القسم بآيات الله المستلزمة لذاته ، والقسم ببعض مخلوقاته

فأقسم الله بالملائكة فى قوله عز وجل :" والصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (١) " ، فقد افتتح عز وجل هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته إظهارا لعظم شأنها وكبر فوائدها ، وتنبيها للعباد على جلال قدرها . والصافات - عند أكثر المفسرين - هى جموع الملائكة المحلقة بأجنحتها فى صفوف منتظمة انتظارا لأوامر ربها ، والزاجرات الملائكة

(١) سورة الصافات - الآية ١-٣ .

التى تزجر الشياطين وتحول بينها وبين استراق السمع بقذفها بالشهب الثاقبة ، والتاليات الملائكة تتلو كتاب الله ، أو تلقى كلامه سبحانه فى كتبه المنزلة على رسله .

– وأقسم الله عز وجل بما فى الكون من ظاهرات :

ومنها القسم بالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، قال تعالى :

" والسَّمَاءِ وَمَابَنَاهَا . والأَرضِ وَمَا طَحَاهَا " (الشمس ٥،٦).

" والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . والأَرضِ ذَاتِ الصَّدْعِ " (الطارق ١١ ، ١٢) .

" والسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ " (الذاريات ٧).

" والسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ " (البروج ١).

" والسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ " (الطارق ١-٣).

" والشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَاجَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا " (الشمس ١-٤).

– ومنها القسم بالنجم فى قوله سبحانه :" وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ "[1] "

والمراد به جنس النجوم التى نراها لامعة فى السماء أو النجوم إذا انتثرت يوم القيامة أو انقضت إثر الشياطين وعن مجاهد وابن عباس أنها الثريا إذا سقطت مع الفجر "[2]، ولاتضارب بينها والعبرة بمابعد هذا القسم العظيم الشأن حيث زكى الخالق سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال:(مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ وَمَاينطقُ عَنِ الهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ) .

(١) سورة النجم – الآية ١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤/٢٤٦ .

– ومنها القسم بالليل والنهار ومراحلهما المتعاقبة : الفجر والصبح والضحى والعصر والشفق . قال تعالى : " والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى " (الليل ١، ٢) .

وقال : " والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر " (الفجر ١-٤) .

وقال : " والضحى . والليل إذا سجى " (الضحى ١، ٢) .

وقال : " والعصر . إن الإنسان لفى خسر " (العصر ١، ٢).

وقال : " فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق " (الانشقاق ١٦-١٨).

– ومنها القسم بالرياح والسحاب وبالبحر والجبل :

قال عز وجل :" والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا " (الذاريات ١-٤) .

وقال : " والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا "(المرسلات ١-٣).

وقال : " والبحر المسجور " (الطور ٦).

وقال : " والطور " (الطور ١) .

– وكما أقسم سبحانه بالأزمنة التى تحدد حركة الكون بإرادته وتقديره ، أقسم بالأمكنة المقدسة التى شاءت حكمته أن تكون أرض رسالاته ورسله : أقسم بطور سيناء حيث كلم موسى ، وبفلسطين حيث ظهر عيسى ، وبمكة المكرمة حيث بعث محمد عليهم الصلاة والسلام .

" والتِينِ والزَّيْتُونِ . وطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا البَلَدِ الأَمِينِ " (التين ١-٣).
والمفسرون على أن التين والزيتون بلاد الشام ، والبلد الأمين مكة المكرمة .

وأقسم سبحانه بيوم القيامة ، وبالنفس السوية والنفس اللوامة : قال عز وجل :" لاَ أُقْسِمُ بِيَومِ القِيَامَةِ . وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ " (القيامة ١،٢).

وقال : " والسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ . واليَوْمِ المَوْعُودِ " (البروج ١،٢).

وقال :" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " (الشمس٧،٨).

وأقسم بالقلم فقال :" نَ والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ " [(١)] والمراد به القلم الذى تسجل به الملائكة أعمال الناس وأقوالهم ، أو يراد به القلم المعروف الذى يكتب به .

وقد تضمن القسم آثار القلم من العلوم والمعارف التى تبصر الناس بشئون دينهم ودنياهم والتى سوف يحاسبون عليها يوم يقوم الأشهاد .

- وأقسم بالكتاب :

قال عز وجل :" والطُّورِ . وكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ " (الطور ١-٣).
وقد اختلف المفسرون حول المراد بالكتاب هنا ، فبعضهم يرى أنه التوراة لاقترانه بالطور ، وبعضهم يرى أنه القرآن لذكر البيت المعمور بعده ، وبعضهم يرى أن المراد به كل الكتب المقدسة التى نزلها الله على رسله .

- وأقسم عز وجل بالعصر : " والعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ " [(٢)].

(١) سورة القلم – الآية ١ .
(٢) سورة العصر – الآيات ١-٣ .

ويراد بالعصر ،صلاة العصر لفضلها لأنها الصلاة الوسطى ، أو هو عصر النبوة الخاتمة أو هو الدهر كله ، أقسم الله به لما اشتمل عليه من أحوال المخلوقات التى تحير الفكر – وخاصة الذين نسوا أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين فيحاسبهم على النقير والقطمير والصغير والحقير .

وأما أعم قسم ورد فى القرآن الكريم فهو قوله تعالى :" فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ " (الحاقة ٣٨-٤٠).

أقسم به سبحانه ليؤكد رسالة محمد سيد الأنبياء وخاتم المرسلين وخير خلقه أجمعين .

وذكر صاحب البرهان تساؤلا " كيف أقسم المولى عز وجل بمخلوقاته وقد ورد النهى علينا ألا نقسم بمخلوق ؟ قيل فيه ثلاثة أجوبة :

الأول .. أنه على تقدير حذف مضاف أى : ورب الفجر ، ورب التين ، وكذلك الباقى .

الثانى .. أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على مايعرفون .

الثالث .. أن الأقسام إنما تجب بأن يقسم الرجل بما يعظمه أو بمن يجله وهو فوقه والله تعالى ليس شئ فوقه فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع " (١) .

---

(١) أنظر البرهان للزركشى جـ٣/٤٢.

علام يقسم الله ؟

من يتتبع القسم فى القرآن الكريم يلاحظ أن الله تعالى يقسم على أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد ، الرسالة ، والبعث ، وتحت هذه الأصول الكبرى تندرج فروع وجزئيات متعددة . وقد ركز القرآن الكريم على هذه الأصول الاعتقادية لأنها كانت أشد مافاجأ العرب من الدين الجديد ، وأشد ما أثار إنكارهم ورفضهم وتكذيبهم منه . فقد ظهر محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته والعرب ممعنون فى ماديتهم بعيدا عن كل هذه المعانى الروحية والمسائل الغيبية التى يدعو إليها الإسلام .

ومـــن هنا كان طبيعيا أن يلجأ القرآن الكريم إلى القسم فى حديثه عنها ، ومن هنا أيضا كان طبيعيا أن ينتشر القسم فى الآيات المكية ، وأن يتجه القرآن إلى هذا الأسلوب الفريد من القسم بمظاهر الطبيعة الدالة على قدرة الله وبديع صنعه ، وأنه خالق هذه الحياة بكل مافيها ومن فيها .

وتدور أكثر أقسام القرآن حول هذه الأصول الاعتقادية الثلاثة ، ففى سورة الصافات نرى مثلا للقسم على الأصل الأول - التوحيد - حيث يقسم الله تعالى بملائكته على وحدانيته وأنه رب السموات والأرض ومابينهما ورب كل شئ :" والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكــرا . إن إلهكم لواحــد . رب السـموات والأرض ومابينهمـا ورب المشارق ".

وفى سورة يس نرى مثلاللقسم على الأصل الثانى - الرسالة - حيث يقسم الله بالقرآن على أن محمدا رسول من رسل الله الذين أرسلهم بدينه الحق لهداية البشرية منذ أن استخلف الإنسان على الأرض :" يس والقرآن

الحكيم . إنـك لمن المرسلين . علـى صـراط مستقيم ". وكذلـك نـرى فـى سورة الحاقة حيث يقسم الله بأعم قسم أقسم به على أن محمدا رسـول مـن عند الله نزل عليه القرآن ، وأنه ليس شاعرا ولا كاهنا كما يدعـون :" فـلا أقسم بما تبصرون .وما لاتبصـرون . إنـه لقـول رســول كريـم . ومـاهو بقول شاعر ، قليلا ماتؤمنون . ولابقول كـاهن ، قليـلا مـاتذكرون . تـنزيل من رب العالمين ".

وفى سورة الذاريات نرى مثلا للقسم على الأصل الثـالث – البعث – حيث يقسم الله تعالى بالريـاح التـى تسوق السحاب إلـى الأرض الطيبـة ، يحمل لها المطر الذى يحييها بعد موتها ، على أن البعث حق وأن الجـزاء واقـع يـوم القيامـة لاشـك فيــه : " والذاريــات ذروا : فالحــاملات وقـرا . فالجاريات يسرا . فالمقسـمات أمـرا . إن مـاتوعدون لصـادق . وإن الديـن لواقع ".

وكذلك فى سورة المرسلات حيث يقسم اللـه تعـالى بالريـاح أيضـا أو بالملائكـة – علـى إختـلاف بيـن المفسـرين – علـى أن وعـد اللــه بــالبعث والقيامـة حـق لاريـب فيـه :" والمرســلات عرفـا . فالعاصفــات عصفـا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيـات ذكـرا . عـذرا أو نـذرا . إن ماتوعدون لواقع ".

ووراء هذه الأصـول الثلاثـة الكبرى نـرى فروعـا كثيرة تـتردد فـى الأقسام القرآنية :

ففى سورة المعارج نرى قسما على قدرة الله التى لايقف دونها شئ ، وأن الله قادر على أن ينزل مايشاء مـن عقـاب علـى مـن يشـاء مـن عبـاده

العاصين ،وأنه ليس عاجزا عن أن يهلكهم ويستبدل بهم قوما خيرا منهم :" فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون . على أن نبدل خيرا منهم ومانحن بمسبوقين . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ".

وفى سورة الطارق يدور القسم حول فكرة أن الله لم يترك الإنسان فى هذه الحياة سدى ، وإنما خلقه وكلف ملائكته بحفظه ومراقبته وإحصاء أعماله حتى يكون حسابه يوم القيامة بناء على صحيفة أعماله التى سجلت عليه فى حياته :" والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ ".

وفى سورة النجم يقسم الله على صدق الإسراء والمعراج ، ردا على ما أثاره المشركون حوله من تكذيب للنبى صلى الله عليه وسلم :" والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ماكذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على مايرى . ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة مايغشى . مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ".

وفى سورة العصر قسم على أن سبيل الفوز فى الدنيا والآخرة هو الإيمان والعمل الصالح والأخذ بأسباب الحق والصبر :" والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ". وهى الفكرة نفسها التى نراها فى سورة التين :"

والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ".

وهكذا تعددت مجالات القسم فى القرآن الكريم تعدد ما أدرك الله بعلمه وحكمته أنه فى حاجة إلى القسم عليه ، فكانت هذه الأصول الاعتقادية الثلاثة هى المجالات الأساسية ووراءها مجالات فرعية كثيرة .

وإذا تأملنا القسم فى القرآن الكريم فإننا نلاحظ أنه يمتاز بظواهر أسلوبية مميزة له :

ولعل أوضح هذه الظواهر حذف جواب القسم فى بعض هذه الآيات . والظاهرة التى تلفت النظر هنا أن هذا الحذف لم يرد إلا فى الآيات المكية ، ولم يرد فى أى آية مدنية . وأكثر مايكون ذلك إذا كان فى المقسم به مايدل على المقسم عليه ، أو – بعبارة أخرى – إذا كان فى لفظ القسم مايدل على موضوعه ، وذلك لأن المراد من القسم يفهم بذكر المقسم به فيكون ذكر المقسم عليه لاضرورة له ، ويكون حذفه أوجز وأبلغ . ولذلك نلاحظ أن حذف الجواب يكون فى إحدى حالتين : فى حالة ظهوره والعلم به ، أو فى حالة دلالة السياق عليه .

ففى قوله تعالى :" والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر "، جواب القسم محذوف لدلالة سياق آيات السورة بعد ذلك عليه ، وهو ما أصاب الأمم الغابرة من عذاب الله لماكذبوا رسله ، وكأن التقدير " لتعذبن ياكفار مكة كما عذبت هذه الأمم ".

وفى قوله تعالى :" والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا . يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة " ، جواب القسم محذوف لدلالة سياق الآيات عليه ، وهو البعث ، وكأن التقدير " لتبعثن يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ".

وفى قوله تعالى :" ص والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزه وشقاق " ، جواب القسم محذوف لأن فى القسم مايدل عليه ، وهو وصف القرآن بأنه ذو الذكر ، أو لأن السياق بعده يدل عليه ، وهو وصف الكافرين بأنهم فى عزة وشقاق ، أى فى كبرياء الجاهلية الكاذبة ، وخلافهم المتعصب مع المؤمنين بالدين الجديد . وعلى هذا يكون القسم على القرآن الكريم وصدقه ، أو على أن الأمر ليس كمايقول كفار مكة من تعدد الآلهة. وبعض المفسرين يرون أن جواب القسم هو قوله تعالى :" بل الذين كفروا فى عزة وشقاق "، فكأن الله يقسم على ذلك .

ويذهب ابن القيم مذهبا طريفا فى تفسير هذه الظاهرة الأسلوبية ، إذ يرى فى كتابه (التبيان فى أقسام القرآن) أن من بين أقسام القرآن التى حذف جوابها ما أريد به التنبيه على أهمية المقسم به دون أن يراد مقسم عليه بعينه ، ولهذا يستغنى عن ذكره ، لأن هذا القسم فى الحقيقة يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظا .

ومن هذه الظواهر الأسلوبية أيضا ورود (إذا) بعد القسم الصريح ، وقد ورد ذلك فى اثنتى عشرة آية كلها مكية .

والذى يلفت النظر فى هذه الظاهرة أن القسم فى هذه الآيات كلها بمراحل الليل والنهار الزمنية :

- " والنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ " (النجم)
- " والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ " (المدثر)
- " واللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ " (التكوير)
- " والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ " (التكوير)
- " والقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ " (الانشقاق)
- " وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ " (الفجر)
- " والقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا " (الشمس)
- " والنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا " (الشمس)
- " واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا " (الشمس)
- " واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ " (الليل)
- " والنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ " (الليل)
- " والضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ " (الضحى)

ويرى ابن هشام فى كتابه (المغنى) أن (إذا) فى هذه الآيات ظرف للحال ، وليس فيها معنى الشرطية ، ولاتدل على الإستقبال . وربما كان الأقرب إلى سياق الآيات أن تكون للدلالة على استغراق الزمن ، وكأن الله يقسم بهذه الظواهر الطبيعية التى هى من آيات خلقه وقدرته ليلفت النظر إلى أنها متجددة دائما وأنها ستظل متجددة على امتداد الزمان كله حتى تقوم الساعة .

وهناك ظواهر أخرى كثيرة نستطيع أن نلاحظها على أسلوب القسم القرآني ، كاقترانه بأداة الزجر والردع (كلا) التي رأينا أنها من خصائص الأسلوب القرآني في المرحلة المكية ، وقد وردت (كلا) مقترنة بالقسم في خمس آيات كلها مكية .

-" كَلَّا وَالْقَمَرِ . وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ . وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ " (المدثر)
- " كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ " (العلق)
- " كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ " (التكاثر)
- " ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ " (التكاثر)
- " كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ " (الهمزة)

وظاهرة أسلوبية أخرى نراها في القسم القرآني ، وهي اقتران فعل القسم (بلا النافية) في بعض الآيات . وقد ورد ذلك في ثماني آيات كلها مكية ، ولم يرد في أي آية مدنية . وهذا الأسلوب نادر في كلام العرب حتى ليعد أسلوبا قرآنيا خالصا ، وإنما الذي كثر في كلام العرب اقتران (لا) النافية بغير الفعل ، على نحو مانرى : في بيت النابغة الذبياني :

فلاَ لعمرُ الذى مَسَّحتُ كعبته ∴ وماهُريقَ على الأنصاب من جسد

وتردد هذا الأسلوب أيضا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كثر في أيمانه عليه السلام ذلك القسم الرقيق " لا والذى نفسي بيده " أو " لا والذى نفس محمد بيده" . ويذكر ابن القيم في كتابه (التبيان) أن أكثر يمين الرسول صلى الله عليه وسلم (لا ومقلب القلوب).

والآيات الثماني التي ورد فيها هذا الأسلوب القرآني من القسم هي :

- " فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ " (الواقعة)
- " فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ " (الحاقة)

- " فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ " (المعارج)
- " لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ " (القيامة)
- " وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ " (القيامة)
- " فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ " (التكوير)
- " فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ " (الانشقاق)
- " لَآ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ " (البلد)

وفى آية مدنية واحدة وردت (لا) بغير فعل ، جريا على أساليب العرب وذلك فى قوله تعالى : " فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ " (النساء ٦٥) . ويرى النحاة أن (لا) فى هذه الآيةنافية لفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور ، تقديره :" فلا يؤمنون وربك لايؤمنون " ، فأخبر أولا ثم أكد بالقسم بعد ذلك ، فاستغنى بذكر الفعل بعد القسم عن ذكره قبله .

ووراء هذه الظواهر ظواهر أخرى كثيرة وصل بها العلماء إلى اثنتين وعشرين ظاهرة ، وأكثرها من الظواهر المألوفة فى أساليب العرب فى القسم ، ولكن من بين هذه الظواهر ظاهرة طريفة تتصل بأسلوب القرآن فى استخدام حروف القسم " الواو والباء والتاء " ، فقد وردت التاء مقترنة بلفظ الجلالة " الله " فى الآيات المكية فقط ، ولم ترد فى الآيات المدنية ، كقوله تعالى :"وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم " (الأنبياء ٥٧) ، فى حين وردت الباء مقترنة به فى الآيات المكية والمدنية على السواء ، كقوله تعالى :" وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ " (النحل ٣٨ مكية) ، وقوله سبحانه :" وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ " (التوبة ٤٢

مدنية) . أما الــواو فلم ترد فى الآيات المكية ولا الآيـات المدنيـة مقترنـة به ، وإنما وردت مع لفظ الجلالة (الرب) مضافا إلى الضمير الذى يشير إلى النبى صــلى اللـه عليه وسلم ، كقولـه سبحانه :" فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ " (الحجـر ٩٢) ، أو مضافا إلى آياتـه الدالـة على قدرتـه كقولـه تعالـى : " فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ " (الذاريات ٢٣) . ولكن أكثر ورودها فـى القسم بمظـاهر الطبيعـة أو فـى القسم بـالقرآن ، نحـو قولـه تعـالى :" والعصـر " " والضحـى " " والليـل " " والفجر وليال عشر " " والسماء والطارق " " كلاوالقمر " .. وهكذا ، ونحـو قولـه تعـالى :" ق والقرآن المجيد "" حـم والكتـاب المبيـن " " يـس والقـرآن الحكيم " .. وهكذا .

ومن الظواهر الطريفة أيضا أن مـادة (حلف) لـم تـرد إلا فـى الآيـات المدنية ، ولم ترد فى الآيات المكية إلا فـى آيـة واحـدة هـى قولـه تعـالى :" وَلاتُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ " (القلم ٨) . وكل مواضـع ورودهـا جـاءت فـى مقام الحنث باليمين ، ومن هنا لم ترد مقترنةبالله تعالى .

أما مادة (قسم) فقد اقتصر ورودها على الآيات المكية ولم ترد فى الآيـات المدنية ، ولعل ذلك هو الذى جعل صاحبى لسان العرب والقاموس المحيـط وغيرهما من علماء اللغة يذكرون أن الحلف معناه القسم ، غير أن الحلف الذى ورد فى القرآن الكريم لايصح أن يكون مرادفـا للقسـم . ولعلـه أيضـا هو الذى جعل الزمخشرى فـى أسـاس البلاغـة يربـط بين الحلـف والحنـث والايمان الكاذبة ، فيقول " هـذا شـئ مُحْلِف ومُحْنِث " وحَلَفَ حِلْفَة فـاجر وأحلوفة كاذبة ".

الفصل الحادي عشر

قصص القرآن

الأحداث المرتبطة بالأسباب والنتائج تهفو إليها النفس ، ويشرئب إليها السمع ، فإذا تخللتها مواطن العبرة والعظة فى أخبار السابقين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها فى نفس الإنسان فيصغى إليها بشوق ولهفة ، ويتأثر بمافيها من عظات وعبر .

وقد أدرك القرآن الكريم تماما هذه الحقيقة ، وعرف هذا الميل الفطرى إلى حب القصة ، وفطن كذلك إلى مالها من تأثير ساحر على القلوب والنفوس ، لذلك استغل كل عناصر القصة ومقوماتها استغلالا دقيقا لتحقيق الغرض الأسمى الذى من أجله نزل .. ونظرة فاحصة فى كتاب الله الكريم نجد الدليل على مانقول .

معنى القصص :-

القص تتبع الأثر . يقال قصصت أثره : أى تتبعته [(١)] والقصص مصدر ، قال تعالى :" فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا [(٢)] " - فقصصا : مصدر - أى رجعا فى طريقهما الذى جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول .

وقال على لسان أم موسى :" وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ [(٣)] " . أى تتبعى أثره حتى تنظرى من يأخذه .

(١) المصباح المنير - جـ٢/٧٧٨ ، مفردات الراغب ص ٤١٩ .
(٢) سورة الكهف - الآية ٦٤.
(٣) سورة القصص - الآية ١١ .

والقصص كذلك الأخبار المتتبعة . قال عز وجل :" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ (١) ". ويعنى عظة وذكرى ودروسا مستفادة لأولى العقول والأبصار .

ومفرد القصص قصة ، والقصة تعنى الأمر والخبر والشأن والحال(٢). وقصص القرآن : إخباره عن أحوال الأمم السابقة والقرون الماضية ومافيها من حوادث واقعة ونبوات ، وذكر البلاد والديار . وتتبع آثار كل قوم ، وقد حكى القرآن عنهم صورا ناطقة صادقة لماكانوا عليه .

- أنواع القصص في القرآن :-

استخدم القرآن الكريم كل أنواع القصة :

القصة الواقعية : التى تعرض نماذج متفاوتة للنفس البشرية .

والقصة التاريخية : بكل أماكنها وأحداثها وأشخاصها .

والقصة التمثيلية : التى لاتمثل واقعة بذاتها . ولكنها يمكن أن تحدث فى أية لحظة من اللحظات ، وفى أى وقت من الأوقات .

ومن القصص الواقعي : قصة ابنى آدم كما سجلتها آيات سورة المائدة : " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ.فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣) ".

(١) سورة يوسف - ألاية ١١١ . (٢) المصباح المنير جـ٧٧٩/٢ . (٣) سورة المائدة - الأيات ٢٧-٣٠ .

أما القصة التاريخية .. فالأمثلة عليها كثيرة .. كل قصص الأنبياء ، وقصص المكذبين بالرسل وما أصابهم من جراء هذا التكذيب .. وهى قصص يذكرها القرآن الحميد بكل أشخاصها وأحداثها وأماكنها على وجه التحديد والحصر ، كقصة موسى وفرعون ، وقصة صالح وثمود ، ونوح وقومه ، وهود وعاد ، وإبراهيم واسماعيل ، وشعيب ومدين ، وقصة عيسى وبنى اسرائيل ... الخ .

ومن النوع التمثيلى – فى القرآن الكريم – قصة صاحب الجنتين ، التى سردتها ورسمت وقائعها وأحداثها سورة الكهف : " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا " (١) .

فإذا عرفنا أن القصة القرآنية برغم قلة الألفاظ المستخدمة فى أدائها حافلة بكل أنواع التعبير والعناصر الفنية : من حوار ، إلى سرد ، إلى تنغيم إيقاعى إلى إحياء للشخوص ، إلى دقة فى رسم الملامح ، أدركنا مدى سحر هذا الإعجاز الفنى الناشئ عن القصة القرآنية ، ومدى عظمة القدرة الالهية فى اخراجها .

---

(٢) سورة الكهف – الأيات ٣٢ ومابعدها .

والقرآن المجيد إذ يستخدم القصة باختلاف أنواعها، وفى المناسبات المتباينة والأغراض المتعددة التى حددها وارتآها .. فإنه يستخدمها أيضا وسيلة فى التربية والتوجيه . وسبيلا إلى الوعظ والارشاد ، لذلك يمكننا القول : ﴿ إن القصة القرآنية سجل حافل لجميع التوجيها ت الالهية ﴾.

- الأهداف والفوائد من وراء القصص القرآنى :

يتمثل الهدف من القصص القرآنى فى قوله سبحانه :" لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَاكَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَئٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (١).

فهو قصص يهدف أولا الى تحقيق العظة والعبرة والهداية ومع ذلك فليس فيه كذب أو شئ من نسج الخيال بل هو التصوير الأمين للواقع التاريخى والتفصيل الدقيق له وهو الهداية والرحمة لقوم يؤمنون ويصدقون فيتعظون ويتذكرون .

لذلك نجد أن استخدام القرآن الكريم للقصة كان تحقيقا لأمور هامة منها :

[١] تثبيت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله : "وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ " (٢).

---

(١) سورة يوسف – الآية ١١١ .

(٢) سورة هود – الآية ١٢٠.

[٢] إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التى بعث بها كل نبى :" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ " (١).

[٣] إظهار صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال يقول سبحانه : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ " ، ويقول : " وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ " (٢).

[٤] تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم :" شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ " (٣) - اجعلوا الدين قائما مستمرا محفوظا من غير خلاف فيه ولا اضطراب .

[٥] مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وتحديه لهم بماكان فى كتبهم قبل التحريف والتبديل كقوله تعالى : " كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " (٤). وذلك دليل صدق على أن منزل هذا القرآن إنما هو العليم الخبير الذى نزل التوراة والانجيل من قبل .

---

(١) سورة الأنبياء - الآية ٢٥ .
(٢) سورة فاطر - الآية ٣١ .
(٣) سورة الشورى - الآية ١٣ .
(٤) سورة آل عمران - الآية ٩٣ .

[٦] كما أن أثر القصــص القرآنى فى التربيـة والتهذيب واضـح لامراء فيه ، فالناس بالفطرة والسليقة يميلون إلـى سماع الحكايـة ويصغون إلـى روايـة القصـة وتعى ذاكرتهم مـايروى لهـم فيقصـوه ، وهـذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغى للمربين أن يفيدوا منهـا فـى مجـالات التعليم .

حكمة تكرار القصص فى القرآن الكريم :-

يشتمل القـرآن الكريم علـى كثير مـن القصـص الذى تكرر فـى غير موضع ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرهـا فـى القرآن ، وتعرض فـى صـور مختلفة فى التقديم والتأخير ، والإيجـاز والإطنـاب ، وماشـابه ذلك . ومـن حكمة هذا :

(١) الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرهـا فـى النفس ، فـإن التكرار مـن طرق التأكيد وأمارات الاهتمام . كما هو الحال فى قصة موسى مع فرعون ، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل – مـع أن القصة لاتكرر فى السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

(٢) بيان بلاغة القرآن فى أعلى مراتبها . فمن خصـائص البلاغة إبراز المعنـى الواحد فـى صورمختلفـة ، والقصـة المتكررة ترد فـى كـل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر ، وتصاغ فى قالب غير القـالب ، ولايمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد فى نفسه معان لاتحصل لـه بقراءتها فى المواضع الأخرى .

(٣) اختلاف الغاية التى تساق من أجلها القصة – فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام ، وتبرز معان أخرى فى سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .

(٤) قوة الاعجاز – فايراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الاتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى .

– **أما منهج القصة القرآنية** .. فهو منهج فريد اختص به القرآن الكريم .

– هذا المنهج – كما وضعه الله عز وجل – له عدة مظاهر :

المظهر الأول : التركيز على أحداث القصة بمايفى بالغرض :-

ودليل ذلك أننا قلما نجد القرآن العظيم يسرد أحداث القصة سردا تاريخيا تبعا لتطور الوقائع ، لأن ذلك يبعد القصة عن مقصدها ، ويخرجها بعيدا عن الهدف الذى من أجله سردت ، فعندما يقص علينا القرآن قصة أهل الكهف . بدأ فوصف أصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان بالله عز وجل ، ووحدانيته مخالفين ما عليه سائرهم من الشرك والكفر ، وأنهم من أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم ، وتمضى القصة على هذا المنوال ، فمن هم هؤلاء القوم ؟ وفى أى بلدة كانوا يسكنون ؟ وكم كان عددهم ؟ وما أسماؤهم ؟ هذه أسئلة كان من مقتضى السرد التاريخى أن تجيب القصة عنها ، ولكنها لو أوضحت ذلك لما وفت بالغرض الدينى الذى استهدفته ، ولا نصرف فكر القارئ أو السامع إلى

تتبع أحداث تاريخية ، ولغفل بذلك عن الغرض الأسمى الذى من أجله سيقت القصة وهو العبرة .

وكذلك حين سرد القرآن قصة خلق آدم ، وسكناه فى الجنة ، ثم نزوله إلى الأرض ، لايتحدث عن وصف نزوله إلى الأرض وحياته فيها بأكثر من قوله : " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى " (١) .

ففى أى مكان من الأرض هبط ؟ وكيف كانت معيشته ؟ وأين كان سكناه إذ ذاك ؟

إن الإجابة على مثل هذه التساؤلات والاستفسارات ، وإن كانت مما يتشوف إليه الفكر ، وتتشوق إليه النفس - إلا أنها تقصى القارئ أو السامع عن الانتباه المقصود من سرد القصة ، فحسبه لكى لايشتت ذهنه وراء الأحداث التاريخية أن يعلم من القصة مايحمله على الانصياع للمقصد الدينى الذى تنطوى عليه .

أما **المظهر الثانى** - فى منهج القصة القرآنية - فهو التكرار .

فنحن نجد أن القصة الواحدة قد تكررت فى القرآن مرات عديدة ، كقصة خلق آدم وقصة نوح . وقصة موسى وفرعون، فذكر الله عز وجل قصة نوح فى خمسة وعشرين آية ، وقصة موسى فى سبعين آية . وهنا قد يتبادر إلى الأذهان سؤال .. لماذا كرر القرآن القصة الواحدة فى أكثر من موضع ؟

---

(١) سورة طه - الآية ١٢٣ .

إن القصة القرآنية إنما كررت فى أكثر من موضع لغايات جلى وفوائد عظمى منها :-

[١] أنه إذا كرر القرآن القصة زاد فيها شيئا .. ألا ترى أنه ذكر الحية فى عصا موسى فقال : " فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى "(١)، ثم ذكرها فى موضع آخر ثعبانا ، فقال :" فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ "(٢) وهذا الأمر يتصل بالبلاغة القرآنية والفصاحة ، وهذه عادة البلغاء والفصحاء . أن يكرر أحدهم فى آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة .

[٢] أن الله تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم بين وأوضح الأمر فى عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا ، قال ابن فارس :" وهذا هو الصحيح "(٣).

[٣] تسليته لقلب النبى صلى الله عليه وسلم بما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم ، قال الحق تبارك وتعالى :" وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ "(٤).

[٤] أن القصة الواحدة من هذه القصص ، كقصة موسى مع فرعون ، وإن ظن أنها لاتغاير الأخرى ، فقد يوجد فى ألفاظها زيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وتلك حال المعانى الواقعة بحسب تلك

---

(١) سورة طه – الآية ٢٠ .
(٢) سورة الأعراف – الآية ١٠٧ .
(٣) أنظر فقه اللغة لابن فارس ص ١٧٨ .
(٤) سورة هود –الآية ١٢٠ .

الألفاظ ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائـــــد فيه ، لايوقف عليه إلا منها دون غيرها ، فكأن الله تعالى فرق ذكر مادار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرير لتوجد متفرقة فيها ، ولو جمعت تلك القصص فى موضع واحد لأشبهت ماوجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ، من انفراد كل قصة منها بموضع . كما وقع فى القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام . فاجتمعت فى هذه الخصيصة من نظم القرآن عدة معان عجيبة .

منها : أن المعانى التى اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة فى تارات التكرار. فيجد البليغ – لمافيها من التغيير – ميلا إلى سماعها لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل فى الأشياء المتجددة التى لكل منها حصة من الالتذاذ به .

ومنها : أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع فى اللفظ هجنة ، ولا أحدث مللا فباين بذلك كلام المخلوقين .

ومنها : ظهور الأمر العجيب فى إخراج صور متباينة فى النظم بمعنى واحد ، وقد كان المشركون فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر فى تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لايلحقه نهاية ، ولا يقع على كلامه عدد ، لقوله عز وجل : " قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا " (١).

---

(١) سورة الكهف – الآية ١٠٩ .

ومنها : أنه ألبسها زيادة ونقصانا ، وتقديما وتأخيرا ، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فيكون شيئا معادا ، فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات .

والمظهر الثالث : فى منهج القصة القرآنية :-

هو بث العظات وتوجيه النصائح بين ثنايا القصة ، فالقرآن العظيم لايدع القارئ أو السامع يندمج مع موضوع من مواضيعه ، وينصرف إليه بكل تفكيره دون أن يفصل بين أجزائه بفواصل من العظات ، تنبهه إلى المقصود من كل هذا السرد والعرض ، وتغلف قلبه بغشاء من الخشية ، وتشعره بالمراقبة الإلهية عند قراءتها والتأمل فيها . ومن هنا لم نر فى القرآن فصولا خاصة فى التشريع ، أو فصولا خاصة فى سرد المغيبات من جنة ونار ، وإنما تأتى هذه الموضوعات متداخلة متغلغلة .

فلنقرأ قول الحق سبحانه من سورة طه – أثناء عرض قصة موسى مع فرعون ، فنرى صورة واضحة لتغلغل عبارات الموعظة والتأكيد بخشية الله بين ثنايا القصة وخلال سردها . " قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ، قَالَ : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ، قَالَ : عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَايَضِلُّ رَبِّى وَلَايَنسَى ، الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ، وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِن نَّبَاتٍ شَتَّى ، كُلُوا وَارْعَوْا أَنعَامَكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى ، مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى [1].

---

(١) سورة طه – الآيات ٤٩-٥٤ .

فلنتأمل معا .. لقد تحولت الآيات هنا عن القصة ومتابعة الأحداث وسرد الحوار إلى التذكير بعظمة الحق سبحانه ، وتوضيح مظاهر الوهيته ، ودلائل وجوده ، حتى أن ضمير الخطاب فيها تحول عن خطاب موسى لفرعون – إلى خطاب الله للناس أجمعين (١).

هكذا كانت القصة القرآنية آية من آيات الله عز وجل ، وعنصرا من عناصر الإعجاز القرآنى بعناصرها وخصائصها ، بمضمونها ومشمولها ، كانت تدعيما للرسالة المحمدية ، وإثباتا للوحى الالهى ، كما حوت العبرة والموعظة ، وكشفت عما حاق بالأمم الماضية من فنون العذاب والهلاك ... فإذا عرفنا أن القصة القرآنية كانت إلى جانب ذلك وسيلة من وسائل تثبيت قلب النبى – عليه السلام – وتشجيعه على تحمل أعباء الرسالة . أدركنا مدى القيمة الحقيقية لهذه القصة ، بوصفها آية من آيات الله التى لاتعد ولاتحصى ، أودعها عظيم كتابه لتشهد بقدرته .

---

(١) هذا التحول يطلق عليه البلاغيون [الإلتفات].

الفصل الثانى عشر

الأمثال فى القرآن الكريم

ضرب الله عز وجل الأمثال فى القرآن الكريم للتذكير ، والوعظ والحث ، والزجر والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس . فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى ، والغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقياس النظير على النظير ، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالا وبهاء فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له واقناع العقل به ، ولذلك أكثر الله عز وجل فى كتابه الكريم ، وفى سائر كتبه الأمثال ، وفشت فى كلام النبى – صلى الله عليه وسلم – وكلام الأنبياء والحكماء ، وذكر الله عز وجل فى كتابه الكريم أنه يضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون فى آثار الله وقدرته ووحدانيته ، فقال : "وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١) ".

وقال عز وجل :" وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢) " ، يعنى ولقد بينا ووضحنا للناس فى هذا القرآن من كل الأمثال النافعة ، والأخبار الواضحة الصريحة مايحتاجون إليه لعلهم يعتبرون ويتعظون .

---

(١) سورة الحشر – الآية ٢١ .
(٢) سورة الزمر – الآية ٢٧ .

وقال تبارك وتعالى : " وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون " . والمعنى ، وتلك الأمثال نبينها للناس فى القرآن لتقريبها إلى أذهانهم ، ومايدركها ويفهمها إلا الراسخون فى العلم الذين يعقلون .. ويتبصرون .

تعريف المثل :-

والأمثال لغة : جمع مثل ، والمَثَلُ والمِثل والمَثِيل .. كالشَّبَه والشِّبه والشَّبيه لفظاً ومعنى . والمثل فى الأدب قول محكىّ سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله ، أى تشبيه مضربه بمورده .

ويطلق المثل على الحال . والقصة العجيبة الشأن . وبهذا المعنى فسّر لفظ المثل فى كثير من آيات القرآن الكريم ، قال عز وجل : " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (١) " ، أى قصتها وصفتها التى يتعجب منها .

وهنا معنى ذهب إليه علماء البيان فى تعريفهم للمثل فهو عندهم : المجاز المركب الذى تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله . وأصله الاستعارة التمثيلية . كقولك للمتردد فى فعل أمر :" مالى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ".

وقيل فى ضابط المثل كذلك : إنه ابراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا . والمثل بهذا المعنى لايشترط أن يكون له مورد ، كما لايشترط أن يكون مجازا مركبا .

---

(١) سورة محمد - الآية ١٥ .

بيد أن أمثال القرآن الكريم ، لايستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبه والنظير ، ولايستقيم حملها على مايذكر فى كتب اللغة لدى من ألفوا فى الأمثال - إذ ليست أمثال القرآن أقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولايستقيم حملها أيضا على معنى الأمثال عند علماء البيان . لذا فإن المثل فى القرآن له تعريف أكبر وأسمى من ذلك .

إنه إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس ، سواء كانت تشبيها أو قولا مرسلا ، إن المقصود من المثل - فى القرآن المجيد - تشبيه شئ بشئ فى حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالأخر . ومن هنا قال العلماء : " إن حقيقة المثل إخراج الأغمض إلى الأظهر ". كما قسموه إلى نوعين : " مثل ظاهر : وهو المصرح به ، ومثل كامن : وهو الذى لاذكر للمثل فيه صراحة [1]، وإن كان حكمه حكم المثل .

أنواع الأمثال فى القرآن

والأمثال فى القرآن الكريم يمكن أن تندرج تحت ثلاثة أنواع :

[١] أمثال مصرحة :

وهى ماصرح فيها بلفظ المثل أو مايدل على التشبيه وهى كثيرة فى القرآن الكريم . كقوله عز وجل فى سورة الرعد :" أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ

---

(١) أنظر الإتقان للسيوطى جـ٢ /١٣٢ .

ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُه كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأمَّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً وأمَّا ماينفعُ النَّاسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ ﴾[1]. فقد ذكر الله عز وجل فى هذه الآية مثلين أحدهما مائيا والثانى ناريا للحق والباطل .

فشبه الله عز وجل الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زبدا وغثاء (يعنى رغوة) – فكذلك الهدى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار مافيها من الشهوات والشك ليذهب بها ويبقى مافيها من يقين فيمكث ويبقى وهذا هو المثل المائى (أنزل من السماء ماء.) وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

وذكر المثل النارى فى قوله (ومما يوقدون عليه فى النار ، فعند سبك المعادن تخرج النار مافيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذى يُنتفع به ، فيذهب الخبث جفاء يعنى بعيدا فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها يعنى يبعدها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وذاك الخبث .

فكما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء يعنى بعيدا لاينتفع به ولاترجى بركته ، كذلك يضمحل الباطل عن أهله ، وكما مكث هذا الماء فى الأرض فامرعت وربت بركته وأخرجت نباتها وكذلك المعدن حين أدخل النار فأذهب خبثه كذلك يبقى الحق لأهله .

---

(١) سورة الرعد – الآية ١٧ .

ومثل قوله تعالى في حق المنافقين : " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَايُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ ، أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (١) ".

[٢] أمثال مكمونه :-

وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدل على معان رائعة فى ايجاز يكون لها وقعها إذا نقلت إلى مايشبهها .. ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها :

١ - ما فى معنى قولهم " لايلدغ المؤمن من جحر مرتين " (٢). بمعنى أن المؤمن كيس فطن حذر - ويتمثل فى قوله تعالى على لسان يعقوب لأولاده " قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ " (٣) ، قال لهم يعقوب ، كيف آمنكم على بنيامين ، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لى حفظه ، ثم خنتم العهد ؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه ؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم ، وإنما أثق بحفظ الله تعالى .

٢ - مافى معنى قولهم " خير الأمور الوسط ".

(أ) قوله تعالى فى البقرة : " لَافَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ " (٤).

---

(١) سورة البقرة - الآيات ١٧-١٩ .

(٢) الإتقان جـ٢/١٣٣ .

(٣) سورة يوسف - الآية ٣٤ .

(٤) سورة البقرة - الآية ٦٨.

(ب) قوله تعالى فى النفقة : " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا "(١).

(جـ) قوله تعالى فى الصلاة : " وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا "(٢).

(د) قوله تعالى فى الإنفاق : " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ "(٣)، يعنى كن وسطا فى الإنفاق لاتبذر ولاتقتر .

٣ – مافى معنى قولهم :"كما تدين تدان " ، قوله تعالى : " مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ (٤) ".

٤ – مافى معنى قولهم:" ليس الخبر كالمعاينة ". قوله تعالى فى إبراهيم عليه السلام :" قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " (٥).

[٣] **النوع الثالث من الأمثال :**

أما النوع الثالث من الأمثال : كما وجدناها فى القرآن – فهى الأمثال المرسلة .. ونقصد بها الجمل التى أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه ، فهى آيات جارية مجرى الأمثال . من مثل قوله تعالى : " لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ " (٦) – " وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ " (٧) – " قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ " (٨) – " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " (سورة المدثر ٣٨) – " الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ " (سورة يوسف ٥١) .

---

(١) سورة الفرقان – الآية ٦٧.
(٢) سورة الإسراء – الآية١١٠ .
(٣) سورة الإسراء – الآية ٢٩ .
(٤) سورة النساء – الآية ١٢٣ .
(٥) سورة البقرة – الآية٢٦٠ .
(٦) سورة النجم – الآية ٥٨ .
(٧) سورة فاطر – الآية ٤٣ .
(٨) سورة الإسراء – الآية ٨٤ .

- "قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ " (سورة يوسف ٤١) - " هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ " (سورة الرحمن ٦٠) - " تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى " (سورة الحشر ١٤).

وقد اختلف العلماء فى هذا النوع الأخير من الآيات ، الذى يسمونه إرسال المثل . . ماحكم استعمال الأمثال ؟ فرأى بعضهم أن الاستشهاد به يعد خروجا عن أدب القرآن . قال الرازى فى تفسير قوله تعالى :" لكم دينكم ولى دين " . " جرت عادة الناس أن يتمثلوا بهذه الآية عند التاركة ، وذلك غير جائز ، لأن الله تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به ، بل يتدبر فيه ثم يعمل بموجبه .

ويرى بعض العلماء - أنه لاحرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن فى مقام الجد ، كأن يأسف أسفا شديدا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول :" ليس لها من دون الله كاشفة ".. الإثم الكبير فى أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح (١) .

وإذا كانت الأمثال قد أدرجت تحت ثلاثة أنواع .. فإن لها مضامين عديدة ومفاهيم كثيرة : شاء الحق - جلت حكمته - أن يجعلها زينة لكتابه ، وآية من آيات بيانه التى لاتنتهى ولاتنفد .

---

(١) بلاغة القرآن - لمحمد الخضر حسين - ص ٣٣ .

فوائد الأمثال :-

(١) التذكير والوعظ والحث على الطاعات والزجر عن المعاصى فيما اشتمل منها على تفاوت فىالثواب أو على إحباط عمل أو نحوه .. هذا وللأمثال فوائد أخرى كثيرة .

(٢) إنها تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس فيقبله العقل لأن المعانى المعقولة لاتستقر فى الذهن إلا إذا صيغت فى صورة محسوسة ، قريبة الفهم ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء ، حيث لايحصل من إنفاقه على شئ من الثواب ، فقال تعالى :" فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَايَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَئٍ مِّمَّا كَسَبُوا (١) " ، يعنى كالحجر الصلب إذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فتركه أملسا عاريا .

(٣) ويضرب المثل للترغيب فى الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق فى سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير فقال تعالى :" مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ، واللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢) " – فهو يضاعف الثواب أضعافا مضاعفة لمن يشاء بقدر علمه بإخلاص المنفق لوجه الله تبارك وتعالى .

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢٦٤ .

(٢) سورة البقرة – الآية ٢٦١ .

(٤) كما أن الأمثال ترينا المتخيل فى صورة المتحقق والمتوهم فى معرض المتيقن ، وتصور المعانى بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل كشف المعانى وتشبيه الخفى بالجلى والغائب بالحاضر ، كقوله تعالى :" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً "(١). كالسراب الذى يرى فى الصحراء وهو يلمع فى ضوء الشمس كأنه ماء .

وكقوله تعالى : " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَيَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ " (٢) - يعنى لايقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه يتعثر ويقع .

(٥) كما يضرب المثل للتنفير من أمر أو تحقيره حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس كقوله تعالى:" وَلاَيَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ " (٣) - فما أقذر أكل لحم إنسان ميت لاسيما إذا كان شقيقا وبشرا .

(٦) ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى فى الصحابة :" ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ "(٤).

وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا فى بدء الأمر قليلا ، ثم أخذوا فى النمو حتى استحكم أمرهم ، وامتلأت القلوب إعجابا بعظمتهم .

---

(١) سورة النور - الآية ٣٩ .
(٢) سورة البقرة - الآية ٢٧٥ .
(٣) سورة الحجرات - الآية ١٢ .
(٤) سورة الفتح - الآية ٢٩ .

(٧) ويضرب المثل حيث يكون للمثل بـه صفـة يستقبحها النـاس ، كمـا ضرب الله مثلا لحال من أتاه الله كتابه ، فتنكب الطريق عن العمـل به ، وانحدر فى الدنايا منغمسا . فقـال تعـالى :" وَاتْـــلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشيطَانُ فكَانَ مِنَ الغَاوِينَ . وَلَـوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَـى الأَرضِ واتَّبَـعَ هَـوَاهُ ، فَمَثَلُـهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيهِ يَلْهثْ أَوْ تَـــتْرُكْهُ يَلْهثْ ، ذَّلِكَ مَثَلُ القَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " (١).

(٨) والأمثال أوقع فى النفس وأبلغ فى الوعظ وأقوى فى الزجر وأقوم فى الإقناع وقد أكثـــر الله الأمثال فى القرآن ممتنـا بهـا علينـا للتذكـرة والعبرة فقال :" وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ " (٢) كمـا يستعين بهـا الداعـون والمربون فى كل عصر ومصر لنصرة الحق وإقامة الحجة .

---

(١) سورة الأعراف – الآية ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) سورة إبراهيم – الآية ٤٥ .

الفصل الثالث عشر

الناسخ والمنسوخ

نزلت الشرائع السماوية من الله عز وجل لإصلاح الناس فى ثلاثة أمور. العقيدة والعبادة والمعاملة. فالعقيدة واحدة قائمة على توحيد الله عز وجل ، ولذا فقد إتفقت دعوة الرسل جميعا إليها " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (١) ".

أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق فى الأسس العامة التى تهدف إلى تهذيب النفوس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء ، إلا أن مطالب كل أمة تختلف عن مطالب غيرها ، وما يلائم قوما فى عصر قد لا يلائمهم فى آخر ، ومن ثم تطور التشريع ليتلاءم مع حاجات البشر. وقد وسع الله عز وجل كل شئ رحمة وعلما وهو " لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢) " .. فلا غرابة فى أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد.

---

(١) سورة الأنبياء - الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنبياء - الآية ٢٣.

معنى النسخ :

١ – النسخ فى اللغة :–

النسخ إزالة شئ بشئ يتعقبه [١] ، يعنى يأتى بعده . ومنه قوله عز وجل : " فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ[٢] " ، أى يزيل الله ويبطل ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ، ثم يثبت فى نفس الرسول – عليه السلام – آياته الدالة على الوحدانية والرسالة والبعث والنشور .

ويأتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع ومنه " نسخ الكتاب " ، أى نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر وذلك لا يقتضى إزالة الصورة الأولى بل يقتضى إثبات مثلها فى مادة أخرى [٣] ، فقد نقل ما فيه حاكيا للفظه. ومنه ما فى القرآن الكريم : " إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " [٤] ، كنا نسجل لهم ما يعملون.. والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف، ووجدوا ما عملوا حاضرا.

ويأتى النسخ بمعنى التبديل كقوله عز وجل : " وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ [٥] " [٦]. أى وإذا أنزلنا آية مكان آية وجعلناها بدلا منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها . والله تعالى أعلم بما يصلح حال العباد والبلاد .

---

(١) مفردات الراغب – ص ٥١١ .
(٢) سورة الحج – الآية ٥٢ .
(٣) مفردات الراغب – ص ٥١١ .
(٤) سورة الجاثية – الآية ٢٩ .
(٥) سورة النحل – الآية ١٠١ .
(٦) البرهان للزركشى جـ ٢٩/٢ .

٣ - النسخ في الاصطلاح :

معنى النسخ اصطلاحا : هو : رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي يكون متأخرا عن الأول على وجه لولاه لكان الحكم الأول ثابتا ، وأن يكون هناك تعارض حقيقي بين الدليلين بحيث لا يمكن الجمع بينهما.

ومعنى رفع الحكم الشرعي : قطع تعلقه بأفعال المكلفين ، وهو يختلف عن التخصيص الذى يقصر الحكم على بعض أفراده .

والحكم الشرعي : هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين إما على سبيل الطلب أو الكف (النهى) أو التخيير (الإباحة) . (١)

وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدا بوقت معين أو غاية معينة وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ، ولا يعد هذا نسخا مثل قوله سبحانه : " فَاعْفُواْ واصْفَحُواْ حَتَّىَ يَأْتِيَ اللَّـهُ بِأَمْرِهِ " (٢) - فهذا محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه - فلا تعارض إذن في الأحكام ومن ثم لا نسخ. فالمنسوخ بهذا هو الحكم المرتفع : ويطلق الناسخ على الله تعالى كقوله سبحانه " مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ " (٣) . كما يطلق الناسخ على الآية التى يعرف بها النسخ فيقال هذه الآية ناسخة لآية كذا ، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر كذلك.

---

(١) مناهل العرفان جـ٢/١٧٦ .
(٢) سورة البقرة - الآية ١٠٩ .
(٣) سورة البقرة - الآية ١٠٦ .

ما يقع فيه النسخ :

" لا يقع النسخ إلا فى الأوامر والنواهي " (١) سواء أكانت صريحة فى الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذى بمعنى الأمر أو النهى شريطة ألا يكون ذلك متعلقا بالاعتقادات التى ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته واليوم الآخر وكتبه ورسله ، قال تعالى : " شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ " (٢) ، فهذه أصول عامة فى سائر الشرائع لا يرد فيها النسخ.

كما لا يدخل النسخ الخبر الصحيح الذى ليس بمعنى الطلب ، وكذلك الوعد والوعيد ، فالإخبار بهذه الأمور كان وما يزال صدقا : " وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا " (٣) ، فقوله عز وجل هو الحق والصدق ، فلا تضارب ولا تناقض فيما يخبرنا به من قصص السابقين.

ما به يعرف النسخ وأهميته :

ومما يعين على معرفة الناسخ والمنسوخ طرق منها :

١ - إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ ، والإجماع المعتمد به هو إجماع أهل السنة فى المسائل الصريحة فى نسخها ولا خلاف فيها كالصدقة عند مناجاة الرسول عليه السلام.

---

(١) البرهان للزركشى جـ٢ /٣٣ ، والإتقان جـ٢ /٢١ .
(٢) سورة الشورى – الآية ١٣ .
(٣) سورة النساء – الآية ١٢٢ .

٢ – النقل الصريح عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن صحابي كحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنه يرق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة ".[١]

فزيارة القبور لها بذلك مواعظ وحكم ، فكما يقع النسخ فى الآيات القرآنية يقع كذلك فى الأحاديث النبوية الصحيحة ، فالمتأخر ورودا من الحديث النبوي ينسخ المتقدم فى جزئية التعارض فلا تناقض فى أحكام الشارع قرآنا كان أو سنة.

٣ – معرفة المتقدم من المتأخر فى تاريخ النزول ، ذلك أن المتأخر ينسخ المتقدم.

وتتضح أهمية معرفة الناسخ والمنسوخ مما يأتي :

أ – أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام وفى الاهتداء إلى صحيح الأحكام ، خصوصا إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها ، وناسخها من منسوخها.

---

(١) المستدرك للحاكم ص ٣٧٦ كتاب الجنائز .

ب - أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ ، يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامي ، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشرية ، وابتلائه للناس ، مما يدل على أن نفس سيدنا محمد - النبي الأمي - لا يمكن أن تكون المصدر لمثل هذا القرآن ، ولا المنبع لمثل هذا التشريع. إنما هو تنزيل من حكيم حميد.

ولذلك وردت آثار كثيرة فى الحث على معرفته ، فقد روى أن ابن عباس - رضى الله عنهما - فسر الحكمة من قوله عز وجل : "ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا " بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهة ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه..

وروى أن عليا - كرم الله وجهه - مر على قاض فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال لا . فقال: هلكت وأهلكت. يريد أنه عرض نفسه وعرض الناس للهلاك ، ما دام أنه لا يعرف الناسخ من المنسوخ.

أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام :

القسم الأول : نسخ القرآن بالقرآن

وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ.

أ - ما نسخ حكمه وبقي تلاوته :

كآية الاعتداد بالحول مثلا نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا ، حيث يقول سبحانه : " وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ .. " .[1]

فكانت المرأة إذا مات زوجها لزمت التربص (أى انتظار) [2] - بعد انقضاء العدة حولا كاملا ونفقتها فى مال الزوج ولا ميراث لها وهذا معنى متاعا إلى الحول غير إخراج - نسخ الله تعالى ذلك بقوله : " يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا " [3] يعنى على النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يمكثن فى العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حدادا على أزواجهن ، وهذا الحكم لغير الحامل ، أما الحامل فعدتها وضع الحمل لقوله سبحانه : " وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ " [4]، بمجرد وضع الحمل تنتهى العدة حتى ولو بعد وفاة الزوج بدقيقة واحدة.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٠ .
(٢) المفردات للراغب ص ١٩٠.
(٣) سورة البقرة - الآية ٢٣٤.
(٤) سورة الطلاق - الآية ٤ .

ومن قبيل ما نسخ حكمه مع بقاء تلاوته وصية الميراث :

قال تعالى : " كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ". (١)

وهى تفيد أن الوصية مفروضة على من حضرهم الموت من المسلمين ، وهذه الوصية خاصة بالوالدين والأقربين المذكورين فى الآية . وقد اختلف فى الناسخ لها فقيل : " بآية المواريث وقيل بحديث ألا لا وصية لوارث ، وقيل بالإجماع" (٢) وقيل بهم جميعا وتفصيل ذلك :

– آيات المواريث : التى فى سورة النساء "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ " (آية ١١) ، وقوله : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ " (آية ١٢) ، وقوله : "يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ " (آية ١٧٦) ، يعنى فى شأن الميت إذا لم يكن له والد أو ولد من يرثه ؟ ثم يبين الله تعالى ذلك إجابة على طلبهم الفتوى فى هذه المسألة الفقهية .

– السنة : لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ولا وصية لوارث " (٣) ، حيث حدد الشارع لكل نصيب ، اللهم إلا إذا كان هناك تراض بالمعروف لظروف إنسانية .

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٨٠ .

(٢) الإتقان للسيوطى جـ٢ / ٢٢ .

(٣) سنن النسائي جـ٦ / ٢٤٧ باب إبطال الوصية للوارث .

- الإجماع على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين ، وذكر ابن كثير رأى ابن عباس أن هذه الآية نسخت [١] .

قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لايرثان والأقرباء الذين لايرثون جائزة . وقد أخذ القانون برأى القائلين بجوازها للوارث . فهى تصح بالثلث للوارث وغيره وتنفذ من غير إجازة الورثة ، وتصح بما إذا زاد على الثلث ولاتنفذ فى الزيادة إلا بإجازة الورثة إجازة قانونية وبالتراضى حتى تكون النفوس راضية .

ب - ما نسخ تلاوته وبقى حكمه :

ويعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول ، ويدل على وقوعه ما صحت روايته عن عمر بن الخطاب وأبى بن كعب أنهما قالا : " كان فيما أنزل من القرآن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة " [٢] - ولم يعد لها وجود بين دفتي المصحف ولا على ألسنة القراء مع أن حكمها باق لم ينسخ كما فى فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وحديث الشيخ والشيخة إذا زنيا رواه ابن حنبل : " قال زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة " [٣] ، يعنى الرجم والرمى بالحصا والحجارة حتى الموت .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢١١/٧ .

(٢) البرهان للزركشى جـ٢ ص٣٥ ، وتفسير ابن كثير جـ٣ ص٢٦١ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٥ ص١٨٣.

وكما ورد ذلك فى البخاري " .. فقال الأعرابي إن ابنى كان عسيفا[١] على هذا فزنى بامرأته .. وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام وأما أنت يا أنيس فاغد على امرأة هذا فارجمها فغدا عليها أنيس فرجمها " [٢].

جـ - نسخ التلاوة والحكم معا :

يعنى أن نص الآية رفع ، كما أن حكمها أزيل كذلك - ومثاله ما روى "عن عائشة قالت كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن " [٣].

ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدا حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآنا متلوا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلما بلغهم النسخ بعدها رجعوا عن ذلك ، فجاءت المصاحف العثمانية خالية منها .

" وقال أبو موسى الأشعرى نزلت ثم رفعت ، وقال مكى هذا المثال

---

(١) والعسيف هو الأجير : المصباح المنير جـ٢ ص٦٢٦.

(٢) صحيح البخاري جـ٩ ص٩٤ كتاب الأحكام باب رقم ٣٩ - هل يجوز للحاكم أن يبعث رجلا وحده للنظر فى الأمور (حديث رقم ١)عن أبى هريرة .

(٣) صحيح مسلم جـ٢ / ١٠٧٥ كتاب الرضاع باب التحريم بخمس رضعات .

فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضـا غير متلو ولا أعلم لـه نظير "[١] ، يعنـي لا شبيه لهذه الحالة . وفى حالة نسخ التـلاوة ، فـلا يجوز القراءة بها ، فلم تعد قرآنا يقرأ. ويلاحظ أن مسألة عدد الرضعات المحرمات فيها خلاف فقهي وموضعه فى كتب الفقه.

القسم الثاني : نسخ القرآن بالسنة :

وتحت هذا نوعان :

(أ) نسخ القرآن بالسنة الأحاديـة . والجمهور على عدم جوازه . لأن القرآن متواتر يفيـد اليقين ، والأحادى مظنون ، ولا يصـح رفـع المعلوم بالمظنون.

(ب) ونسخ القرآن بالسنة المتواترة . وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد فـى روايـة ، لأن الكـل وحى . قـال تعـالى : "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ".[٢] وقال : "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ " [٣] ، والنسخ نوع من البيان - ومنعه الشافعى وأهل الظاهر وأحمد فى الرواية الأخرى ، لقوله تعـالى : " مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا " [٤]، والسنة ليست خيرا من القرآن ولا مثله .

---

(١) الإتقان جـ٢ / ٢٢ .

(٢) سورة النجم - الآية ٣، ٤.

(٣) سورة النحل - الآية ٤٤ .

(٤) سورة البقرة - الآية ١٠٦.

القسم الثالث : نسخ السنة بالقرآن :

ويجيزه معظمهم لأن السنة وحى والقرآن وحى ولا مانع من نسخ وحى بوحى لمكان التكافؤ بينهما كما أن الوقوع دليل على الجواز ، ومنها أن استقبال بيت المقدس فى الصلاة لم يعرف إلا من السنة وقد نسخه قوله تعالى : "فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ(١) " (٢).

فأينما تكونوا فى أى مكان من الأرض أو فى أى وقت من أوقات الصلاة فتوجهوا صوب المسجد الحرام فى مكة .

القسم الرابع : نسخ السنة بالسنة :

وقد أجازه علماء الحديث ، وتحت هذا أربعة أنواع :

١ - نسخ متواترة بمتواترة . ٣ - ونسخ آحاد بمتواترة .

٢ - ونسخ آحاد بآحاد . ٤ - ونسخ متواترة بآحاد .

والثلاثة الأولى جائزة - أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد فى نسخ القرآن بالسنة الأحادية ، والجمهور على عدم جوازه .

أما نسخ كل من الاجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه .

---

(١) سورة البقرة - الآية ١٤٤ .

(٢) مناهل العرفان للزرقانى جـ٢ / ٢٤٥ .

حكمة النسخ :

١ - مراعاة مصالح العباد .

٢ - إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب ، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر .

٣ - ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه .

٤ - تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس .

تقسيم النسخ إلى بدل وإلى غير بدل :

فالحكم الشرعي الذى ينسخه الله تعالى إما أن يحل محله حكما آخر أو لا ، فإذا أحل محله حكما آخر ، فذلك هو النسخ ببدل ، وإذا لم يحل محله حكما آخر ، فذلك هو النسخ بغير بدل " وكلاهما جائز عقلا وواقع سمعا على رأى الجمهور " [١] لما ورد من أمثلة فى هذا الصدد .

١ - **فالنسخ إلى غير بدل :** كنسخ الصدقة بين يدى نجوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً " [٢] ، نسخت بقوله : " ءأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ " . [٣]

---

(١) مناهل العرفان جـ٢ / ٢٢٠ .
(٢) سورة المجادله - الآية ١٢ ..
(٣) سورة المجادله - الآية ١٣ .

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك ، وقالوا : إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعا ، لأن الله تعالى يقول : " مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا " (١) ، حيث أفادت الآية أنه لا بد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله .

ويجاب عن ذلك : بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته ، رعاية لمصلحة عباده ، فيكون عدم الحكم خيرا من ذلك الحكم المنسوخ فى نفعه للناس ، ويصح حينئذ أن يقال : إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيرا للناس .

وهذا من قبيل "نسخ المأمور به قبل امتثاله وهو النسخ على الحقيقة كأمر الخليل إبراهيم بذبح ولده إسماعيل (٢) بعد أن بلغ معه السعى امتحانا ".

وهذا النوع هو كذلك من قبيل ما نسخ حكمه مع بقاء تلاوته فالتلاوة ما زالت باقية . وهذا النسخ بغير بدل بمقتضى الحكمة رعاية لمصلحة العباد ويصح أن يقال فيها إنه نسخ حكم الآية بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيرا للناس وتيسيرا وتخفيفا عليهم.

٢ - **النسخ إلى بدل : فيكون إما إلى بدل أخف ، وإما إلى بدل مماثل ، أو إلى بدل أثقل .**

---

(١) سورة البقرة - الآية ١٠٦ .

(٢) البرهان جـ٢ / ٤١ .

فالنسخ إلى بدل أخف :

يمثلون له بقوله تعالى : " أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ " (١) .. الآية – فهى ناسخة لقوله : " كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ " (٢) ، لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الطعام والشراب والنساء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية ، كما ذكروا ذلك . فقد ورد عن ابن عمر أنه قال : أُنزلت . " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ " (٣) ، كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها – فأنزل الله عز وجل " أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ " (٤)، يعنى جماعهن ليلا .. وهذا تخفيف من ربنا ورحمة لنشكره على ذلك . (٥)

أما النسخ إلى بدل مماثل للحكم الأول فى خفته أو ثقله على نفس المكلف :

فيمثلون له بنسخ وجوب استقبال بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة فى قوله عز وجل : " قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (٦) " (٧) . فكلا الأمرين سواء بالنسبة للمكلف ولكنه امتحان للامتثال والثواب .

(١) سورة البقرة – الآية ١٨٧ .
(٢) سورة البقرة – الآية ١٨٣ .
(٣) سورة البقرة – الآية ١٨٣ .
(٤) سورة البقرة – الآية ١٨٧ .
(٥) الإتقان السيوطى جـ٢ / ٢٢ .
(٦) سورة البقرة – الآية ١٤٤ .
(٧) الناسخ والمنسوخ للسيوطى ص٨

والنسخ إلى بدل أثقل :

ومنه أن حد الزنى كان فى فجر الإسلام لا يعدو التعنيف والحبس فى البيوت بقوله سبحانه : " وَالَّلاتِى يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ " (١) – ثم نسخ ذلك بالجلد والنفى فى حق البكر وبالرجم فى حق الثيب بقوله تعالى : "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ " (٢) ويشهدهما الشهود – وقوله فى الرجم : " الشيخ والشيخة إذا زينا فارجموهما البتة " – وهذه الآية أيضا قد نسخ لفظها وبقى حكمها (٣) مطبقا بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وفى الحديث : "اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمت " . (٤)

وهذا الحكم الأثقل للردع ففيه كذلك المصلحة للمجتمع ولتنظيمه وأمنه وأمانه وتخويف لكل من تسول له نفسه بمثل هذه الجريمة الشنعاء .

---

(١) سورة النساء – الآية ١٥ .

(٢) سورة النور– الآية ٢ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ / ٢٦١ ، البرهان جـ٢ / ٣٠٥ .

(٤) صحيح البخاري جـ٢ / ٩٧١ باب الشروط حديث رقم ٢٥٧٥ .

أمثلة للنسخ :

ذكر السيوطى فى كتابه (الإتقان) عدد من الآيات اعتبرها من قبيل النسخ نذكر منها :

قوله عز وجل : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ " (١) ، نسخت بقوله : " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " (٢) ، وقيل : يحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحرم .

وقوله سبحانه : " وَإِن تُبْدُواْ مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ " (٣) ، نسخت بقوله : " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " . (٤)

وقوله : " وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُواْ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ " (٥) نسخت بآية المواريث .

وقوله : " وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ " (٦) ، نسخت بقوله : " فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ " (٧) ، لما فى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت " وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين " ، كان من أراد أن يفطر يفتدى ، حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها .

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢١٧ .
(٢) سورة التوبة – الآية ٣٦ .
(٣) سورة البقرة – الآية ٢٨٤ .
(٤) سورة البقرة – الآية ٢٨٦ .
(٥) سورة النساء – الآية ٨ .
(٦) سورة البقرة – الآية ١٨٤.
(٧) سورة البقرة – الآية ١٨٥ .

وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة : روى البخارى عن عطاء أنه سمع ابن عباس – رضى الله – عنهما يقرأ : " وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين " ، قال ابن عباس : " ليست بمنسوخة . هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان كل يوم مسكينا"– وليس معنى (يطيقونه) على هذا : يستطيعونه ، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة . وبعضهم جعل الكلام على تقدير (لا) النافية ، أى : وعلى الذين لا يطيقونه .

وقوله : " انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا " [1]، نسخت بقوله : " لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ " ... الآية[2]، وبقوله : " وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً "... الآية[3] .

وقوله : " إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ " [4] ، نسخت بقوله : " الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ" [5] .

وقوله : " وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ، فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ

---

(١) سورة التوبة – الآية ٤١ .

(٢) سورة التوبة – الآية ٩١ .

(٣) سورة التوبة – الآية ١٢٢.

(٤) سورة الأنفال – الآية ٦٥ .

(٥) سورة الأنفال – الآية ٦٦ .

لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا " (١)، نسختا بآية الجلد للبكر فى سورة النور :

" الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ " (٢)، وبالجلد للبكر وبالرجم للثيب الوارد فى السنة : " ... البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم " . (٣)

وقوله : " وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ " (٤)، نسخت بقوله : " وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا " (٥).

وقيل إن الآية الأولى محكمة لأنها فى مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج ، أما الثانية فهى لبيان العدة ، ولا تنافى بينهما .

---

(١) سورة النساء – الآية ١٥ ، ١٦.

(٢) سورة النور – الآية ٢ .

(٣) رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت .

(٤) سورة البقرة – الآية ٢٤٠ .

(٥) سورة البقرة – الآية ٢٣٤ .

الفصل الرابع عشر

مناسبة فواتح السور لمضمونها

قال أهل البيان : من البلاغه حسن الابتداء ، ومنها أيضا حسن الانتهاء . فحسن الابتداء أن يتأنق فى أول الكلام ، لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن أقبل السامع على الكلام وعاه ، وإلا أعرض عنه ، ولو كان باقى الكلام فى غاية الحسن ، لذا ينبغى أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله ، وأسلسه ، وأحسنه نظما وسبقا ، وأوضحه وأصحه معنى ، وأخلاه من التعقيد ، فإذا إشتمل على إشارة إلى المقصود سمى براعة استهلال .

أما حسن الانتهاء فهو : أن يختم الكلام بأحسن الخواتم ، إذ هى آخر ما يبقى فى الأسماع ، وربما حفظت من بين سائر الكلام ، لقرب العهد بها ، فينبغى أن تكون غاية فى الجودة ، وألا يكون هناك سبيل للزيادة عليها ، ولا يؤتى بعدها بأحسن منها فى حلاوتها ، وعذوبتها ، ورصانتها ، وقوتها ، وجزالتها ، وفخامتها ، مع تضمنها معنى تاما ، يؤذن السامع بأنه الغاية والنهاية ، فإن دل على ما يشعر بالانتهاء ، سمى براعة مقطع[1].

---

(١) انظر الطراز للعلوي جـ٣ / ٢٦٦ ، والإتقان جـ٣ / ٣٦٣ ، والإيضاح ص٣٠٢ وما بعدها .

وإذا تأملنا سور القرآن الكريم ، ومفرداتها ، أدركنا أن جميع فواتحها وخواتمها واردة على أكمل وجوه البلاغة ، وأحسنها ، مع تضمنها للمعاني البديعة والأسرار العجيبة .

فمن هذه الوجوه : إفتتاح السور بالحروف المقطعة ، واختصاص كل واحدة بما بدئت ، حتى لم يكن من الممكن أن توضع (الم) فى موضع (الر) ، ولا (حم) فى موضع (طس) وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها ، فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له ، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها ، فلو وضع (ن) موضع (ق) لعدم التناسب الواجب مراعاته فى كلام الحق سبحانه ، فسورة (ق) بدئت به ، لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ (القاف) ، من ذكر القرآن ، والخلق ، وتكرير القول ، ومراجعته ، مرارا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقى الملكين ، وقول العتيد ، والرقيب ، والسائق ، والإلقاء فى جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، والقلب ، والقرون ، والتنقيب فى البلاد ، وتشقق الأرض ، وحقوق الوعيد ، وغير ذلك .

واشتملت سورة (ص) على خصومات متعددة ، فأولها : خصومة النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار ، وقولهم : " أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً " [1]، ثم اختصام الخصمين عند داود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى ، ثم تخاصم إبليس فى شأن آدم ، ثم فى شأن بنيه وإغوائهم .

---

(١) سورة ص – الآية ٥ .

وسورة (الأعراف) زيد فيها (الصاد) على (الم) ، لما فيها من شرح القصص ، قصة آدم ، فمن بعده من الأنبيـــاء ، ولما فيها من ذكر (فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ) [١]، ولهذا قال بعضهم : معنى (الٓمٓصٓ) : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) . [٢]

وقد تكرر فى سورة (يونس) من الكلمات الواقع فيها (الراء) مائتا كلمة ، أو أكثر ، فلهذا أفتتحت بـ (الر) . و(الم) جمعت المخارج الثلاثة : الحلق ، واللسان ، والشفتين على ترتيبها ، وذلك إشارة إلى البداية التى هى بدء الخلق ، والنهاية التى هى بدء الميعاد ، والوسط الذى هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهى ، وكل سورة أفتتحت بها ، فهى مشتملة على الأمور الثلاثة .

وزيد فى سورة (الرعد) راء ، لأجل قوله : (رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ)[٣] ، ولأجل ذكر الرعد ، والبرق ، وغيرهما[٤] .

ومن هذه الوجوه :

– مناسبة مطلع السورة للمقصد الذى سيق الكلام لأجله ، فسورة الفاتحة التى هى مطلع القرآن ، مشتملة على جميع مقاصده ، ولذلك كان من أسمائها : أم الكتاب ، وأم القرآن ، والأساس [٥] ، فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال .

---

(١) سورة الأعراف – الآية ٢ .
(٢) سورة الشرح – الآية ١.
(٣) سورة الرعد – الآية ٢ .
(٤) انظر الإتقان جـ٣ / ٣٨٤ .
(٥) انظر الكشاف جـ١ / ٢٣ .

ولبيان إشتمال فاتحة الكتاب على علوم القرآن يقرر الزمخشرى ، اشتمالها على الثناء على الله عز وجل بما هو أهله ، وعلى التعبد ، والأمر والنهى ، وعلى الوعد والوعيد ، وآيات القرآن الكريم لا تخرج عن هذه الأمور . (١)

وقال البيضاوى : " هى مشتملة على الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء . (٢)

وقال صاحب مفاتيح الغيب : " المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة الإلهيات ، والمعاد ، والنبوات ، وإثبات القضاء والقدر" ، فقوله : "الحمد لله رب العالمين " يدل على الإلهيات ، وقوله " مالك يوم الدين " يدل على نفى الجبر ، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره ، وقوله : " اهدنا الصراط المستقيم " إلى آخر السورة ، يدل على إثبات قضاء الله ، وعلى النبوات ، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة ، التى هى المقصد الأعظم من القرآن . (٣)

فنبه فى الفاتحة على جميع مقاصد القرآن ، وهذا هو الغاية فى براعة الاستهلال ، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة ، والمقاطع المستحسنة ، وأنواع البلاغة .

---

(١) السابق ، نفس الصحيفة .

(٢) انظر تفسير البيضاوى جـ١ / ٣٥ بحاشية الشهاب الخفاجى.

(٣) انظر مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين جـ١ / ٦٥.

وكـذلك اشتملت سورة العلق على نظيرما اشتملت عليـه سـورة الفاتحة ، من براعة الاستهلال ، لكونها أول ما نـزل من القرآن . ففيها الأمر بالقراءة ، والبداءة فيها باسم الله، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب عز وجل ، وإثبات ذاته وصفاتـه ، من صفة ذات ، وصفة فعل . وفى ذلك إشارة إلى أصول الدين ، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله عز وجل : " عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " . (١)

ولهذا قيل : إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن ، لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده ، بعبارة وجيزة فى أوله (٢) " .

وتأمل سورتي (الإسراء والكهف) ، وما فى مطلع كل منهما من براعة الاستهلال التى أربـت على كل غاية ، وفاقت كل بيان ، لقد افتتحت سورة الإسراء بالتسبيح ، والكهف بالتحميد ، لأن سورة الإسراء لما اشتملت على (الإسراء) الذى كذب المشركون به النبي صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبه تكذيب لله تعالى ، أتى بـ (سبحان) لتنزيه الله تعالى عما نسب إلى نبيه من الكذب . وسورة (الكهف) لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف ، وتأخر الوحى ، نزلت مبينة أن الله تعالى ، لم يقطع نعمته عن نبيه ، ولا عن المؤمنين ، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب ، فناسب افتتاحها بالحمد على هـذه النعمة . (٣) فافتتاح كل واحدة من السورتين مخالف للأخرى ، لكنه مناسب لما يريد ذكره من كل منهما من الأغراض والمقاصد التى ضمنها فيهما .

---

(١) سورة العلق – الآية ٥ . (٢) انظر الإتقان جـ٣ / ٣٦٤. (٣) السابق – ص٣٨٧.

وتأمل سورة (الحج) وما فيهـا من المناسبة العجيبة فى الافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، لقد تضمنت ذكر البعث ، والاحتجاج عليه ، والنعى على منكريه ، فافتتحت بما يلائم ذلك ، ويناسبه ، وهو قوله تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ " (١).

وانظر إلى سورة النساء ، لقد افتتحت بقوله عز وجل : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " . (٢)

تأمل هذه المناسبة العجيبة فى الافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما فى أكثر السورة من أحكام : من نكاح النساء ، ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام ، وأن ابتداء هذا الأمر ، كان بخلق آدم ، ثم خلق زوجه منه ، ثم بث منهما رجالا ونساء فى غاية الكثرة . (٣)

وتأمل سورة (التوبة) ، وما فيها من براعة الاستهلال التى تسحر الألباب ، لقد افتتحت بقوله : " بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ " (٤)، لأن الله تعالى ، لما أراد شهر السيف ، وأذن

---

(١) سورة الحج – الآية ١.
(٢) سورة النساء – الآية ١.
(٣) انظر الطراز للعلوي جـ٢ / ٢٦٩.
(٤) سورة التوبة – الآية ١.

للرسول فى القتال ، وكان بينه وبين ناس من العرب عهود واحلاف ، صدر هذه السورة بذكر البراءة لما أراده من قطع تلك العهود ، ونبذها ، فافتتاحها مناسب لما يريد ذكره فيها من المباينة وشن الغارات ، وسل السيف .[1]

-ومن هذه الوجوه: مناسبة فواتح السور لخواتمها :-

فأنت إذا تتبعت جميع سور القرآن ، رأيت فواتحها فى غاية المناسبة لخواتمها . أنظر مثلا إلى سورة (القصص) كيف بدئت بأمر موسى ، ونصرته ، وقوله : " فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ "[2] ، وخروجه من وطنه ، وختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بألا يكون ظهيرا للكافرين ، وتسليته عن إخراجه من مكة ، ووعده بالعودة إليها ، لقوله فى أول السورة : " إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ "[3] .

وانظر إلى سورة القلم ، كيف بدئت بقوله : " مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ "[4] ، وختمت بقوله : " إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ "[5] .

وانظر كذلك إلى سورة (ص) فقد بدئت بالذكر : " والْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ "[6] ، وختمت به : " إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ "[7] .. وهكذا جميع سور القرآن الكريم .

---

(١) انظر الطراز جـ٢ / ٢٦٩ ، ٢٧٠.
(٢) سورة القصص – الآية ١٧.
(٣) سورة القصص – الآية ٧.
(٤) سورة القلم – الآية ٢.
(٥) سورة القلم – الآية ٥١ .
(٦) سورة (ص) – الآية ١ .
(٧) سورة (ص) – الآية ٨٧ .

ومن هذه الوجوه : أن الله قد ختم كل سورة من سور القرآن بأحسن ختام ، وأتمها بأعجب إتمام ، ختاما يطابق مقصدها ، ويؤدى معناها ، من أدعية ، ووصيا ، وفرائض ، وتحميد ، وتهليل ، ومواعظ ، ووعد ، ووعيد ، إلى غير ذلك من الخواتم الرائقة ، كتفصيل جملة المطلوب فى خاتمة الفاتحة ، إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببة لغضب الله والضلال ، ففصل جملة ذلك بقوله : " الذين أنعمت عليهم " ، والمراد المؤمنون ، ولذلك أطلق الأنعام ، ولم يقيده ، ليتناول كل أنعام لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان فقد أنعم عليه بكل نعمة لأنها مستتبعة لجميع النعم ، ثم وصفهم بقوله : " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " ، يعنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ، وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله تعالى ، والضلال المسببين عن معاصيه ، وتعدى حدوده .

وكالدعاء الذى اشتملت عليه الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة . وكالوصايا التى ختمت بها سورة آل عمران :" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [1].

والفرائض التى ختمت بها سورة النساء : " يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٢٠٠ .

إِخوة رِجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شئ عليم (١) ".

وكالتعظيم والتبجيل الذى ختمت به سورة المائدة : " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ... لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شئ قدير (٢) ".

وكالوعد والوعيد الذى ختمت به سورة الأنعام فى قوله تعالى : " وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (٣) " .

وكالحض على العبادة بوصف حال الملائكة الذى ختمت به سورة الأعراف ، قال تعالى : " واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون (٤) " .

وكالتحريض على الجهاد ، وصلة الأرحام الذى ختمت به سورة الأنفال ، قال عز وجل : " والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شئ عليم (٥) " .

---

(١) سورة النساء – الآية ١٧٦ .
(٢) سورة المائدة – الآيات ١١٨ – ١٢٠.
(٣) سورة الأنعام – الآيات ١٦٥.
(٤) سورة الأعراف – الآية ٢٠٥ ، ٢٠٦.
(٥) سورة الأنفال الآية ٧٥.

وكوصف الرسول – عليه السلام – ومدحه ، والتهليل الذى ختمت به براءة فى قوله تعالى : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ . فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(١) " .

وعموما فإن جميع سور القرآن الكريم قد ختمت بأحسن ختام يطابق مقصدها ، ويؤدى معناها .

ومن أوضح ما أذن بالختام خاتمة سورة الحجر : " وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٢) "، وهو مفسر بالموت ، فإنها فى غاية البراعة.

ومثلها خاتمة سورة إبراهيم :" هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(٣) ".

وانظر إلى براعة آخر سورة نزلت ، وهى سورة النصر ، وما فيها من الإشعار بالوفاة ، كما أخرج البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ، أنه قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم تدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم ، ثم دعاهم ذات يوم ، فقال : ما تقولون فى قول الله : " إذا جاء نصر الله والفتح ؟" ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ، ونستغفره ، إذا نصرنا ، وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به ، قال : " إذا جاء

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ ، ١٢٩.   (٢) سورة الحجر الآية ٩٩ .   (٣) سورة إبراهيم الآية ٥٢.

نصر الله والفتح"، وذلك علامة أجلك ، " فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا " ، فقال عمر : إنى لا أعلم منها إلا ما تقول .

وكذلك آخر آية نزلت ، وهى قوله عز وجل : " وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[١] " . فيها الأشعار بالآخرية المستلزمة للوفاة[٢] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨١.

(٢) انظر الإتقان جـ٣ / ٣٦٧.

الفصل الخامس عشر

مناسبة فاتحة كل سورة لخاتمة ما قبلها

يتميز القرآن الكريم بخصائصه الدالة على كماله ، ومنهـا ذلك الربط العجيب بين فاتحة كل سورة من سورة وخاتمة ما قبلها مع الإبانة الواضحة ، وتجلى العظمة الأدائية فى الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم .

ووجه المناسبة بين آخر فاتحة الكتاب " أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين " .

وأول سورة البقرة " الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين". أن فى ختام الفاتحة طلب الهداية من الله عز وجل لاتباع سبيل المستقيمين المنعم عليهم برضاه دون المطرودين من رحمته لعدم إتباع دينه بتكذيب نبيه الذى أتى بكتابه المنير ، لكن المنكرين كانوا تائهين مغطى على عيونهم ولم يبصروا نوره .

ولما كان القصد الاعتراف بأن الكتاب المنزل (دليل العقيدة) ارتبط القول بأنه لاشك فيه بل هو مرشد الذين يمتثلون أوامر الله عز وجل ، ويجتنبون نواهيه . وقال ابن عباس – رضى الله عنهما – إن المراد بالصراط المستقيم هو (القرآن) بدليل قوله عز وجل : " وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه " . فأوائل سورة البقرة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ، لأن الله عز وجل لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه .

ثم أنه ذكر فى أوائل سورة البقرة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم فى الفاتحة . فذكر الذين على هدى من ربهم ، وهم المنعم عليهم ، والذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم الضالون . والذين باءوا بغضب من الله ، وهم المغضوب عليهم .

ووجه المناسبة بين ختام سورة البقرة :-

بقوله عز وجل : " رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا . رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فانصُرنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ[1] "، وقوله سبحانه فى أول سورة آل عمران : " الٓمٓ . اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ[2] " .

أنه لما كانت النصرة على القوم الكافرين آخر الدعاء . لأنهم كانوا معاندين يرون الحق فيجادلون بالباطل . ويبصرون الدلائل فيتعامون عنهما حتى ألغوا عقولهم وبعدوا عن المنطق ، فلم تبق سوى قدره الله عز وجل فى تولى أمرهم ، ويؤتى عباده المخلصين القدرة على قهرهم .

فقد أفتتحت سورة آل عمران بقوله تعالى : " الم " : " الله لا إله إلا هو الحى القيوم " ، وفيه دليل التعجيز مع الإقرار بالوحدانية لله ـ عز وجل ـ والتنوية بالكتاب العزيز الذى كان موضوع إنكارهم على موافقة ما جاء فيه للكتب السماوية . بل يزيد عليها بالتشريع الصالح لكل زمان ومكان .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦

(٢) سورة آل عمران الآية ٢،١.

وهذا الافتتاح فيه أبلغ رد على طلب الولاية منه للنصرة على الكافرين مع إثبات الألوهية . ثم التوكيد بالأسلوب الرائع (لا إله إلا هو) فى القصر الموحى بعدم تعدى الربوبية إلى سواه . لأنه متصف بكل كمال من حيث البقاء والدوام . فلا يصح عليه الموت دون كل كائن ، ومن حيث القيام بذاته،والقيام بتدبير شئون خلقه فى ملكه الواسع اللائق بعلمه الذى لا حدود له .

وكافتتاح سورة النساء فإنه فى غاية المناسبة لما ختمت به سورة آل عمران:-

فقد افتتحت النساء بالأمر بالتقوى : قال تعالى : " وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً[1] " . وختمت آل عمران بذلك الأمر : حيث قال تعالى : "وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [2] "، وهذا من أكبر وجوه المناسبات ، وهو نوع من البديع يطلق عليه تشابه الأطراف .

ومن عجيب التوافق أن يكون مفتتح سورة النساء ـ وهى الرابعة من نصف القرآن ـ متفق مع مفتتح سورة الحج ـ وهى الرابعة من النصف الثاني ـ وإن كان الأمر فى الأولى لما فيه قوام الحياة . والأمر فى الثانية لما فى الآخرة : " يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم " .

---

(١) سورة النساء – الآية ١.

(٢) سورة آل عمران – الآية ٢٠٠.

والتفضل بالخلق من العدم موجب للخضوع مع الإعتراف بالشكران على هذا الإنعام . على أن وجودنا من نفس واحده دلالة على القدرة الموجبة للإنقياد إلىالله عز وجل ، وفى قوله (مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) إشارة إلى وحدة الأصل وإن اختلف الجنس واللون . كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عندالله أتقاكم .

المناسبة بين آخر سورة النساء وأول سورة المائدة :-

فقد ختمت سورة النساء بقوله عز وجل : " يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شئ عليم " .

وقال سبحانه فى أول سورة المائدة : " يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ . إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ[1] " .

فجاء فى ختام سورة النساء بما يدل على توضيح الأحكام فيما يحقق مصالح العباد ، وتنظيم حياتهم ومعاملاتهم ، وحقوق غيرهم بعد موتهم ، فقال عز وجل : " يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شئ عليم ". والتذييل آخر الآية بالكلية التى يحيط علمه بها دليل على أنه الواحد المتفرد بالمعرفة ، وأن القوانين البشرية لم توضع إلا فى ضوء تعاليمه القويمة الجليلة .

---

(١) سورة المائدة – الآية ١.

وجاء مفتتح سورة المائدة متلاقيا مع القيام بما أوجبه حيث قال سبحانه: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ... إلى قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ". وأورد فى السورة ثمانى عشرة فريضة ، ولما جاء فى سورة النساء بأحكام تتصل بالميراث ، وكان فى تطبيقها عهد موثق يجب أن يحاط بالخوف من عدم أدائه وبخاصة فى اليتامى أكد الله عز وجل على القيام به على أكمل وجه مع التوقى من المخالفة ، ونهى عن ضم أموال اليتامى إلى أموال القائمين على رعايتهم ، فقال سبحانه : " ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم " .

ففى التعبير بقوله " تأكلوا أموالهم " دون تضموا أموالهم ، وضمنه معناه ، لأن فى الأكل تقبيحا مشيرا إلى أنهم " يأكلون فى بطونهم نارا " ، هذا فى حال الاستغناء ، أما عند الحاجة فحلل الله عز وجل الأكل بالمعروف ، وفى هذا التلاقي العجيب اتساق متماسك .

وإن الوفاء بما توثق بين العباد وخالقهم ، أو بينهم وبين أنفسهم دليل على الإيمان الحقيقي فى التطبيق . كما أن التعبير بقوله عز وجل : (أوفوا) دون (أدوا) فيه إشارة إلى الكمال فيما يراد على وجه يشعر بالطاعة من دون تقصير فى أى جانب من الجوانب . والله تعالى أعلم .

المناسبة بين آخر سورة المائدة وأول سورة الأنعام:

فقد ختمت سورة المائدة بقوله عز وجل : " لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ (١) " .

(١) سورة المائدة – الآية ١٢٠ .

وقال عز وجل فى أول سورة الأنعام : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) " .

وذلك فى غاية المناسبة لأن المائدة ختمت بفصل القضاء ، والأنعام افتتحت بالحمد ، وهما متلازمان ، كما قال تعالى فى سورة الزمر : " وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ".

ولأنه لما ذكر فى آخر المائدة : " لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شئ قدير" ، على سبيل الإجمال ، افتتح الأنعام بشرح ذلك وتفصيله .

فبدأ بذكر : أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله : (وما فيهن) فى آخر المائدة ، وضمن قوله : (الحمد لله) أول الأنعام ، أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) فى آخر المائدة .

ثم ذكر : أنه خلق النوع الإنساني ، وقضى له أجلا مسمى ، وجعل له أجلا آخر للبعث ، وأنه منشئ القرون ، قرنا بعد قرن ، ثم قال : " لِمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ " (٣) ، فأثبت له ملك جميع المنظورات . ثم قال : " وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ " (٤) ، فأثبت له ملك جميع المظروفات .

---

(١) سورة الأنعام – الآية ١ .
(٢) سورة الزمر – الآية ٧٥.
(٣) سورة الأنعام – الآية ١٢ .
(٤) سورة الأنعام – الآية ١٣.

ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان ، من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر فى أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن ، من النيرين ، والنجوم ، وفلق الإصباح ، وخلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات ، والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات ، وغير معروشات ، والأنعام . وكل ذلـــك تفصيل لملكه فيهن [١].

فقد كان الربط عجيبا بين آخر سورة المائدة وأول سورة الأنعام قال ــ جل وعلا ــ : "الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور" ، من حيث تلاقى الملك والقدرة مع السموات والأرض ؛ فالملكية تقتضى التصرف المطلق فى أن يجعل نهارا وليلا للمعاش والسكن ، وكان فى قدرته أن يجعل الكون كله ليلا أو نهارا لكنه " واحد " فى تصرفه ، مما يدل على دفع الشريك عنه فى صورة قاطعة لا تقبل الجدل والمكابرة .

ولما كان الملك ــ ثابتا ــ لله وحده ــ وتقديم الجار والمجرور للاختصاص أردف ذلك بالحمد ليعترف كل بصير بقدرته اعترافا يتم بنور بصيرته ، والله أعلم .

المناسبة بين آخر سورة الأنعام وأول سورة الأعراف :

إن افتتاح سورة الأعراف مناسب لما ختمت به سورة الأنعام ، لأنه لما تقدم فى أواخر سورة الأنعام قوله عز وجل : " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِـــى

---

(١) أنظر أسرار ترتيب القرآن للسيوطى تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط. دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٨ م.

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ... (١) " ، وقوله سبحانه : " وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ... (٢) " ، افتتح سورة الأعراف أيضا باتباع الكتاب فى قوله سبحانه : " كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلمُؤمِنِينَ . اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيكُم مِّن رَّبِّكُمْ ... (٣) " .

وأيضا لما تقدم فى أواخر الأنعام قوله " ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفعَلُونَ (٤) "، وقوله : " ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " (٥) ، قال فى مفتتح سورة الأعراف : " فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرسِلَ إِلَيهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِينَ . فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيهِم بِعِلمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ " (٦) ، وذلك شرح التنبئة المذكورة .

وأيضا لما قال فى أواخر سورة الأنعام : " مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. " (٧)، وذلك لا يظهر إلا فى الميزان ، افتتح سورة الأعراف بذكر الوزن ، فقال : " وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ .. " (٨)، ثم ذكر من ثقلت موازينه ، وهو من زادت حسناته على سيآته ، ثم من خفت موازينه ، وهو من زادت سيآته على حسناته ، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم ، وسيآتهم . (٩)

---

(١) سورة الأنعام – الآية ١٥٣ .
(٢) سورة الأنعام – الآية ١٥٥.
(٣) سورة الأعراف – الآية ٢،٣.
(٤) سورة الأنعام – الآية ١٥٩ .
(٥) سورة الأنعام – الآية ١٦٤ .
(٦) سورة الأعراف – الآية ٦،٧.
(٧) سورة الأنعام – الآية ١٦٠.
(٨) سورة الأعراف – الآية ٨ .
(٩) أنظر أسرار ترتيب القرآن ص١٠٢.

المناسبة بين آخر سورة الأعراف وأول سورة الأنفال :-

يقول عز وجل فى ختام سورة الأعراف : " إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ(١) " .

ويقول سبحانه وتعالى فى أول سورة الأنفال : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢) " .

فالخضوع لذات الله عز وجل دليل على الاعتراف بفضله ، وتعظيم عبادته عن ارتباطها بأمر دنيوي يقلل من شأنها ، فهى خالصة لجلاله عز وجل ، وقد ختمت سورة الأعراف بقوله سبحانه : " إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون". والقصد من قوله: " عند ربك " هم المقربون قرب المكانة من الملائكة . من حيث تفردهم للعبادة والطاعة ابتغاء مرضاته عز وجل بترك الاستكبار الموجب للمعصية ، وترك الغفلة بدوام تنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليق بقدسيته ، واختصاصه بالخضوع له دون سواه .

ولقد اختلف المسلمون فى غزوة بدر عند تقسيم الغنائم مع أن الجهاد فى سبيل الله عبادة بشراء الأنفس ، " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ".

---

(١) سورة الأعراف – الآية ٢٠٦ .

(٢) سورة الأنفال – الآية ١.

والجنة موطن الملائكة الذين وصفهم الله عز وجل بالأوصاف السابقة ، والذين يجاهدون في سبيله تعالى من دون تطلع إلى غرض دنيوي زائل هم ملحقون بذوي المكانة الرفيعة ، وهم مقربون عند الله عز وجل بالرضا ، فعبادتهم لذاته العليا . وكذلك المجاهدون في سبيله وهم راغبون في الفداء من دون ترقب جزاء عاجل .

ثم إن الربط جلي بين آخر سورة الأعراف في خلوص العبادة ، وأول سورة الأنفال من حيث الأمر بالتقوى والإصلاح وطاعة الرسول ، ومن هذه الثلاثة تقوم النفس المؤمنة الصادقة كما نص عليه قوله عز وجل : " يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ".

ومن الروعة العجيبة التعبير بـ (إن) المفيدة للشك لدى البشر ، مما يدل على أن إيثار الجزاء الخالد أعظم من عرض الدنيا الذاهب ، وبهذا الإيثار يتحقق خلوص الإيمان ، ولقد أردف المولى عز وجل الآية بقوله : " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون " .

وفي هذا القول المعنى الرائع للحقيقة الناصعة في تربية الروح بتفضيل المعنى على المادة وتزويد القلب بالمعرفة ، ثم تفويض الأمر لجلال عطائه ، وهوالذي" يرزق من يشاء بغير حساب " .

لقد صورالله عز وجل معنى الترقي في الإيمان بقوله : " الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم".

فجعل الله عز وجل للرقى ثلاثة مقامات : مقام الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل ، أما الإنفاق فى سبيل الله ففيه إشعار بعدم طلب عارض من عوارض الدنيا مربوطة بالجهاد ، والله تعالى أعلم .

مناسبة آخر سورة الأنفال لأول سورة التوبة :-

يقول عز وجل فى آخر سورة الأنفال : " وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ ، فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[1] ".

ويقول تبارك وتعالى فى أول سورة التوبة : " بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ[2] " .

ووجه المناسبة فى بيان أن موالاة المؤمنين فيها الرمز إلى قطيعة الكافرين والبعد عنهم مع قطع العلائق بينهم بعد ما ظهر من خداعهم وغشهم ونقضهم العهود ، ووضوح عداوتهم .

والالتقاء واضح فى موالاة المؤمنين ، والبراءة من غيرهم الذين نبذوا العهد فى غزوة تبوك ، بعد أن تخلف المنافقون عن الجهاد ونشروا الشائعات ، فكانوا دعاة الهزيمة ، ولهذا لم تثبت البسملة أول سورة التوبة لوحدة الموضوع فيما سيق لأجله الكلام الجليل .

إن الربط وثيق بين آخر الأنفال وأول التوبة من حيث وجوب موالاة المؤمنين ومجافاة ناقضى العهود ، فقد كتب الله عليهم الخزى ،

---

(١) سورة الأنفال - الآية ٧٥.
(٢) سورة التوبة - الآية ١.

وبشر المؤمنين بالنصر ما داموا أوفياء بعهودهم من الله غير معاهدين أعداءه .

مناسبة اختتام سورة التوبة وافتتاح سورة يونس :

يقول عز وجل فى آخر سورة التوبة : " فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١) " .

ويقول فى أول سورة يونس : " الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢).. "

ففى قرب مختتم سورة التوبة ، صور الله عز وجل استنكار المنافقين المنكرين ما يسمعونه من آى القرآن الكريم إمعانا فى التكذيب بغضا وحسدا للنبي – عليه السلام – فقال عز وجل : " وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ . صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٣) ". وقوله عز وجل : " نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ " يوحى بخوفهم وحيرتهم ، كما يوحى بالاستهزاء فى خفاء غير عالمين أن الله سبحانه مطلع على سرائرهم عالم ما تطوى ضمائرهم فهم يخشون الناس والله أحق أن يخشوه ، فقالوا مقالة جبن النفاق : هل يبصركم أحد من المؤمنين حين تنظرون هذه النظرات المريبة خشية أن ينكشف أمرهم .

ومن روائع التناسق قوله عز وجل : " ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم " ، وفيه المجازاة بعدم التوفيق حين بعدوا عن الهدى ، وارتبط عدم

---
(١) سورة التوبة – الآية ١٢٩ .
(٢) سورة يونس – الآية ١ .
(٣) سورة التوبة – الآية ١٢٧ .

تصديقهم بتغطية عقولهم التى منعتهم علم ما جاء فى الكتاب العزيز ، وهو من جنس لغتهم فادعوا إنكاره لستر عجزهم عن محاكاته .

لقد تلى ذلك توكيد ما يدفع الشكوك المفتعلة عند هؤلاء الضالين ، فقال تعالى :" لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ . حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنينَ رَءُوفٌ رَحِيم" (١) ، - وفى الآية توكيد الرسالة الدالة على تشريف القوم فقد كان الرسول بينهم من أشرف أصل ، فعدنان أو قحطان متصلان به فكيف ينكرون هذا الشرف ، والعز والتكريم ؟ ويطلبون رجلا من القريتين عظيما ؟

إنه الحسد والبغى : على أنه تعالى قد صور نبيه بالطهارة ، ورفع المكروه عنهم ، والحرص على إيصال الخيرات ، والرأفة ، والرحمة هما من صفات الواحد الأحد - فكان الأحق بالفعل أن يقبلوا عليه ، ويفخروا به .

لكن الحسد كما قلنا أعمى قلوبهم ولذلك طلب إليه مولاه ناصره وراعيه أن يفوض أمره فهو فى كفالته مهما يقع منهم من مكر ، ومطاردة ، وكيد وتنكيل ، وحين تقرر هذا كله جاء مفتتح سورة يونس بما يربط بين الاتجاهين فقال عز وجل : " أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ . قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) ".

---

(١) سورة التوبة - الآية ١٢٨.

(٢) سورة يونس - الآية ٢ .

ووجه المناسبة والترابط : أنه عز وجل قال فى آخر سورة التوبة : " من أنفسكم " ، وهنا - فى سورة يونس - قال : "إلى رجل منهم "، وهناك فى آخر التوبة " نظر بعضهم إلى بعض " ، وهنا قالوا : " إن هذا لساحر مبين ، فالمنافقون أنكروا سرا ، وهؤلاء جاهروا بالإنكار ، والأولون عقابهم شديد " ، " إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار " لأنهم يجمعون بين جريمتى الكفر والخداع ، فحقت عليهم كلمة العذاب الأليم .

على أن الاستفهام عن تعجبهم فيه غير الإنكار ، التعجب من شأنهم ، فالرسول - عليه السلام - منهم تشرفهم رسالته ، فقد جاء رحمة لهم ، يصلح من شأنهم ، ويعبدون الله حق عبادته .

ووجه التعجب من حالهم أن الرسول معروف لديهم بأمانته وصدقه واستقامته وشرف أصله ، وعفته ، وعدم تعرفه على كتب سابقة يعمل على مثالها . " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك " ، لكنهم أسرفوا على أنفسهم فى الإنكار حتى نسبوا القرآن الكريم إليه وأنه سحر وكهانة وأساطير الأولين .

إن دعوى (السحر) فيها الاعتراف بقوة تأثير القرآن الكريم على النفوس إذا خلصت من ظلام الجحود ، وتطلعت إلى أنوار الآيات الوضيئات فاتجهت بروحية صافية إلى الملأ الأعلى تسبح ربها بالغدو والآصال معترفة بجلال حكمته وكمال صنعته فأدركت بعد إشراق روحها سر الكون العظيم للواحد المعبود : الله رب العالمين .

الربط بين آخر سورة يونس وأول سورة هود:

يقول عز وجل فى آخر يونس : " وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ، وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " . [١]

وفى أول هود : " الٓر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [٢] " .

فجاءت خاتمة سورة يونس تؤكد صدق ما ينزل على الرسول الأعظم من جلال آى قرآنه مع الأمر باتباعه ، والصبر على مكاره الذين يصدون عنه إلى أن يفصل الله بحكمه العادل ، فينتصر الحق على الباطل ، وهو أحكم العادلين ، وفى توجيهه تعالى درس لأصحاب رسالات الإصلاح الذين يهبون نفوسهم فى سبيل نشر المبادئ الإنسانية الفاضلة ، لكنهم يصدمون بشهوات النوازع البشرية التى تريد عدم تقويم الغرائز لإبقاء مظاهر الحياة بحب التسلط وسلب الحقوق لطلب السيادة الزائفة .

وكان من رائع التلاقي بين (الاحتكام) و (الحكمة) قول الحكيم فى مفتتح سورة (هود) : " الٓر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " . فهناك إحكام وتفصيل و (حكمة) و (خبرة) - وكلها مشيرة إلى منتهى السداد فى الدلالة على أن ما أوحى إليه لن يعلق به خلل ، إذ أن معانيه غير متناقضة وقد حوت العدل ، والتوحيد ، والنبوة والمعاد - وألفاظه بلغت حدا لا يمكن مجاراتها ، وعلومه جامعة لطالب العلوم النظرية والتطبيقية والنفسية . وقد فصلت بدلائل التوحيد ، وإيراد

---

(١) سورة يونس - الآية ١٠٩. (٢) سورة هود - الآية ١.

الأحكام ، وتصوير القصص فى أسلوب لا يطاول مع التفريق بين الحق والباطل .

وإن المتأمل فى هذه الآية الكريمة يصل إلى روعة الصياغة ، فقد ذكر العلي العظيم الأحكام والتفصيل فى كلمة عظيمة ، ثم ذكر أنها من عنده بعد أن أحكمت بحكمه ، وفصلت بخبرته . فليس لأحد الاعتراض على ما أتى فى الكتاب إلا من غلف قلبه بغلاف الجحود ، وغشى عقله غشاء العناد .

إن المنكر الجاحد مغيظ ، لأنه يعارض فى غير حجة ، ويجادل بلا دليل - وهذا يستدعى الصبر الذى جاء آخر سورة يونس ، فما أجل الربط وأروعه !! - على أن عاقبة الصبر النصر بعد أن تتضح الحقائق مبددة الأباطيل ، فترجع النفوس عن جحودها ، حتى تتعلق بالحق فتنصره وتدافع عنه .

الربط بين آخر سورة يوسف وأول سورة الرعد :

إن افتتاح سورة الرعد ، فى غاية المناسبة لاختتام سورة يوسف ، لأن سورة يوسف ختمت بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق : " مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "(١)، وسورة الرعد افتتحت بمثل ذلك " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ

(١) سورة يوسف - الآية ١١١.

والّذِى أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ الحَقّ وَلكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنُونَ " (١) ، ولأنه قال فى آخر سورة يوسف : " وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ والأرضِ يَمُرُّونَ عَلَيهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٢) " .

فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة ، ثم فصل فى مطلع سورة الرعد ، فقوله : " اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوجَيْنِ اثْنَينِ يُغْشِى اللَّيلَ والنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِى الأَرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيرُ صِنْوَانٍ يُسقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعقِلُونَ " (٣)، تفصيل الآيات الأرضية .. فقد كان فى قصة يوسف التأمل ، والتفكير ، والعبرة ، ثم الحكمة والقدرة .

ولما كان عرض هذه القصة مصدقا له ، جاء فى مختتم السورة " مَا كَانَ حَدِيثاً يُفتَرَى " – وجاء فى مفتتح سورة (الرعد) الربط والتلاقى فى قوله تعالى : " وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ " .

---

(١) سورة الرعد – الآية ١.

(٢) سورة يوسف – الآية ١٠٥.

(٣) سورة الرعد – الآيات ٢ ، ٣ ، ٤.

فقد أخبر المولى – جل شأنه – بقوله : " والذى أنزل " بالاسم الموصول ، وله فى اللغة منزلته من حيث جعل صلته الإنزال من ربه ، ثم أخبر عنه بأنه الحق لا يشك فيه إلا مكابر أو معاند ، وهذا كله مرتبط بقوله تعالى : " ما كان حديثا يفترى " فهو صادق بصدق حوادثه ، وعدم القدرة على الطعن فيها ، وقد ثبت أنه (حق) لأن كل ما كان صدقا صار حقا .

إن ربط القصة بالنظر فيها مرتبط بوجوب التأمل فى إبداع خلقه حتى يستقر الإيمان استقرارا عميقا ، ولا يكون هناك تردد فى قبول دعوة الرسول عليه السلام .

لقد أورد الخالق قوله عز وجل : " اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ [1] "

فالقدرة على غير مثال سابق داعية إلى التفرد ، وبه تتعلق الوحدة فى رفع السموات بغير عمد مرئية ممسكة بقدرة عليه ، والله تعالى أعلم .

الربط بين آخر سورة النحل وأول سورة الإسراء : –

فآخر سورة النحل : " وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الذينَ اتَّقَواْ والذينَ هُم مُحسِنُونَ " . [2]

---

(١) سورة الرعد – الآية ٢.
(٢) سورة النحل – الآية ١٢٨ .

وأول سورة الإسراء : " سُبْحَانَ الذِى أَسْرَىٰ بِعَبدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١)"

فنقول : حين اشتد لجاج الجاحدين على الرغم من الحرص على هدايتهم ، وقد عظم إيذاؤهم للرسول وأصحابه – طلب إليه رب العرش العظيم الارتفاع إلى مستوى خلقه الرفيع ، ويجادلهم بالتى هى أحسن على الرغم من شراستهم ، وسوء جدالهم ، وطرقهم الفاسدة . فقال – تبارك وتعالى : " وَاصْبِرْ ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيهِمْ وَلَاتَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ " .

أن من يجادلون على ثلاث مراتب : مرتبة معرفة الحقيقة لذاتها ، ومرتبة الفطرة الساذجة ، ومرتبة المشاغبة والمخاصمة والمعاندة .

أما أصحاب المرتبة الأولى فهم فى حاجة إلى الحكمة ، وأصحاب المرتبة الثانية فيحتاجون إلى الموعظة الحسنة وسهولة الاقناع . أما ذوو المرتبة الثالثة فإقناعهم بالمجادلة ونقض ما اعتقدوه .

وعلى ضوء هذا التحليل كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم – ليته يستجيب لها أصحاب العقول الراجحة . والفطر السليمة – لكنها مع المنكرين صعبة شديدة تحتاج إلى صبر كثير وكفاح عظيم . ولهذا أمر المولى – عز وجل – نبيه الصادق باستدامة الدعوة وعدم الجزع على ما يقع وبسطة النفس عند كل ضيق وفى هذا توجيه إلى كل داع إلى الحق .

---

(١) سورة الإسراء – الآية ١.

إن الرسالات الإنسانية الفاضلة يبقى أثرها ، ومهما يطل إنكارها تنتصر على معارضيها ما دام هناك عمق إيمان بها .

ولقد جاء مفتتح سورة الإسراء " بتسبيح الله " البعيد عن النقائص . فقال تعالى : " سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ " ، سياق هذا القول الكريم بعد دعوة نبيه إلى إفحام المنكرين بالأدلة الناطقة الواضحة الدالة على صدقه – آخر سورة النحل – فأقام الدليل الذى لا يجحد من انتقاله فى بعض وقت من الليل مما لم يصدق فى ظاهر المألوف ما بين المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وإضافة العبودية له أولى تشريف لشأن الرسول وتوكيد لفضله ، ودلالة على قربه من ربه ! .

لقد كانت المعجزة الكبرى للرسالة العظمى بالقرآن الكريم لكنهم مع عجزهم ، واعترافهم فى حقيقة نفوسهم لم يخضعوا للأدلة القاطعة سترا لخزيهم . وإنكارهم ، فطلبوا دليلا يعاينونه بعيونهم – وهم ماديون فى اعتقادهم – لا يعترفون إلا بالتجسيد ، فأقام القادر العظيم حجة دامغة فى انتقال عجيب غير مألوف من مكة إلى المسجد الأقصى ، بالجسد والروح بعد أن تكشفت للرسول مكاشفات لم تحصل لغيره بعد صعوده إلى مصاعد التكريم ، فرأى الأعاجيب وحدث عنها ، وكان السر فى تحديثه ما رأى من آيات ربه الكبرى حتى تتقرب النفوس إلى الأجل الأعلى بعد تصاعد الأرواح الصافية إلى قدسيات الصفاء حيث يتجلى الإشراق فى الرؤيات الباهرات ، فالرسول يحث على المجاهدة لمحاولة تحصيل المعارف الروحية المرتفعة عن الأرض الدنية !! .

واستمر المنكرون فى إنكارهم ، ولم يعلموا أن الله عز وجل قادر وفى قدرته إنفاذ ما يريد . فقد سبق أن أحضر الذى عنده علم الكتاب عرش بلقيس – قبل إرتداد طرف العين ، فما بال الصادر عن ذات مقتدرة مختارة عالمة ! – إنه أقوى وأفعل – لكن مجرد الإنكار دافع إلى المكابرة التى لاتغنى عن الحق شيئا .

إن الربط بين آخر سورة النحل وأول سورة الإسراء واضح الدلالة . فالصبر مع المكابرة يتبعه عظيم الأجر وجمال الأثر ، ورفعة القدر ، ولما كان الحادث العظيم سيجلب الشكوك ويدعو إلى التعجب ارتبط الصبر بهذا الموقف . ولقد وجد الرسول صلى الله عليه وسلم من أبى جهل كثيرا من التنكر والشر لكنه لم يأبه به .

وافتتاح سورة الإسراء مناسب أيضا لختام سورة النحل ، لأنه عز وجل لما قال فى آخر النحل : " إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ... " [1] ، فسر فى سورة الإسراء شريعة أهل السبت ، وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم فى التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس إنه قال : " التوراة كلها فى خمس عشرة آيه من سورة بنى إسرائيل " ، وذكر عصيانهم وفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استفزازهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر أن استفزازهم للنبى صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه ، كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم ، ووقع ذلك أيضا.

(١) سورة النحل – الآية ١٢٤ .

المناسبة بين آخر سورة الإسراء وأول سورة الكهف :

يقول عز وجل فى آخر سورة الإسراء : " وَقُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ وَكَبِّرهُ تَكْبِيراً " . (١)

ويقول فى أول سـورة الكهف : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا " (٢) .

إن تحــقيق الملك للــه – عز وجل – لا ينـازع ، فقد تجلت الآيـات على تفرده بالأدلة المقنعة ، لكن المنكرين أصروا علىٰ ما هم فيه من ضلالة ، وقد ختم العزيز الحكيم سورة الإسراء بالطلب إلى رسوله ملازمة حمده على نعمائه بالرسالة ، واصطفائه بالبعد عن ضـلال الشـــرك ، لأن حقيقة الدين واضحة بالتوحيد ، فالواحد الأحد الفرد الصمد لم يتخذ ولدا يتقوى به ، أو شريكا يعاونـه ، أو نـاصرا يعـاضده شـأن المحدثين ، فهو كفء للخلق والإيجاد بالقدرة الواحدة وهو المستحق بتجديد التكبـير تعظيمـا لجلاله عز وجل.

لقد جاء مفتتح سورة الكهف : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا " ، بعد أن جاء فى الإسراء قولـه تعـالى : " وبِـالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِـالْحَقِّ نَزَلَ " – ودعـا الرسول إلـى ملازمـة الحمـد – ولهذا كان التنويه بنزول القرآن حقا لا باطل فيه وقد تلاقى مع قوله تعـالى : " وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا " .

---

(١) سورة الإسراء – الآية ١١١.

(٢) سورة الكهف – الآية ١.

فالكتاب المنزل فى غاية الاستقامة ولا تناقض فيه أو التواء ، ولا تضارب بين ألفاظه ومعانيه بل هى على سواء ، والقرآن جامع كل أمر جميل به سعادة الدنيا والآخرة بتقدير العزيز الحكيم .

لقد كان من جمال الربط الدلالة على صدق رسالة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – ما حكاه عما شاهده فى معراجه بسورة (الإسراء) وما يحكيه عما طلبه المشركون من أحبار اليهود بالمدينة – وهم أهل كتاب – على لسان (النضر بن الحارث) حتى يعجزوا الرسول – فى اعتقادهم – بأسئلة يسألونها فطلبوا سؤاله عن الفتية الغائبيـن فى الزمن : ما حالهم العجيب ؟! .

وسألوه عن رجل طاف الدنيا ، ثم سألوه عن الروح ، وحين نزل عليه الوحى ، أجاب عن اثنين بحسب ما جاء فى سياق السورة ، وتوقف عن معرفة الروح كما جاء عن ربه : "ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " .

قال اليهود – وهم ماكرون – إذا أجاب محمد بأية إجابة سوى ما ذكر الله فى أن الروح من أمره كان موضع الشك ، لكنه عليه السلام ينطق عن الوحى

– إن الربط بين سورتى الإسراء والكهف من جهتين : جهة نزول القرآن على الرسول الصادق الأمين . وجهة إثبات الحمد لله تعالى على نعمة التوفيق فى أداء الرسالة مهما يصادفها من تعويق وعدم تصديق .

إن جمال التوفيق فى التعبير بقوله تعالى (عبده) فى السورتين : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا" ، " الحمد لله الذى أنزل على عبده

الكتاب" ، ووجود (التسبيح) فى مقام الإسراء له دلالته الجلية فى تجليات السماء ، ووجود (الحمد) فى مقام إنزال القرآن له دلالتـه فـى تعظيـم نعمـة الرسالة .

إن التأمل فيما جاء بالسياق بعد منـع (العوج) عن القرآن فـى إنزالـه فيمـا لإثبـات الاستقامة مـع تصديـق الكتـب قبلـه – وفـى هـذا تعريـض بالمنكرين ، لأنهم حين ينكرونه إنما يدفعون ما جاء فـى كتبهم مـن إثبـات النبوة لسيدنا محمد المسمى (أحمد) فى كتبهم.

لقد قرر القرآن أمران عظيمـان فيهمـا روح الرسـالة مـن حيـث إنـذار المخالفين وتبشير الموافقين بعد تمام اليقين . فقال المولى – عز وجل – : " لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا " .

ومن جمال (المقابلة) قوله : (بأسا شديدا) و (أجرا حسنا) وكنـى فى كل عن التعذيب فى الدنيا والآخرة أو التنعيم بالجنة .

ومن لطائف الكمال قوله تعالى : " إن الذين يعملون الصالحـات " ، ليدل على أن الأجر الحسن مرتبط بالعمل الصـالح ، وأن الإيمـان لا يكفـى إلا إذا صاحبه السلوك السليم .

إن هذا السياق الرائع فى تلاقيه العجيـب لا يمكن أن يتوفـر فـى غير كلام العزيز الحكيم .

الربط بين آخر سورة لقمان وأول سورة السجدة :

إن افتتـاح سـورة السـجدة شـديد الارتبـاط باختتـام سـورة لقمـان ، لأن سورة السجدة شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التى ذكرت فى خاتمة لقمان .

فقوله عـــز وجل فى السجـدة : " ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ". [1] شرح لقوله فى سورة لقمـان : " إِنَّ اللَّـهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ " [2]، ولذلك عقب فـى سـورة السـجدة بقولـه : " عَـالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ " [3].

وقوله : " أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ .. " [4] ، شـــرح لقوله : " وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ " [5]

وقوله : " الَّذِى أَحسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِـهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيـلاً مَّـا تَشْـكُرُونَ " [6] ، شـرح لقولـه : " وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ " [7]

وقوله سبحانه : " يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرضِ " [8]، و : "وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا " [9]، شرح لقوله : " وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا " [10].

وقوله تعالى : " أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَـاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ . قُلْ يَتَوفَاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الذِى وُكِّلَ بِكُم ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ " [11]، شرح لقوله : " وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرضٍ تَمُوتُ " [12].

---

(١) سورة السجدة - الأية ٥.
(٢) سورة لقمان - الأية ٣٤.
(٣) سورة السجدة - الأية ٦.
(٤) سورة السجدة - الأية ٢٧.
(٥) سورة لقمان - الأية ٣٤ .
(٦) سورة السجدة - الأيات ٩،٨،٧.
(٧) سورة لقمان - الأية ٣٤.
(٨) سورة السجدة - الأية ٥.
(٩) سورة السجدة - الأية ١٣.
(١٠) سورة لقمان - الأية ٣٤.
(١١) سورة السجدة - الأيات ١١،١٠.
(١٢) سورة لقمان - الأية ٣٤.

الربط بين آخر سورة (ص) وأول سورة الزمر :

وافتتاح سورة الزمر فى غاية المناسبة والارتباط باختتام سورة (ص) حيث قال الله عز وجل فى آخر (ص) : " إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ " (١).

وقال فى مطلع (الزمر) : " تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ " (٢)، فكأنه قيل : هذا الذكر تنزيل . وهذا تلاؤم شديد ، بحيث لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة .

وقد ذكر الله عز وجل فى آخر (ص) قصة خلق آدم فى قوله : " إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ " ...... إلى قوله : " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ " (٣).

وذكر فى سورة (الزمر) قصة خلق زوجه ، وخلق الناس كلهم منه، وذكر خلقهم فى بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم واليقظة ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة ، وقال تعالى : " وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " . (٤)، فذكر أحوال الخلق من المبدأ إلى الميعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور فى السورة التى قبلها .

---

(١) سورة ص – الآية ٨٧.

(٢) سورة الزمر – الآية ١.

(٣) سورة ص – الآية ٧١، ٨٥ .

(٤) سورة الزمر – الآية ٧٥.

الربط بين آخر سورة (المنافقون) وأول سورة التغابن :-

وأيضا افتتاح سورة (التغابن) شديد التلاؤم باختتام سورة المنافقون) ، لأنه لما وقع فى آخر سورة (المنافقون) قوله عز وجل : " وَأَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ " [(١)]، عقب بسورة (التغابن) ، لأنه قيل فى معناه : إن الإنسان يأتى يوم القيامة ، وقد جمع مالا ، ولم يعمل فيه خيرا ، فأخذه وارثه بسهولة ، من غير مشقة فى جمعه ، فأنفقه فى وجوه الخير ، فالجامع محاسب معذب مع تعبه فى جمعه ، والوارث منعم مثاب ، مع سهولة وصوله إليه . وذلك هو التغابن . فارتباطه بآخر السورة المذكورة فى غاية الوضوح ، ولهذا قال هنا : " وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " [(٢)]. وأيضا ففى آخر سورة (المنافقون) : " لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ " [(٣)].

وفى سورة (التغابن) : " إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ " [(٤)]، وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة ، ولذا ذكرت على ترتيبها .

ومن لطائف سورة الكوثر:-

أنها كالمقابلة للتى قبلها ، وهى سورة (الماعون) ، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء

---

(١) سورة المنافقون – الآية ١٠.

(٢) سورة التغابن – الآية ١٦.

(٣) سورة المنافقون – الآية ٩.

(٤) سورة التغابن – الآية ١٥.

فيها ، ومنع الزكاة ، فذكر فيها فى مقابلة البخل : " إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ"، أى الخير الكثير ، وفى مقابلة ترك الصلاة : (فصل) أى دم عليها ، وفى مقابلة الرياء : (لربك) أى لرضاه ، لا للناس ، وفى مقابلة منع الماعون : (وانحر) ، وأراد به التصدق بلحوم الأضاحى ، فما أعجب هذه المناسبة ؟ أنها فوق مقدور البشر ، ولا يقدر عليها إلا خالق الأرض والسموات .

وهكذا جميع سور القرآن الكريم ، إذا تتبعتها وجدت افتتاح كل سورة فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها .

الفصل السادس عشر

مذاهب التفسير(١)

كانت بدايات التفسير القرآني مع نـزول القرآن الكريم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول مفسر للقرآن ، فقد كان النبي عليه السلام يقوم بتفسير ما يحتاج إلى تفسير من آيات الكتاب التى تنزل عليه ، أو ما يشكل فهمه عن الصحابة فيسألون عن معناه :

ففى صحيح البخاري وصحيح مسلم أنه لما نزلت آية الصيام :" حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر "، قال له عدى بن حاتم : يا رسول الله أني أجعل تحت وسادتى عقالين : عقالا أبيض وعقالا أسود ، أعرف الليل من النهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن وسادك لعريض ، إنما هو سواد الليل وبياض النهار ."

وكذلك تفسيره لمعنى الظلم فى قوله عز وجل :" ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " (٢)، فقد قالوا لما نزلت هذه الآية : أينا لم يظلم نفسه ؟ ففسره النبي عليه السلام بأنه الشرك ، واستدل على ذلك بقوله تعالى :" إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (٣).

---

(١) أنظر كتاب دراسات فى القرآن والحديث – د./ يوسف خليف – ص ١١٣ وما بعدها .

(٢) سورة الأنعام – الآية ٨٢ .

(٣) سورة لقمان – الآية ١٣ .

وكان الصحابة عربا يفهمون القرآن ويتذوقونه ، ولم تشكل عليهم إلا بعض آيات منه . ومع ذلك فلم يكونوا جميعا على مستوى واحد فى فهم معانى القرآن ، فقد اختلفت مستوياتهم نتيجة لتفاوتهم فى معرفة الظروف التى أحاطت بنزول القرآن ، وأيضا لتفاوتهم فى العلم بمفردات اللغة كلها على اختلاف لهجات القبائل فى شبه الجزيرة العربية .

فقد روى أن عمر بن الخطاب الذى بلغ من الفصاحة ما بلغ لم يعرف معنى (الأب) فى قوله تعالى :" وفاكهة وأبا " ، فقد قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر .

ويروى أيضا عن ابن عباس – وهو أعلم الصحابة بالقرآن – أنه قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، والآخر يقول : أنا ابتدأتها .

وإلى جانب ذلك كانت هناك الآيات المتشابهة التى لا تكفى معرفة اللغة وحدها لفهم المراد منها ، والآيات التى تتحدث عن الأمور الغيبية التى لا يستطيع العقل البشرى إدراك مدلولاتها أو الوصول إلى معرفة حقيقتها .

ومن هنا كان حرص النبي عليه السلام على أن يفسر لصحابته ما يحتاج إلى تفسير ، وكان حرص الصحابة على أن يسألوه عليه السلام عما يشكل عليهم من آيات القرآن الكريم ، أو عما لا تسعفهم اللغة وحدها على

فهمه ، انطلاقا من حرصهم على تدبر معاني القرآن كما أمرهم الله تعالى بذلك :" أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " (١) .

ويروى عن ابن مسعود أنه قال :" كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ". ويذكرون أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها .

فلما انتقل الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى حمل الصحابة مهمة التفسير ، معتمدين فى ذلك على اجتهادهم العقلى وسليقتهم اللغوية فيما لم يسمعوا فيه تفسيرا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مهتدين بهديه في تفسير ما فسره لهم ، معتمدين على معرفتهم بأسباب النزول ، وما أتاحته لهم من فهم لمعانى الآيات التى ارتبطت بهذه الأسباب . و لم يسمعوا فيه تفسيرا من النبي ، مهتدين بهديه عليه السلام فى تفسير ما فسره لهم، وأيضا معتمدين على علمهم بأسباب النزول ، وما يتيحه لهم هذا العلم من فهم لمعانى الآيات التى ارتبطت بهذه الأسباب .

وظهر من بينهم عدد من المفسرين ، اشتهر منهم عشرة كانوا على صلة قريبة بالنبي ، وبأحداث الدعوة الإسلامية : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير . وكان أكبر هؤلاء العشرة تفسيرا هو عبد الله بن عباس على الرغم من أنه كان أقلهم ملازمة للنبي عليه السلام،

---

(١) سورة محمد – الآية ٢٤ .

فقد انتقل الرسول إلى جوار ربه وهو فى حوالى الثالثة عشر من عمره ، ولكنه عوض ذلك بملازمته لكبار الصحابة وأخذه عنهم حتى تكامل له علم غزير ، ومعرفة واسعة شاملة بكل ما أحاط بالدعوة الإسلامية من ظروف وأحداث ، وكل ما ارتبطت به آيات القرآن الكريم من أسباب نزولها ، وبكل ما روى عن النبي عليه السلام من تفسير لآيات الكتاب الحكيم ، حتى استحق بحق ذلك اللقب الذى لقبه به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو (ترجمان القرآن) استجابة لدعائه عليه السلام له : " اللهم علمه الكتاب والحكمة " - " اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل ".

اعتمد ابن عباس فى تفسيره على ما سمعه عن رسول الله من تفسير ، وعلى معرفته الواسعة بأسباب النزول وعلى اجتهاده الشخصى الذى أعانه عليه علمه الواسع باللغة العربية ، وروايته الواسعة للشعر العربى ، واعتمد أيضا - فى دائرة محدودة - على ما أخذه عن أهل الكتاب مما ورد فى التوراة والإنجيل من قصص الأنبياء مما فصله الكتاب المقدس وأجمله القرآن الكريم ، وكانت هذه بداية لما عرف فى تاريخ التفسير باسم (الإسرائيليات) وأتاح له ذلك كله ذكاء مفرط وذاكرة قوية لا تنسى شيئا ، كما أتاحه له أيضا حسه اللغوى الدقيق ، وتذوقه المرهف للشعر العربى والذى اتخذ منه وسيلة أساسية لفهم النص القرآني ، والاستشهاد به على معانى ألفاظه ، وكان يقول :" إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب " . كما كان لا يكف عن سؤال الأعراب أو الاستماع إليهم فيما غمض عليه من معانى بعض الألفاظ الغريبة التى وردت فى القرآن الكريم . وقد ذكر أنه كان لا يعرف

معنى كلمة (يحور) "حتى سمع أعرابية تقول لبنية لها : حوري ، أى ارجعي" . واستطاع – عن طريق هذه الصلة الواسعة بالشعر العربى ، وهذا الاتصال المباشر بأعراب البادية – أن يكون خبيرا بلهجات القبائل وما بينها من خلافات وفروق لغوية ، وأن يكون قادرا على أن يميز لغة قريش التى نزل بها القرآن من غيرها من لغات القبائل الأخرى .

وكان مصدره الأول فى تفسير القرآن ، القرآن نفسه ، إيمانا منه بأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فإذا لم يجد فى القرآن ما يطلبه من تفسير مضى إلى مصادره الأخرى : أحاديث النبي والشعر العربى وأحاديث الصحابة وتاريخ الدعوة الإسلامية وتاريخ نزول القرآن وأسباب نزوله والإسرائيليات ، معتمدا فى تصفية هذه المادة التفسيرية الضخمة على اجتهاده الشخصى . وقد وصف ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى معرفة الصحابة) منهج ابن عباس فى التفسير فقال : " كان ابن عباس إذا سئل ، فإن كان فى القرآن أخبر به ، فإن لم يكن وكان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر به ، فإن لم يكن وكان عن أبى بكر وعمر أخبر به ، فإن لم يكن قال برأيه " . ومع ذلك فقد كان يتحرج كثيرا من القول برأيه الشخصى ، ويقول :" إنما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن قال بعد ذلك برأيه فما أدرى أفى حسناته يجده أم فى سيئاته ". ولذلك نراه يتوقف أحيانا فى تفسير بعض الآيات الغيبية ، فقد سئل عن معنى قوله تعالى :" فى يوم كان مقداره ألف سنة " ، وقوله تعالى :" كان مقداره خمسين ألف سنة " ، فقال :" هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه ، الله أعلم بهما ". ولذلك نراه أيضا يتعامل مع الآيات المتشابهة

تعاملا يصدر عن إيمانه بأنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ويفسرها بما يحتمله معناها اللغوى ، ففى تفسيره لقوله تعالى :" الله يستهزى بهم " يقول :" يسخر بهم للنقمة منهم " ، وفى قوله تعالى :" والله غنى حليم " ، يقول :" الغنى الذى كمل فى غناه . والحليم الذى كمل فى حلمه ".

وقد نُسب إلى ابـــن عباس كتاب فى التفسير طبع عدة مرات باسم (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس) جمعه الفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط . ولكن هذا الكتاب يضم كثيرا من الآراء التى وضعت على ابن عباس ولم تثبت صحة نسبتها إليه .

وقد قال الإمام الشافعى فى ذلك :" لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث " . ولكنه – مع ذلك – يعد بحق أبا للتفسير القرآني ، ورأس أول مدرسة ظهرت فى تاريخه ، وهى مدرسة مكة .

* انتهت المرحلة الأولى فى تاريخ التفسير بانتهاء عصر الصحابة ، وبدأت المرحلة الثانية مع بداية عصر التابعين . فقد انتشر الصحابة فى الأمصار الإسلامية مع حركة الفتوح الإسلامية الواسعة ، واستقرت طوائف منهم فى المدينتين المقدستين : مكة والمدينة . والتف حول هؤلاء وهؤلاء أعدادا كبيرة من التابعين ، يأخذون عنهم العلم ، ويتلقون عنهم أساليبهم فى التعامل مع نصوص القرآن والحديث ، ومناهجهم فى التفكير والبحث فى أصول الإسلام وعقائده وأحكامه وتشريعاته ، وظهرت فى المدن الإسلامية جماعات من هؤلاء التابعين أخذوا التفسير عن كبار

الصحابة الذين عرفوا به ، وكانوا بداية ظهور مدارس التفسير القرآني المختلفة :

مدرسة مكة :-

وأستاذها ابـــن عباس (ت ٦٨ هـ) ، وأشهر تلاميذها سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) ، ومجاهد بن جبر (ت ١٠٤ هـ) ، وعكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٤هـ) ، وطاووس بـــن كيســان (ت١٠٦ هـ) ، وعطاء ابن أبى رباح (ت١١٤هـ) .

ومدرسة المدينة :-

و أستاذها أبى بن كعب (ت ٣٠ هـ) ، وأشهر تلاميذها أبو العالية الرياحى (ت ٩٠ هـ) ، ومحمد بن كعب القرظى (ت ١١٨ هـ) ، وزيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب (ت ١٣٦ هـ) .

ومدرسة العراق :-

وأستاذها عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ) ، وأشهر تلاميذها علقمة بن قيس (ت ٦١هـ) ، ومسروق بن الأجدع (ت٦٣هـ) ، والأسود بن يزيد (ت ٧٤هـ) ، وعامر الشـــــــعبى (ت ١٠٩ هـ) وهم كوفيون ، والحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) ، وقتادة (ت ١١٧ هـ) وهما بصريان .

وقد استمد هؤلاء التابعون تفسيرهم من الصحابة الذين أخذوا عنهم العلم ، وبعضهم كان يأخذ عن أهل الكتاب ، وإلى جانب هذين المصدرين

كان اجتهادهم الشخصى . وقد اختلف المفسرون فى الأخذ بتفسير التابعين ، فبعضهم يرفض الأخذ به ، وبعضهم يقبله، وبعضهم يضع له شروطا ، ولكن أكثر المفسرين يذهبون إلى الأخذ به من حيث إن أكثره تلقوه عن الصحابة . والشيء الذى يلاحظه الباحثون على التفسير فى عصر التابعين زيادة نسبة الإسرائيليات فيه ، وذلك لتزايد عدد من دخل فى الإسلام من أهل الكتاب فى هذه المرحلة من تاريخ الدولة الإسلامية . كما يلاحظون أيضا بداية ظهور الخلافات المذهبية ، وبخاصة فى مدرسة العراق حيث كان قتادة والحسن البصرى يخوضان فى مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار .

وتواصل الطريق بعد ذلك ، فظهر جيل تابعى التابعين من أمثال يزيد بن هارون (ت ١١٧هـ) وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠ هـ) ، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) ، وروح بن عبادة البصرى (ت ٢٠٥هـ) ، وغيرهم كثيرون . وكانوا جميعا من علماء الحديث الذين شغلوا مع غيرهم منذ بداية القرن الثانى بجمع الحديث ، فكان اهتمامهم بجمع التفسير فرعا من اهتمامهم بجمع الحديث ، ولذلك لم تعرف لهم كتب خاصة بالتفسير ، وإنما جاء تفسيرهم أبوابا فى كتب الحديث من بين أبوابها المختلفة .

* ثم جاءت بعد ذلك مرحلة جديدة فى تاريخ التفسير انفصل فيها عن الحديث ، فأصبح علما مستقلا ، واتجه العلماء فيه إلى تغطية كل آيات القرآن وسوره حسب ترتيبها فى المصحف. وظهر فى هذه المرحلة

مجموعة من المفسرين يعدون البداية الحقيقية لعلم التفسير ، من أمثال ابن مـــــــاجة (ت ٢٧٣هـ) ، وابن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ، وأبى بكر النيسابورى (ت ٣١٨هـ) ، وابن أبى حاتم (ت ٣٢٧هـ) ، والحاكم النيسابورى (ت ٤٠٥ هـ) ، وغيرهم كثيرون ممن يعدون الرواد الأوائل على طريق تأصيل هذا العلم .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن بداية التأليف فى التفسير كانت فى القرن الثالث الهجري وإن كنا لا نستطيع تحديد أول مـن بدأ هذا الطريق ففسر القرآن كله حسب ترتيب المصحف . ومع ذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه البداية لم تتأخر حتى القرن الثالث ، وإنما بدأت منذ وقت مبكر حيث يرون أن مجاهد بن جبر كتب عن ابن عباس تفسير القرآن كله ، بل يرى بعضهم أن سعيد بن جبير من قبل مجاهد قام بهذا العمل . ويرجع السبب فى هذا الخلاف إلى أن أكثر تفاسير هذه المرحلة المبكرة لم تصل إلينا .

و أهم كتاب وصل إلينا من هذه المرحلة هو تفسير ابن جرير الطبري المعروف باسم { جامع البيان فى تفسير القرآن } . والطبري هو محمد بن جرير ولد فى طبرستان سنة ٢٢٤هـ ، ثم رحل فى صباه فى طلب العلم إلى مصر والشام والعراق وهو فى الثانية عشرة من عمره ، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد واستقر بها حتى مات فى سنة ٣١٠هـ . وكان الطبري متقفا ثقافات واسعة ، وله مصنفات كثيرة ضاعت كلها إلا كتابه فى التفسير وكتابه فى التاريخ . ويعد الطبري أبا للتفسير ، كما يعد أبا للتاريخ

الإسلامي ، على أساس أهمية هذين الكتابين وقيمتهما العلمية الكبيرة ، وريادة صاحبهما بهما فى هذين المجالين .

يمثل تفسير الطبري القمة التى وصل إليها التفسير فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخه ، كما يعد أهم كتاب ظهر فى التفسير الذى عرف " بالتفسير النقلى " أو (التفسير بالمأثور) . وهو الذى يقوم منهجه على أساس ما أثر عن النبي والصحابة والتابعين من تفسير لآيات الكتاب الكريم ، والاعتماد على ما نقل عنهم من أقوال وأحاديث . ومع ذلك فلم يخل تفسير الطبري من إعمال للعقل ومحاولات الاستنباط وتوجيه الآراء وترجيح بعضها على بعض استناداً إلى النظر العقلي القائم على الدليل النقلي . وعلى أساس هاتين النظرتين : النظرة النقلية أولا ثم النظرة العقلية بعد ذلك يقوم منهجه فى التفسير ، فهو يبدأ تفسير الآية بقوله :" القول فى تأويل قوله تعالى كذا " ثم يفسر الآية مستشهدا على ما يقوله بأحاديث النبي أو الصحابة أو التابعين مما أثر عنهم ، مسجلا أسانيدها ، فإذا كان فى تفسير الآية أكثر من رأى عرض الآراء جميعها واستشهد على كل رأى مما يؤيده من أقوال للصحابة أو التابعين ، ثم يمضى بعد ذلك إلى توجيه هذه الآراء فى محاولة لترجيح ما يرى ترجيحه ، واقفا فى أثناء ذلك عند القراءات المختلفة وعند إعراب ما يحتاج إلى إعراب ، مستنبطا ما فى الآية من أحكام تتصل بالفقه أو أصول تتصل بالعقيدة .

ويقع تفسير الطبري – فى طبعته التى بين أيدينا – فى ثلاثين جزءا تعد بحق دائرة معارف ضخمة غنية بما تضمه من مادة تفسيرية متعددة الجوانب ، وبما سجلته من أحاديث النبي وصحابته وأقوال التابعين

وتابعيهم فى تفسير القرآن الكريم ، وبما سجلته أيضا – فى كثير من المواضع – من أسانيد هذه الأحاديث ومصادر هذه الأقوال . وتكثر عبارات العلماء فى الثناء عليه والتنويه بأهميته التاريخية وقيمته العلمية . يقول النووي – فيما ينقله عن صاحب الإتقان – " أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري ".

وجانب آخر من جوانب منهج الطبري فى تفسيره ، وهو اعتماده فى بعض المواضع على الإسرائيليات ، وبخاصة فى قصص الأنبياء ، فنراه ينقل عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن جريج والسُدىّ وغيرهم ممن أسلموا من أهل الكتاب . ونستطيع أن نرى مثلا لذلك فى تفسيره لآية سورة الكهف التى تتحدث عن ذى القرنين :" قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض " ، فيقول مسجلا سلسلة إسناده : " حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثنا محمد بن إسحاق قال : حدثنى بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد اسلم ، مما توارثوا من علم ذى القرنين أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر ، اسمه مر زبا بن مر دبه اليونانى من ولد يونن بن يافث بن نوح ". ومن غير شك فإن هذا الأخذ بأقوال أهل الكتاب والاعتماد على مصادرهم يرجع إلى عقليته التاريخية التى ألف من خلالها كتابه المشهور فى التاريخ ، وعلى منهج الطبري ، وفى دائرة (التفسير بالمأثور) أو (التفسير النقلي) ، ظهرت مجموعة من التفاسير من أشهرها (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير ، (معالم التنزيل) للبغوى ، (الدر المنثور فى التفسير المأثور) للسيوطى ، وهذا التفسير يعد أشد هذه التفاسير تمسكا بالمذهب النقلي والتزاما لمنهجه.

حيث اقتصر على النقل دون إعمال للرأى . ويقع هذا التفسير فى ستة أجزاء . ووراء هذه الكتب الثلاثة كتب أخرى كثيرة .

بعد ظهور الطبرى وتأصيله التفسير النقلى ، ظهر اتجاه جديد فى التفسير يدعو إلى عدم الوقوف عند الروايات والآثار المأثورة عن السلف فقط ، وينادى بضرورة إعمال الرأى العقلى والاجتهاد الشخصى أيضا ، لأن القرآن نفسه دعا إلى التفكير والتدبر فى فهم آياته الكريمة.

وقد عرف هذا الاتجاه (بالتفسير العقلى) أو (التفسير بالرأى) . ومن المهم أن نسجل منذ البداية أن هذا الاتجاه انشعب إلى اتجاهين : اتجاه ظهر عند المفسرين المعتدلين الذين أعملوا العقل والرأى دون جنوح إلى المذاهب الإسلامية المحدثة التى ظهرت فى مجال الفكر الإسلامى ، ودون محاولة لتوظيف التفسير لخدمة هذه المذاهب وتأييد مبادئها والتعسف فى التماس الأدلة عليها من نصوص القرآن الكريم . واتجاه ظهر عند المتطرفين من أصحاب هذه المذاهب الذين راحوا يفسرون النصوص القرآنية فى ضوء مذاهبهم ونظرياتهم المذهبية ، فانحرفوا بها عن دلالاتها اللغوية المعروفة إلى دلالات جديدة تبدو أحيانا بعيدة عن الواقع اللغوى الثابت فى اللغة العربية ، والاستعمال الأدبى الذى جرت عليه هذه اللغة .

وقد اختلف العلماء حول التفسير بالرأى ، فبعضهم يبيحه ، وبعضهم يحرمه ، وحجة الذين يبيحونه أن الاجتهاد فى الفقه جائز ، ولولاه لتوقف الفقه عن الوفاء بحاجات الناس ، ولتعطلت كثير من مصالحهم ، ولوقف الفقهاء عن الفصل فى كثير من القضايا والأحكام ، وعلى هذا فما الذى يمنع من الاجتهاد فى تفسير القرآن ؟ والمجتهد مأجور إن أصاب ،

ومأجور أيضا إن أخطأ ، والنبي عليه السلام لم يفسر كل آيات القرآن ، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام ، وعلى ذلك فقد أباح الصحابة لأنفسهم إعمال عقولهم واجتهادهم فى تفسير ما لم يفسره لهم النبي ، واستكمال ما لم يستخرجه لهم من أحكام . ويؤيدون رأيهم بآيات من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :" أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا "(١)، وقوله سبحانه :" كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ "(٢)، ويؤيدونه أيضا بنصوص من الحديث النبوي كقول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن :" فبم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله ".

وحجة المانعين أن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم ، وهو ما لا يليق فى حق الله ، وأن أقصى ما يستطيع أن يصل إليه القائل به هو مجرد الظن الذى لا يصل إلى درجة اليقين ، مستندين فى ذلك إلى آيات من القرآن الكريم تنهى عن ذلك ، من مثل قوله تعالى :" قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . "(٣).

---

(١) سورة محمد – الآية ٢٤ . (٢) سورة ص – الآية ٢٩ . (٣) سورة الأعراف – الآية ٣٣ .

وقوله سبحانه :" وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا " (١).

وقد وقف العلماء يناقشون حجج الفريقين وأدلتهم ، وانتهى بعض المحققين منهم – كما يقول الراغب الأصفهانى فى (مقدمة التفسير) – إلى " أن المذهبين هما الغلو والتقصير ، فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ".

ونرى أن الموقف لا يفصل فيه بمثل هذا الجدل العقلى ، فليست المسألة منعا على إطلاقه ولا إباحة على إطلاقها ، وإنما الفيصل فى المسألة طبيعة هذا الاجتهاد ، ونوعية هذا الرأى الشخصى والهدف منه ، وهو مقياس يعود بنا إلى الاتجاهين الذين ظهرا فى هذا اللون من التفسير ، فاتجاه المعتدلين الذين لا يريدون إلا فهم النص القرآني وتفسيره جائز بدون جدل حوله أو مراء فيه ، وأما اتجاه المذهبيين المتعصبين لمذاهبهم ، الذين يلوون النص القرآني ليخدم أهواءهم أو نظرياتهم المذهبية ،

فغير مقبول بطبيعة الحال ، حرصا على قداسة النص القرآني ، والبعد به عن أن يكون وسيلة لتأييد هوى أو تأكيد مذهب ، وأيضا احتراما لطبيعة اللغة العربية الصحيحة دون انحراف بها إلى مسالك مضللة تتعثر فيها الخطى ، وتتوه معها معالم الطريق .

---

(١) سورة الإسراء – الآية ٣٦ .

ولعل هذا هو الذى جعل العلماء يضعون شروطا لابد من توافرها لكل من يفكر فى تفسير القرآن . وقد عقد السيوطى فى كتابه (الإتقان) فصلا طويلا سماه (شروط المفسر وآدابه) - (النوع الثامن والسبعون) . أحصاها فى خمسة عشر شرطا بالغة الدقة لا يحق لمن لم تتوافر له ، أو من لم تتكامل أدواتها له ، أن يجرؤ على تفسير القرآن . وهى - فى الحقيقة - ليست شروطا بقدر ما هى أدوات لابد من توافرها بين يدى المفسر قبل أن يقدم على التفسير ، أو هى - بعبارة أوضح - مجموعة العلوم الأساسية التى يحتاج إليها المفسر لفهم النص القرآني .. وهى :-

علوم اللغة الأربعة : اللغة والنحو الصرف والاشتقاق ، وعلوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، وعلم القراءات ، وعلم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وعلم أسباب النزول ، وعلم القصص ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم الحديث ، وأخيرا ما يسميه (علم الموهبة) وهو - كما يعرفه السيوطى - علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم " ، وإليه تشير الآية :" سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق " ، وقد فسرها بعض المفسرين بأن المراد منها نزع فهم القرآن عنهم ، ويقول الزركشى فى كتابه [البرهان] :" اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ، ولا تظهر له أسراره ، وفى قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو وهو مصر على ذنب أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم أو راجع إلى معقوله ، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض .

وقد وضع الزركشى فى (البرهان) منهجا لتفسير القرآن يمضى فى أربع خطوات ، وهى خطوات تحدد المصادر الأساسية التى لابد للمفسر من الرجوع إليها حتى يحق له التفسير بالرأى وهى :-

١- النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

٢ - الأخذ بقول الصحابي ، لأنه فى حكم المرفوع مطلقا ، وحدده بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه .

٣ - الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى مالا يدل عليه المألوف من كلام العرب ، حتى لا تخرج الآية عن ظاهرها إلى معان ظنية محتملة غير يقينية .

٤ - الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه الشرع ، ويقول : إن هذا هو الذى دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس فى قوله " اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل " . وينتهى من هذا إلى القول بأنه " لا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل " . وعلى أساس هذا المنهج ، واعتمادا على هذه الأدوات ، يكون التفسير بالرأى جائزا عند العلماء .

* وكتب التفسير بالرأى الجائز كثيرة من ناحية ، ومتعددة الاتجاهات من ناحية أخرى ، فمنها ما يغلب عليه الاهتمام بالمسائل النحوية ، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفية ، ومنها ما يغلب عليه الاهتمام بالقصص

والإسرائيليات ، ومنها ما تغلب عليه النزعة الأدبية والاهتمام بالجوانب الأسلوبية ولكن أشهر هذه الكتب :

(١) تفسير الرازي المسمى (مفاتيح الغيب) :-

وهو يقع فى ثمانية أجزاء ، وتسيطر عليه نزعة فلسفية واضحة ، ويتحكم فيه اتجاه عقلى منطقى ، فهو يكثر فيه من مناقشة المعتزلة والفلاسفة ، ويبنى أدلته فى الرد عليهم بناء عقليا منطقيا يعتمد على القياس المنطقى والاستدلال العقلى ، ويستطرد فيه كثيرا إلى العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية ، ويقف أحيانا عند القضايا النحوية والبلاغية ، ويتعرض للمسائل الفقهية ومذاهب الفقهاء فيها ، منتصرا لمذهب أهل السنة الذين كان يذهب مذ هبهم ، مدافعا عن عقيدتهم .

(٢) تفسير النسفى المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) :-

وهو فى أربعة أجزاء ، ويرى العلماء أنه مختصر من تفسير البيضاوى وتفسير الكشاف بعد تخليصه من الآراء الاعتزالية ليخلص لآراء أهل السنة ، وأيضا من الأحاديث الموضوعة فى فضائل السور . وهو يعنى بوجوه الإعراب والقراءات ، كما يعنى بالمسائل البلاغية عناية واضحة ، ويقف فى بعض المواضع عند آيات الأحكام ، ويشير إلى ما تتضمنه من مسائل فقهية . ولكنه يتناول كل هذه الجوانب فى إيجاز شديد .

(٣) تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) :-

وهو مطبوع في جزأين ، ويرى العلماء أنه مختصر من تفسير الكشاف للزمخشري بعد أن خلصه في كثير من مواضعه من الآراء الاعتزالية التي ذهب إليها صاحبه ، ليخلص بعد ذلك لآراء أهل السنة الذين كان يأخذ بمذهبهم . كما يرون أنه اعتمد أيضا على تفسير الرازي وبخاصة عندما يعرض لظواهر الكون والطبيعة . وجريا على منهج الزمخشري نراه يذكر في ختام تفسير كل سورة بعض ما نسب إلى النبي من أحاديث عن فضلها وثواب قارئها . وأكثر هذه الأحاديث بإجماع العلماء موضوعة ولا أصل لها .

(٤) تفسير الجلالين (جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي) :-

وقد اشترك العالمان الجليلان في هذا التفسير ، بدأه المحلي من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس ، ثم بدأ بتفسير الفاتحة ، وحالت وفاته دون إتمام بقية القرآن الكريم ، ثم جاء السيوطي فأكمل التفسير ، فبدأ من أول سورة البقرة حتى وصل إلى نهاية سورة الإسراء ليبدأ بعد ذلك تفسير المحلي لسورة الكهف . وقد التزم الجلالان في تفسيرهما الإيجاز والاختصار مع الدقة البالغة في تحديد العبارات والمعاني ، الأمر الذي جعل بعض العلماء يعكفون عليه يشرحونه ويعلقون عليه ويفصلون القول فيه. وأشهر هذه الشروح (حاشية الجمل) و (حاشية الصاوي) ، وهما

شرحان مطولان إلى درجة كبيرة . وتفسير الجلالين مطبوع طبعات متعددة ، أشهرها طبعته على هامش المصحف الشريف .

(٥) تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل فى معانى التنزيل) :-

وهو فى سبعة أجزاء ، اختصره مؤلفه من تفسير البغوى (معالم التنزيل) . والظاهرة التى تلفت النظر فى هذا التفسير عنايته الواضحة بالأخبار التاريخية والقصص الإسرائيلي التى يذكرها دون تعليق عليها أو نقد لها ، على الرغم مما فى طائفة منها من غرابة أو مخالفة للعقل أو من منافاة لمقام النبوة . وكذلك نلاحظ عليه اهتماما واضحا بالمسائل الفقهية عند تفسيره لآيات الأحكام حيث نراه يطيل فى عرض مذاهب الفقهاء وأدلتهم ، ويستطرد إلى مسائل فرعية لا صلة لها بالتفسير . كما نلاحظ عليه أيضا اهتماما بالمواعظ والإكثار من أحاديث الترغيب والترهيب ، وربما كان لنزعته الصوفية أثر فى ذلك . ولكن اهتمامه بالقصص والإسرائيليات أساء إليه وصد الناس عنه إلا من كان له شغف بالقصص والأخبار التاريخية .

(٦) تفسير أبو السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) :-

وهو يقع فى خمسة أجزاء ، وقد اعتمد فيه على تفسير الكشاف وتفسير البيضاوى ، وأخذ عنهما ما يتفق مع منهجه ، ورفض ما لا صلة له به ، فجاء تفسيره خالصا لوجه التفسير ، بعيدا عن كل ما اختلط به عند غيره من المفسرين من خروج واستطراد إلى شتى

أنواع العلوم التى لا صلة لها به . والصورة العامة لهذا التفسير أنه تفسير أدبي يعنى عناية أساسية بالجوانب البلاغية فى التعبير القرآني فى محاولة للكشف عن ظواهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، مع الحرص على جمال الصياغة ورشاقة التعبير مما يدل على تذوق مرهف للنص القرآني ، وخبرة دقيقة بأسرار العبارة العربية . ومن هنا يعد هذا التفسير أول تفسير أدبي خالص عرفه تاريخ التفسير . وهو – من أجل ذلك – يهتم اهتماما واضحا ببيان وجوه مناسبات الآيات بعضها إلى بعض ، وما يربط بينها من روابط السياق اللفظي والمعنوي ، حتى تتبين وحدة النص القرآني المعجز . ومن أجل ذلك أيضا لا يعنى بالقراءات أو الإعراب إلا بمقدار ما يحقق له فهم الآية وتوضيح معناها ، ولا يكثر من الإسرائيليات التى يبدو من عباراته أنه لم يكن يطمئن إليها أو يثق بها . وكذلك نراه قليل الاهتمام بالمسائل الفقهية والخلافات حولها ، لأن كل هذه الجوانب بعيدة عن الهدف الذى ألف تفسيره من أجله ، وهو بيان وجوه الإعجاز الأدبي للنص القرآني .

(٧) تفسير أبى حيان المسمى (البحر المحيط) :-

وهو فى ثمانية أجزاء ، والظاهرة البارزة فيه اهتمامه الكبير بالقضايا النحوية والإعرابية مع عناية خاصة بالمسائل الخلافية بين النحاة التى لا يكاد يعرض لها حتى يطيل إطالة ملحوظة تجعل

تفسيره أقرب إلى النحو منه إلى التفسير . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه كان إماما من أئمة النحو فى عصره ، اهتم اهتماما واضحا بكتب ابن مالك يدرسها ويشرحها ويقربها للناس ، ومن بين كتبه المشهورة شرح لكتاب التسهيل لابن مالك . ولكن هذا الاهتمام الكبير بالنحو والإعراب لم ينسه مهمته الأساسية وهى التفسير ، فنراه يقف عند أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والقراءات الصحيحة والشاذة ، وأيضا عند الجوانب البلاغية ، والجوانب الفقهية التى تتضمنها آيات الأحكام من خلال عرضه لآراء المذاهب الفقهية الأربعة ؛ ثم يختم تفسيره لكل آية بالمعنى الإجمالي لها . وهو – فى أثناء هذا كله – يحرص على ذكر مصادره المختلفة التى أخذ عنها مادته المتعددة الجوانب .

(٨) تفسير الألوسى المسمى (روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى):

وهو آخر التفاسير فى مكتبة التفسير القديمة ، وهو تفسير كبير ، يقع فى ثلاثين جزءا بعدد أجزاء القرآن الكريم . اعتمد فيه صاحبه على كل كتب التفسير التى سبقته ، وجمع منها خلاصة أمينة دقيقة كانت هى الأساس الذى أقامه عليه ، والمحور الذى أداره حوله ، ومن مظاهر هذه الأمانة وهذه الدقة ذكره لمصادره التى نقل عنها ، والعلماء الذين أخذ عنهم ، وهو لا يكتفى بمجرد النقل ، ولكنه ينقد الآراء ويناقشها ويبدى رأيه فيها ، وينصب من نفسه حكما بينها . وقد ذكر فى مقدمته أنه شغل بتأليفه على امتداد خمس

عشرة سنة قضاها فى الاطلاع على التفاسير القديمة ومراجعة آرائها وتصنيفها حتى استقام له تفسيره على هذه الصورة الموسوعية الغنية بالمعارف والمعلومات المختلفة ، فهو لا يكاد يترك فرصة تتاح له للحديث فى علم من العلوم إلا استغلها واستوفى القول فيها . أما من الناحية التفسيرية الخالصة فهو يعنى ببيان المناسبات بين السور وبين الآيات بعضها وبعض ، ويذكر أسباب النزول ، ويرصد القراءات المختلفة ، ويكثر من الاستشهاد بالشعر على معانى الكلمات ودلالاتها واستخدامها اللغوى والأدبي . ولكنه يقف من الإسرائيليات موقفا متشددا ينقدها ويفندها وأحيانا يسخر منها ، ويرفض الأخذ بما تحمله من تفصيلات ، ويرى أنها لا قيمة لها ولا تقدم للتفسير أى فائدة محققة .

أما الاتجاه الثانى من التفسير بالرأى :-

فهو تفسير أصحاب الفرق والمذاهب الذين يوظفون النص القرآني لتأييد نظرياتهم المذهبية ، وهو أيضا متعدد الاتجاهات تعدد هذه الفرق والمذاهب التى انتشرت فى ساحة الفكر الإسلامي ، ولكننا نستطيع أن نحصرها فى ثلاثة اتجاهات كبرى : تفسير المعتزلة ، وتفسير الشيعة ، وتفسير المتصوفة .

أما المعتزلة فيغلب على تفسيرهم الطابع العقلى والجدل الكلامى الذى عرفوا به ، تأسيسا على قولهم بالحسن والقبح العقليين : " الحسن ما حسنه

العقل ، والقبيح ما قبحه العقل ". وأقاموا تفسيرهم على أصول مذاهبهم الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فنظروا إلى القرآن من خلال هذه الأصول ، وأخضعوا آياته لآرائهم ، ومضوا يفسرونها بما يتفق مع عقائدهم . ومن أجل ذلك كان لابد لهم من الاعتماد على العقل ، يحكمونه فى النص القرآني ليؤيدوا به مذهبهم ، ويوجهوا آراءهم ، حتى لو تعارض مع النقل الذى جعله المفسرون – حتى من قالوا بالرأى – الأصل الأول للتفسير .

وقد دفعهم هذا الإيمان المطلق بالعقل إلى رد الأحاديث الصحيحة التى تعارض مذهبهم ولا تستقيم مع آرائهم ، أو إلى توجيهها لتتفق مع مذهبهم وتستقيم مع آرائهم ، وجعلوا الاجتهاد فى فهم النص القرآني منهجا لهم ، فتعددت بسبب ذلك مواقفهم منه ، واختلفت تأويلاتهم لآياته ، وقطعوا بأن كل ما انتهوا إليه من تأويلات إنما هى مراد الله الذى أراده من آياته ، مخالفين بذلك مذهب أهل السنة الذين يقولون بأن لكل آية معنى واحد أراده الله ، وأن ما تحتمله الآية بعد ذلك من معان ليست إلا اجتهادات غير قطعية .

وعلى أساس هذا الاجتهاد وقفوا من المتشابه موقفهم المعروف الذى يعتمد على التأويل اللغوى للألفاظ من خلال ظاهرة (المجاز) فى اللغة ، متخذين من نصوص الشعر العربى شواهد يؤكدون بها تأويلاتهم المجازية. وفى دائرة هذا الاجتهاد فى التأويل ، ومن أجل توجيه النص القرآني لمذهبهم لم يرفضوا القراءات الشاذة أو غير المتواترة مادامت تؤكد

مذهبهم ، وتؤيد عقيدتهم . فمثلا فى قوله تعالى :" وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا " (١)، يأخذ بعضهم بقراءة من نصب لفظ الجلالة ، ورفع موسى على أنه فاعل ، حتى ينفى الكلام عن الله ، وبعضهم يتأول معنى (كلم) فيجعله من (الكلم) بمعنى (الجرح) ، ويحمل المعنى على المجاز بأن الله جرح موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن . وفى قوله تعالى فى شأن اليهود :" وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ "(٢)، أخذ بعضهم بقراءة أبى عمرو بن العلاء (غُلُف) ، وتأولها على معنى جمع غلاف ، وجعل المعنى أن قلوبهم أوعية حاوية للعلم فلا حاجة بهم إلى ما جاء به محمد ، وذلك لأنه رأى أن القراءة المشهورة التى قرئت بها الآية (غُلْف) لا تتفق مع قولهم بمبدأ العدل لأنها تجعل الله هو الذى منعهم عن الهدى واضطرهم إلى الضلال حين خلق قلوبهم غلفا لا تقبل الإسلام .

وأشهر تفاسير المعتزلة ، وأكثرها اعتدالا وبعدا عن التطرف المذهبي ، تفسير الزمخشرى المسمى (الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل ، فى وجوه التأويل) . وبعيدا عن النزعة الاعتزالية التى تطل علينا من حين إلى حين فى هذا التفسير ، يعد الكشاف أهم تفسير شغل بدراسة الإعجاز القرآني ومحاولة الكشف عن وجوهه وأسراره ، وقد استطاع الزمخشرى أن يتغلغل فى أعماق الأسلوب القرآني ، وينفذ إلى أغواره ، ويستخرج ما فى كنوزه من جواهر الإعجاز البياني . ويعد الزمخشرى – بحق – القمة الشامخة التى وصل إليها البحث فى هذا المجال .

---

(١) سورة النساء – الآية ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة – الآية ٨٨ .

وهى قمة أتاحتها لـه ثقافاتـه اللغويـة والأدبيـة والبلاغيـة والنحويـة الواسعة ، وأعانه عليها حس فنى مرهف ، وذوق أدبي شديد الحساسية، ومن هذه الناحية الفنية تأتى الميزة الأساسية لهذا التفسير ، وتبرز أهميته التى لاتجد لها مثيلا فى كتب التفسير القديمة ، مما جعله يحتل مكانة فريدة متميزة فى تاريخ التفسير حتى اليوم .

وأما الشيعة فقد تعددت مناهجهم فى تفسير القرآن تعدد فرقهم التى انقسموا إليها ، واختلفت مواقفهـم منـه بمقـدار مـا اختلفـت مذاهبهـم . ومعروف أن الشيعة فرق كثيرة ، ولكن أهمها ثلاث فـرق : الإماميـة الاثناعشرية ، والإماميـة الإسماعيلية أو الباطنيـة ، والزيديـة . وأشد هذه الفرق تطرفا وغلوا الباطنيـة ، وأشدها اعتدالا الزيديـة . وبطبيعة الحال انعكس هذان الموقفان على تفسير الفرقتين ، فكـان تفسير الباطنيـة أبعد تفاسير الشيعة عن النص القرآني ، وكان تفسير الزيدية أقربـــها إليه .

وأما الاثنـا عشرية فقد وقفوا موقفا وسطا بين الفرقتين سواء فى المذهب والعقيدة أو فى التفسير والتأويل .

والشيء الذى اتفقت عليه الفرق الثلاث فى تفسير القرآن هو اتخاذ النص القرآني وسيلة لتأكيد مذاهبهم وإثبات معتقداتهم والدفاع عنها حتى لو اضطروا إلى التأويل البعيد والرمز الغريب وتحميل النص المقدس مالا يحتمله من معان ، وصرف اللفظ القرآني إلى غير دلالته اللغوية المعروفة. ثم تختلف بعد ذلك مناهجهم فى التطبيق .

أما الاثنا عشرية فقالوا بعصمة أئمتهم ، وأن عندهم علم القرآن كله ، فلا يحق لغيرهم أن يقول فيه إلا بما سمعه منهم، وأن الله فوضهم تفسير آيات القرآن وتأويلها ، وأعطاهم حقا الهيا بأن يقولوا فيه بما يرونه مناسبا للمصلحة العامة ، ولهم – بناء على ذلك – أن يقولوا بالظاهر إن شاءوا ، أو أن يتركوا الظاهر إلى ما يدعون أن الله ألهمهم به . وذلك لأن للقرآن ظاهرا وباطنا ، بل له أكثر من باطن ، وادعوا أن الله جعل ظاهر القرآن فى الدعوة إلى التوحيد والرسالة ، وجعل باطنه فى الدعوة إلى الإمامة والولاية وما يتصل بهما . ومن أجل ذلك راحوا يتأولون ما يخالف مذهبهم من الآيات والأحاديث ، فأخذوا بقراءات شاذة ادعوا أنها مروية عن أهل البيت ، ووقفوا من الأحاديث موقفين : الرد أو التأويل ، فما لا يتفق مع مذهبهم ردوه أو تأولوه ، وجعلوا مصادرهم الأساسية كتب الحديث المروية عن أئمتهم ، وفيها أحاديث كثيرة موضوعة على النبي عليه السلام تؤيد مذهبهم .

ولهذه الفرقة من الشيعة كتب كثيرة فى التفسير ، فهى أكثر فرق الشيعة تراثا فى هذا المجال ، وقد أحصى الدكتور محمد حسين الذهبي فى كتابه [١] ، ثلاثة عشر تفسيرا ، ووراءها كتب أخرى كثيرة لم تصل إلينا . وربما كان من أشهرها تفسير الطبرسى (مجمع البيان لعلوم القرآن)

وقد التزم الطبرسى فى تفسيره منهجا ثابتا لم يكد يخرج عنه ، فهو يذكر فى بداية تفسيره للسورة أنها مكية أو مدنية ، ثم يذكر اختلاف العلماء

---

(١) التفسير والمفسرون جـ٢/٤٢ وما بعدها .

في عدد آياتها ، والقراءات المختلفة فيها ، ثم يتحدث عن سبب نزولها ، وبعد ذلك يأخذ في تفسيرها ، واقفا عند سياق الآيات وترابطها ومناسبة بعضها إلى بعض ، وينقل في أثناء ذلك آراء المفسرين ، ويناقشها ، ويرجح ما يختاره منها مما يتفق مع مذهبه وعقيدته ، معتمدا - كسائر الشيعة - على كثير من الأحاديث الموضوعة التي تروى عن أئمتهم ، ومشيرا من حين إلى حين إلى ما تحتمله الآيات من تفسير باطني .

ففي آية سورة النور - مثلا - : " اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَاشَرْقِيَّةٍ وَلَاغَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "[1] . ينقل عن بعض مصادره الشيعية أن المشكاة هي الشيعة ، وأن المصباح هو النبي ، وأن الزجاجة هي صدر علي ، صار عِلْمُ النبي إلى صدر علي ، وأن الشجرة المباركة هي نور العلم ، وأنها (لاشرقية ولاغربية) أي لا يهودية ولا نصرانية ، (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) أي يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل ، (نور على نور) أي إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في إثر إمام من آل محمد إلى أن تقوم الساعة . وينتهي من ذلك إلى أن الشجرة المباركة المذكورة في الآية هي دوحة التقى والرضوان ، شجرة أصلها النبوة ، وفرعها الإمامة ، وأغصانها التنزيل ، وأوراقها التأويل ، وخدمها جبريل وميكائيل " .

---

(١) سورة النور - الآية ٣٥ .

ومع ذلك فالطبرسى من أشد الشيعة اعتدالا فى تفسيره وبعدا عن الغلو والتطرف .

وأما الباطنية فأساس مذهبهم فى التفسير القول بالباطن معتمدين فى ذلــك على تأويل الآيات تأويلا يبعد بها كثيرا عن دلالاتها اللغوية المعروفة ، ليدخل بها فى تيه سحيق من الرمز الغريب المتكلف البعيد عن النص القرآني . وفى رأيهم أن ظاهر القرآن الذى تدل عليه اللغة ليس هو المراد من القرآن ، وإنما المراد باطنه ، كشأن الثمرة لا يراد منها قشرها وإنما يراد ما فى باطنها من لب . " ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر " - على حد تعبيرهم . وعلى هذا فقد مضوا فى تفسيرهم على أساس من إنكار الظاهر والأخذ بالباطن وحده وأولوا الآيات على هذا الأساس بما يتفق مع مذهبهم وعقائدهم ، فالملائكة - فى تأويلاتهم - هم دعاتهم ، والشياطين هم المخالفون لهم ، ومعجزات الأنبياء ليست حقيقية ولكنها رموز ، فطوفان نوح هو طوفان العلم ، ونار إبراهيم هى غضب نمرود عليه ، وعصا موسى هى حجته التى تلقف ما أثاروه ضده من شبهات ، وانفلاق البحر هو افتراق علم موسى فى بنى إسرائيل ، وتسبيح الجبال لداود تسبيح رجاله الأشداء الراسخين فى اليقين ، وجن سليمان هم باطنية زمانه ، وشياطينه هم الظاهرية ، وإحياء عيسى للموتى رمز للعلم بعد الجهل ، وإبراؤه للعمى والبرص يراد به عمى الضلالة وبرص الكفر. وهكذا مضوا فى تأويلاتهم الغريبة البعيدة عن دلالة اللغة وواقع النص القرآني .

وليس للباطنية تفسير مستقل كامل للقرآن الكريم ، وإنما لهم تفاسير متفرقة لبعض الآيات . وأغلب الظن أن السبب فى هذا يرجع إلى أنهم عجزوا عن تأويل القرآن كله وفق مذهبهم ، فاكتفوا بالآيات التى استطاعوا توجيهها لتأويلهم .

وأما الزيدية فالأمر معهم يسير وواضح ، فليس بينهم وبين أهل السنة خلاف كبير ، فهم أقرب فرق الشيعة إليهم ، وأبعدهم عن غلو المتطرفين منهم وتأويلاتهم . ومن هنا كان تفسيرهم قريبا من تفسير أهل السنة ، غاية ما فى الأمر أنهم كانوا يشترطون الاجتهاد فى أئمتهم ، فكثر الاجتهاد فى تفسيرهم . كما كانوا لا يقبلون إلا الأحاديث التى تروى عن طريق أهل البيت ، فلم يأخذوا بالأحاديث التى رويت عن طريق غيرهم من الصحابة. وأيضا كانوا متأثرين إلى حد كبير بآراء المعتزلة ، لأن إمامهم زيد بن على كان تلميذا لواصل بن عطاء رأس المعتزلة فى عصره .

وللزيدية تفاسير كثيرة ضاع أكثرها ، ومازالت طائفة منها مخطوطة فى خزائن الكتب حتى اليوم. وأهم ما وصل إلينا منها تفسير الشوكانى (ت ١٢٥٠) المسمى (فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير) ، وهو مطبوع فى خمسة أجزاء ، ومنهجه فيه يقوم على أساس الأخذ بالمنهجين اللذين عرفا فى تاريخ التفسير : المنهج النقلى الذى اعتمد عليه التفسير بالمأثور ، والمنهج العقلى الذى اعتمد عليه التفسير بالرأى ، وأن الاعتماد على أحد المنهجين يعد خطأ وتقصيرا. وعلى هذا الأساس عاد إلى كتب التفسير القديمة ينقل عنها ويرجح بين رواياتها المختلفة ، ولكنه جعل مصدره الأساسى تفسير السيوطى (الدر المنثور)

الذى يصرح فى مقدمة تفسيره بأنه قد اشتمل على جميع ما تدعوا إليه الحاجة مما يتعلق بالتفسير ، وأضاف إلى ذلك رأيه الخاص واجتهاده الشخصى فيما كان له رأى فيه يختلف عن آراء المفسرين القدماء أو ينفرد به ، وقد أعطى لنفسه حرية واسعة فى الاجتهاد ، لأنه كان يرى أنه مجتهد لا يقل عن غيره من المجتهدين ، وأن الوقوف عند حد التقليد خطر على التفسير ، كما هو خطر على الفقه والتشريع . ومن خلال هذا الموقف نراه لا يلتزم بكل ما روى عن القدماء من أهل السنة ومن المعتزلة على السواء ، بل إننا نراه أحيانا يحمل على آرائهم ويسخر منها .

وأما **المتصوفة** فقد كان لهم مذهبان فى التفسير : مذهب نظرى ، ومذهب إشارى أو فيضي ، وذلك نتيجة لأن التصوف الإسلامى ظهرت فيه مدرستان أساسيتان : مدرسة التصوف النظرى الذى يقوم على بحث التصوف ودراسته ، ومدرسة التصوف العملى الذى يقوم على الزهد والفناء فى طاعة الله . و من الطبيعى أن تسلك كل من المدرستين منهجا خاصا بها فى التفسير يتفق مع منهجها فى التصوف ، ويحقق هدفها منه . ومن أجل تطبيق هذا المنهج ، وتحقيق هذا الهدف ، لجأ المتصوفة إلى التأويل ولو أدى إلى الخروج باللغة عن دلالاتها المعروفة ، أو الخروج بالنص القرآني عن حقيقة معناه ، كما اتجهوا إلى نظريات الفلاسفة والطبيعيين فى تفسيرهم لبعض الآيات . ويغلب على تفسيرهم ما عرفوا به من شطحات روحية تجعل كلامهم غامضا إلا على الذين لهم صلة وخبرة بأساليبهم فى الكلام .

وأهم من يمثل الاتجاهين ابن عربى (ت ٦٣٨) فى كتبه المختلفة كالفتوحات المكيــــة والفصـوص ؛ وأيضـا فى التفسير المنسوب إليه ، والذى يشك فيه بعض العلماء ومنهم الإمام محمد عبده ، فيرون أنه لإمام من أئمة الباطنية ، وهو عبد الرزاق القاشانى الصوفى (ت ٧٣٠) ، وهو مطبوع فى مجلدين .

ويقوم تفسير ابن عربى فى المجال الأول – المجال النظرى – على أساس نظريته فى وحـــدة الوجود ، وهى أهم نظرية بنى عليها تصوفه . وهى تدور على فكرة أنه ليس هناك إلا وجود واحد هو الله ، فهو الموجود الحق ، وكل ما سواه ظواهر وأوهام ، لا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز . وهذه النظرية سيطرت على مذاهب كثير من المتصوفة حتى أباح الحلاج لنفسه من خلالها أن يقول " أنا الله " ، كما دفعت ابن عربى إلى القول بوحدة الأديان السماوية وغير السماوية ، لأن كل المؤمنين بها يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات .

على أساس من هذه النظرية مضى فى تفسيره ، يوجه الآيات ليؤكدها بها ، ويشدها فى تكلف شديد ليخضعها لها ، ولا يبالى – فى سبيل ذلك – بأن يخرج بها عن دلالاتها اللغوية والقرآنية . فمثلا فى تفسيره لقوله عز وجل عن النفس المطمئنة :" فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي "[1].

---

(١) سورة الفجر- الآية ٢٩ ، ٣٠ .

ويقول فى كتابه :" الفصوص " : " وادخلى جنتى التى هى سترى ، وليست جنتى سواك ، فأنت تسترنى بذاتك الإنسانية فلا أعرف إلا بك ، كما أنك لا تكون إلا بي ، فمن عرفك عرفنى ، وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف ، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك ، فتعرف نفسك معرفة أخرى غير المعرفة التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها ، فتكون صاحب معرفتين : معرفة به من حيث أنت ، ومعرفة بك من حيث هو لا من حيث أنت ، فأنت عبد رأيت ربا ، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد .

وأنت رب وأنت عبد ∴ لمن له فى الخطاب عهد

وإلى جانب هذا الأساس من القول بوحدة الوجود ، نرى أساسا آخر يقوم عليه تفسيره ، وهو تلك النظريات الفلسفية فى أبحاث الفلاسفة القدماء فى الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وهى بدورها تشكل قاعدة أخرى قامت عليها فلسفة ابن عربى الصوفية ، ففى أكثر من موضع من تفسيره نراه يخضع الآيات لهذه النظريات ، ويفسرها على أساسها تفسيرا يخرج بها عن حقيقتها . فى قوله عز وجل :" مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان " ، يقول فى التفسير المنسوب إليه :" مـرج البحرين " بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات . (يلتقيان) فى الوجود الإنساني . (بينهما برزخ) هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ؛ ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها . (لا يبغيان) لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله

من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديا . سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء ".

وأما تفسير ابن عربى فى المجال الثانى – المجال الإشارى أو الفيضى – فهو يقوم على أساس تأويل الآيات على خلاف الظاهر منها بمقتضى إشارات خفية لا تظهر إلا لمن سلك طريق التصوف ، وجاهد نفسه مجاهدة روحية ، حتى وصل إلى درجة الكشف الروحى التى " تتكشف عندها سجف العبارات عن هذه الإشارات القدسية ، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف الربانية " . ولكن هذه الإشارات القدسية أو هذا الفيض الرباني لا يمنع من إرادة المعنى الظاهر الذى تدل عليه اللغة دلالاتها المعروفة . وهذا هو معنى قولهم أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن لكل آية ظهرا أو بطنا ، وأن فهم الباطن هو التأويل ، وفهم الظاهر هو التفسير .

وعلى أساس هذا القول بالظاهر والباطن قام هذا اللون من التفسير عند الصوفية . فاعترفوا بظاهر الآيات ولم ينكروه ، ولكنهم راحوا يؤولونها ليصلوا إلى ما وراء هذا الظاهر من باطنها ، ولم تكن بين أيديهم وسيلة لهذا التأويل إلا حسهم الصوفي وذوقهم الوجداني يكشفان لهم ما فى الآيات من إشارات قدسية ، ويفيضان عليهم ما فيها من رموز ربانية اختصهم الله بعلم أسرارها . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن اختلفت تأويلاتهم ، فجاء بعضها مقبولا ، وجاء بعضها شطحات غريبة لا يقبلها العقل . ولذلك يشترط العلماء فى هذا اللون من التفسير ليكون مقبولا شرطين أساسيين :

أن تكون دلالته الباطنية أو الإشارية صحيحة من وجهة النظر اللغوية بحيث لا يكون هناك خروج على واقع اللغة ، ولا استحالة فى التوفيق بينها وبين الدلالة اللغوية . وأن يكون لهذه الدلالة الباطنية شاهد صريح ظاهر فى موضع آخر من القرآن يشهد بصحتها دون تكلف فى التأويل .

ومع ذلك فهناك من العلماء من يقبل هذا التفسير على علاته بدون أى شروط لصحته ، على أساس أن للصوفية عالمهم الروحى الخاص بهم الذى لا يصل إليه إلا من سلك طريقهم وجاهد نفسه جهادهم . وقد قال بعض العلماء تعليقا على تائية ابن الفارض :" من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأى مارأوا " ، وفى هذا يقول ابن خلدون فى مقدمته :" وليس البرهان والدليل بنافع فى هذه الطريقة ردا . أو قبولا ؛ إذ هى من قبيل الوجدانيات ".

ونستطيع أن نرى مثلا لهذا التفسير الإشارى عند ابن عربى فى تفسيره لقوله عز وجل : " إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون " يقول :" إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف ، ونوى النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم ، ويخرج حى القلوب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها ، ومخرج ميت النفس عن حى القلب أخرى بإقباله عليها ، واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه ، ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم ، وتقليبكم فى أطواركم ، فأنى تصرفون عنه إلى غيره ؟ ".

هذه هى اتجاهات التفسير الأساسية التى عرفها تاريخ التفسير القرآنى وهى – كما رأينا – ترجع إلى المنهجين الأساسيين فيه ، وتدوران فى

دائرتيهما : التفسير النقلى أو التفسير بالمأثور ، والتفسير العقلى أو التفسير بالرأى . وفى داخل هاتين الدائرتين – بعد أن تم التقارب بينهما والأخذ بهما جميعا – دار التفسير فى العصر الحديث ، مع محاولات واضحة للأخذ بالتفسير الأدبي الذى يحاول الكشف عن خصائص الأسلوب القرآني ، والوصول إلى أسرار إعجازه البياني من حيث هو أهم وجوه الإعجاز لكتاب العربية الخالد ، القرآن الكريم . وهذا هو الجديد الذى أضافه المفسرون المحدثون لذلك التراث الضخم الرائع الذى خلفه القدماء .

ولعل أهم تفسير ظهر فى العصر الحديث تفسير المنار الذى بدأه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥م) ، وسار على هديه تلميذه السيد محمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥). وعلى نهجهما سار كثير من المفسرين من بعدهما ، شكلوا جميعا مدرسة متميزة فى تاريخ التفسير ، هى مدرسة الأستاذ الإمام . وأهم ما يميز هذه المدرسة أنها نظرت إلى القرآن نظرة حرة بعيدة عن الوقوع تحت تأثير مذهب بعين من مذاهب التفسير القديمة كما أنها وقفت موقفا علميا دقيقا من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والموضوعة ، فلم تقع فيما وقعت فيه بعض التفاسير القديمة من الأخذ بها . وكان من نتيجة هذا أنها تجنبت الخوض فى الأمور الغيبية التى اعتمد القدماء فى تفصيلاتها على هذه الإسرائيليات وهذه الأحاديث .

ثم تأتى بعد ذلك – بل قبل ذلك – أهم ميزة تميز هذه المدرسة ، وهى هذا المنهج الأدبي الذى يحاول الكشف عن أسرار الإعجاز القرآني البياني.

وتفسير المنار مزيج من تفسير الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا ، بدأه الأستاذ الإمام من أول الفاتحة حتى انتهى إلى تفسير الآية ١٢٦ من سورة النساء : " ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان الله بكل شئ محيطا " ، ثم وافاه أجله ليأتى من بعده تلميذه فيكمل ما بدأه أستاذه حتى انتهى إلى الآية ١٠١ من سورة يوسف :" رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت ولي فى الدنيا والآخرة ، توفني مسلما وألحقنى بالصالحين " ، ثم عاجلته منيته قبل أن يتم تفسير القرآن كله . ويقع هذا التفسير فى اثنى عشر جزءا . ولكن الأستاذ الإمام لم يكن يكتب تفسيره ، وإنما كان يلقيه محاضرات على تلاميذه فيكتبونها عنه ، وكان السيد محمد رشيد رضا من بين من يكتبون عنه ، فكان يعيد النظر فى هذه المحاضرات ، ويتصرف فيها فى حدود ضيقة ، ثم يقوم بنشرها فى المجلة التى كان يصدرها (المنار) بعد أن يعرضها على الأستاذ الإمام لإقرارها واعتمادها للطبع ولذلك كان الأستاذ الإمام يقول عنه :" صاحب المنار ترجمان أفكاري " .

ولكن لم يكن هذا التفسير هو كل ما قام به الأستاذان الكبيران ، فللأستاذ الإمام تفسير لجزء عم ، وهو مطبوع وحده ، وللأستاذ محمد رشيد رضا تفسير لبعض قصار السور : الكوثر والكافرون والإخلاص والمعوذتين . وهو فى تفسيره ينهج نهج أستاذه ويسلك مسلكه ولا يكاد يختلف عنه إلا قليلا.

الباب الثاني

التبيان في الشريعة السمحاء

تمهيد

مسايرة العبادات للفطرة الإنسانية

معنى الفطرة ؟

يقول عزل وجل : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[١]".

ويقول صلى الله عليه وسلم ، فى حديث صحيح : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " ، قيل فى شرح الحديث : إن المقصود بالفطرة هنا .. هو صلاحية المولود لتوجيهه وجهة الخير أو الشر ، وما فيه من قوى نفسية قابلة للمضى فى كلا الطريقين كما قال عز وجل: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا[٢] " .

وفى تفسير قوله تعالى : " فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا " ، يقول صاحب المنار : هى الجبلة الإنسانية الجامعة بين الحياتين : الجسمية الحيوانية ، والروحانية الملكية . والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة ، وعالم الغيب فيهما ، وما أودع فيهما من غريزة الدين المطلق . الذى هو الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق الكون ، والسنن ، والأسباب التى قام بها نظام كل شئ فى الكون المطلق . الذى هو الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق الكون ، والسنن ، والأسباب التى قام بها نظام كل شئ فى العالم .

---

(١) سورة الروم – الآية ٣٠.

(٢) سورة الإنسان – الآية ٣.

فرب هذا السلطان .. هو فاطر السموات والأرض وما فيهما ، والمصدر الذاتي للنفع والضر ، المحركين لشعور التعبد الفطري وطلب العرفان الغيبي ، فالعبادة الفطرية هى التوجه الوجداني إلى هذا الرب ، فى كل ما يعجز الإنسان عنه ، من نفع يحتاج إليه ، ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضر يمسه أو يخافه، ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله ، وفى كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته والوصول إليه (١).

فالفطرة هى الحالة الأولى التى جبل عليها الإنسان ، قبل أن تدنسه الشهوات والأهواء ، والفطرة هى الرجوع إلى الطبيعة السوية ، وكل محاولة من الإنسان للتوبة إلى ربه تعالى ، والتخلص من آفات النفس وشهواتها ، والصلح مع الله وحده ، والاعتصام به من كل الشرور والآثام، إنما هى عودة إلى الفطرة ، عودة إلى النقاء والصفاء ، عودة إلى الطهر والنبل وسمو الروح .

وفى حديث الإسراء والمعراج ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : " ثم أتيت بإناء من خمر وإنا من لبن ، فاخترت اللبن ، قال جبريل اخترت الفطرة ..." ، أى أنك يا محمد اخترت الدين السمح السهل ، المتمشي مع الفطرة الإنسانية فى شتى أطوارها ومراحلها المختلفة ، المنمى لأتباعه روحيا وجسديا ، كما ينمى اللبن جسد الطفل الرضيع .

هذا هو الإسلام دين الفطرة .. تتقبله الطبيعة الإنسانية ، ولا تتأبى عليه ، وهو يتقبلها ولا يتأبى عليها ، وإنما يلتقيان لقاء الحب والمودة فى منتصف الطريق.

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ٢٤٥/١١.

من هنا كان الإسلام – باعتباره خير الأديان ، وباعتباره جامعاً لمحاسن الرسالات السابقة كلها جمعاء – أنجع ما يكون في كل مكان وصل إليه ، وأدوم ما يكون في كل نفس آمنت به ، وأقوى ما يكون في كل ذات دافعت عنه ، وإنه ليصل عمله في سائر النفوس ، حتى ليمتزج بالروح ، ويختلط بالقلب ، فلا بقاء لهما إلا معاً .

كيف خاطب الإسلام الفطرة الإنسانية ؟

أولاً – في العقيدة :–

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد الحق ، وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ولا شبيه، ولا مثيل ، ولا ند ، ولا والد ولا ولد : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ(١) ". وهذه العقيدة تتفق تماما مع روح الفطرة الإنسانية،التي تميل للانقياد إلى معبود واحد، لا ينازعه منازع،ولا يشاركه مشارك .

ولكي تطمئن فطرة الإنسان إلى صانع الكون ، ومسبب الأسباب وحده .. جاءت الأوامر الإلهية صريحة في منع الشرك ظاهرا وخفيا ، وحذرت النصوص الشريفة أبلغ تحذير من الخضوع لغير الله ، والاستعانة بغير الله ، والتوسل لغير الله ، وهذه التوجيهات السماوية كلها تقطع جذور الخضوع لغير الإله الواحد ، الفرد .. المستحق وحده للعبادة . يقول عز وجل : "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ".

---

(١) سورة الإخلاص .

ويقول صلى الله عليه وسلم : أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر .. قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء .. يقول الله تعالى يوم يجازى الناس بأعمالهم " اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون لهم فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم خيرا ".

ويعلنها القرآن صراحة ، فى غير غموض ولا إبهام : " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (١) ".

ويبين القرآن كذلك أنها كانت دعوة جميع الرسل السابقين : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢) ".

ثانيا – مجال العبادات :-

سلك الإسلام فى مجال العبادة مسلكا يتسم بالتلاؤم مع الفطرة الإنسانية من وجوه عدة :

١ – أهمية العبادة وضرورتها للفطرة :-

يتأمل المفكرون الإسلاميون كثيرا من العادات التى تمسك بها أهل الغرب ، حتى صارت جزءا من نظام حياتهم اليومية ، ومنها :

- الحرص الشديد على النظافة العامة ، والنظافة الشخصية .
- الالتزام الشديد بالمواعيد والمحافظة عليها .
- التقدير الدقيق لقيمة الزمن .

---

(١) سورة البينة – الآية ٥ .

(٢) سورة الأنبياء – الآية ٢٥ .

- التطبيق الدقيق لحرفية النظام فى جميع المجالات .
- الاهتمام الفائق بتربية الأبناء .
- العناية بالنبوغ ، واحتضان المتفوقين ورعايتهم .
- الاعتدال فى تناول الطعام والشراب .

إن الباحث المتأمل يستطيع أن يدرك تماما أن كل هذه الأمور والاتجاهات إسلامية الطابع والمنهج ، نظريا وتطبيقيا ، وإن كان واقع المسلمين الآن يبتعد عن هذه الاتجاهات النافعة .

إن هناك حقيقة هامة لابد أن نضعها نصب أعيننا وهى : أن الكثير من العبادات الإسلامية ضرورية وأساسية للفطرة الإنسانية ، وهى تتفق مع كل هذه الأسس التى تمسك بها الغرب ، ونسبت إلى الغربيين .. فالصلاة .. بما يسبقها من وضوء ، وبما تتسم به من خشوع ، وبما يلازمها من حركة ، هى دفع للحيوية فى شرايين المسلم ، ودفع لينبوع الخشوع أن يعمر قلبه وروحه ، وتجديد لدماء الفضائل والأخلاق فى شرايينه .. من ذا الذى يقول بأن تلك الرياضات البدنية والروحية غير لازمة لروح الفطرة فى الإنسان من حيث هو إنسان ؟ وقل مثل ذلك فى العبادات كلها ..

ولننظر إلى الأسرار النبيلة فى قوله عز وجل : "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ [1]".

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٨٣ ، ١٨٤ .

وقولـه سبحانه فـى سورة التوبـة : " خُذْ مِـنْ أَمْوَالِهِـمْ صَدَقَـةً تُطَـهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١) " . فصيام هذه الأيام المعدودات هو المتفق مع روح الفطرة ، وصيـام الدهر كلـه ليس مـن الفطـرة فـى شـئ .. وهكذا .

إننا كلما رجعنا إلى فطرتنا كنا أكثر اقترابا من اللـه عز وجل ، وأكثر طاعة لربنا وأعمق امتثالا لدينه ، وأعظم إقتداء برسـوله صلـى الله عليه وسلم .

وليس أمامنا سوى هذا الطريق المحمود ، الطريق الموصـل إلـى رضاء الله الواحـد الأحد : "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِـى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢)".

فالفطرة هى الإنسانية فى أسمى صورها ، الفطرة هى الإسـلام ، والإسـلام هـو الفطـرة ، وحينمـا تصطبـغ حياتنـا كلهـا بـروح الفطـرة البريئة النبيلة ، فتلك هى صبغة الإسلام " صِبْغَـةَ اللَّـهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (٣) " .

٢ – رفع الحرج :–

يقول عز وجل : " مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤) " .

---

(١) سورة التوبة – الآية ١٠٣ .
(٢) سورة الأنعام – الآية ١٥٣ .
(٣) سورة البقرة – الآية ١٣٨ .
(٤) سورة المائدة – الآية ٦ .

ويقول سبحانه : " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا (١) ". ويقول أيضا : " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (٢) ".

أما أحاديث المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فى هذا المجال فكثيرة نذكر منها :-

– عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه ".

– وأخرج البخاري وغيره : " أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ".

– وفى الصحيحين : أنه عليه السلام قال لمعاذ بن جبل ، وأبى موسى الأشعرى – رضى الله عنهما – حين بعثهما إلى اليمن : " يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا ".

إن الإسلام يراعى الفطرة الإنسانية ، فيخفف عن الضعفاء ، ويرفع الحرج عن كاهلهم ، ولا يضيق عليهم .

ثم إن الضعيف يحب بدافع من فطرته أن يجد من يشعر بضعفه ، وأن يتخذ بشأنه ما يتلاءم مع هذا الضعف ، كذلك يدعوه نداء الفطرة إلى التطلع إلى التخفيف عنه ، وإلى عدم التعامل معه على قدم المساواة مع غيره من الأقوياء .. ولننظر إلى هذه السماحة النبوية فى معاملة الضعيف،

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة – الآية ١٨٥ .

وكيف عبر عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم – في قوله : " الضعيف أمير الركب " ، أى أن الآخرين – الأقوياء – مطالبون بأن ينزلوه من عطفهم ولطفهم ، وموضع حبهم وحمايتهم ، منزلة الأمير الذى يفدى بالأرواح ، ويخدم بالقلوب والجوارح ، فكيف بمن خلق الضعيف وأوجب على نفسه الرعاية له والتخفيف ؟. " يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (١) ".

وقد ذكر العلماء سبعة أنواع لتخفيف الله تعالى بالضعفاء تتمثل فيما يلي :

*** تخفيف التأخير :-**

مثل تأخير الصلاة عن وقتها لمبرر شرعي ، وتأخير صلاة المغرب إلى العشاء فى مزدلفة أيام الحاجة ، وتأخير أداء صوم رمضان بسبب أو عذر شرعي .

*** وتخفيف التقديم :-**

مثل جواز تقديم الزكاة قبل موعد أدائها .. ومثل جواز تقديم صلاة العصر مع الظهر ، إذا اقتضت الضرورة ذلك فى السفر أو غيره ، مما نصت عليه كتب الفروع .

*** وتخفيف الإسقاط :-**

ومنه حالات إسقاط الجهاد عن المريض ، والمقعد ، والمرأة ، وإسقاط الصلاة عن الحائض والنفساء . وإسقاط صلاة الجمعة عمن فقد شروط وجوبها ... إلخ .

---

(١) سورة النساء – الآية ٢٨ .

*** وتخفيف التنقيص :-**

كما فى صلاة المريض من قعود ، أو اضطجاع ، وكما فى صلاة المسافر من قصر لصلاته الرباعية. ومن أمثلته أيضا استبدال الطعام بالصيام عند وجود العذر .

*** وتخفيف التغيير :-**

ذكر منه الفقهاء تغيير هيئة الصلاة عند الخوف أو عند الحرب إلى إحدى الهيئات المعروفة فى كتب الفروع .

*** وتخفيف الإبدال :-**

وله حالات كثيرة فى باب الكفارات ، ومن أمثلته : استبدال الوضوء أو الغسل بالتيمم عند فقد الماء الكافي لهما ، أو الحاجة إليه لشرب إنسان أو حيوان .

*** وتخفيف الترخيص :-**

ذكروا من أمثلته ؛ الترخيص بكلمة الكفر عند الإكراه حيث صرحت الآيات بأن لا مسئولية على المرخص له فى ذلك مادام مطمئن القلب بالإيمان .

٣ – التدرج فى التشريع :-

وما ذلك إلا لأن الله عز وجل قد خلق الإنسان ، ويعلم ما ركبه فيه من ميول ورغبات ، وغرائز وأهواء ، علم – سبحانه – أن النفس الإنسانية يصدمها كل جديد ، ويفاجئها كل ما لم تألفه من

العادات ، فاتخذ التدرج فى التشريع سبيلا للتمكن بالهدى من هذه النفس ، وإضاءتها بنور الإيمان ، والطاعة و الامتثال لأوامره عز وجل .

فلنتأمل فى ذلك مسألة تحريم الخمر .. فلو أن التشريع الإسلامي كان حاسما فى تحريمها ، لشق ذلك على المسلمين الأول ، وقاوموه بكل سبيل ، لاسيما وقد كان الإسلام كالنبت الأخضر فى القلوب ، لما يورق ويزهر بعد ، فى خميلة العائلة الإسلامية الناشئة .

**من هنا تدرج التشريع الإسلامي فى تحريم الخمر ، نزلت أولا آية البقرة : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا[1] " .

** ثم نزلت آية النساء تحرم الخمر عند الصلاة : " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ [2] ".

** ثم كان التحريم النهائي فى سورة المائدة : " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ، وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ [3] ".

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢١٩ .
(٢) سورة النساء – الآية ٤٣ .
(٣) سورة المائدة – الآية ٩٠ ، ٩١ .

ومن الملاحظ أن هذا التحريم المتدرج بهذه الطريقة أوقع فى النفس وأدعى إلى اقتناعها اقتناعا نابعا من أعماق فطرتها الخالصة .

أضف إلى ذلك : أن أمر التحريم المتدرج قد اصطحب بكثير من أوصاف التغيير من الخمر ، بحيث يتلاءم النفور الفطري مع التنفير الشرعي ، فيجتمع مؤثران على أثر واحد ، فتستجيب طبيعة الفطرة لأمر فاطر السموات والأرض .

والأمثلة فى هذا الصدد كثيرة ، ويمكن تلمسها فى مظانها من كتب الأصول ، وكلها تؤكد خصيصة من أهم خصائص هذا الدين ، وهى التدرج فى التشريع لملائمة الفطرة الإنسانية .

٤ - سهولة الأحكام :-

والمقصود بسهولة الأحكام أمران :

(أ) قلتها من ناحية الكم . (ب) يسرها من ناحية الكيف .

ويجمع الأمرين معا .. سهولة التطبيق بالنسبة للمسلم الصادق .

ولقد كان الرسول - عليه السلام - يتوخى عدم التصعيب على المسلمين فيما لم يؤمر بتبليغه ، أو تكليفهم به ، ففى حديث الأقرع بن حابس ، حينما سأل الرسول الكريم عن الحج .. أفى كل عام يا رسول الله ؟ فكان جوابه ، عليه السلام : " لو قلت نعم لوجبت ، ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم ".

والباحثون فى علم مقارنة الأديان ، يدركون الفروق الجوهرية بين أحكام الإسلام ، وغيره من الديانات السابقة عليه ، ويرون كيف

كانت بعض الأحكام بالغة الدرجة فى الصعوبة على أبناء هذه القرون المتأخرة . وإن كانت غير ذلك بالنسبة لأتباع هذه الديانات نفسها فى أزمانها وأماكنها ، مما يؤكد أن الحق - تبارك وتعالى - قد أراد للديانات أن تتعدد فروعها ، وإن اتفقت فى جوهرها ، نظرا لما يصيب البشر من تطور عبر العصور المتباعدة ، ونظرا لما تتطلبه طبيعة البشر فى كل عصر من هاتيك العصور.

ويشهد لهذا ، حديث الإسراء ، حين طلب موسى عليه السلام من النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يسأل ربه التخفيف عن أمته فى عدد الصلوات : " ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .. فإنى خبرت بنى إسرائيل وبلوتهم " ، كما يشهد لذلك ما جاء فى ختام سورة البقرة : " ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ". والإصر : هو الأحكام الشديدة ، التى كلف بها السابقون من الأمم كالتوبة بقتل النفس ، وإزالة النجاسة بقطع موضعها من الثوب ... إلخ .

وما من شك أن سهولة الأحكام هدف من أهداف العبادة فى الإسلام يتلاءم مع الفطرة الإنسانية .

الفصل الأول

الصلاة وأحكامها

الصلاة – كما تعلم – أقوال وأفعال تؤدى على وجه مخصوص. وهذه الأقوال والأفعال ، ليست سواء فى طلبها والأمر بها ، ولا فى تركها والأخذ بها .

فهناك أقوال وأفعال ، لا تصح الصلاة إلا بها ، وتسمى (فروض الصلاة) . وهناك أقوال وأفعال يجب الإتيان بها ، ولكنها دون الفروض فى الحكم ، وتسمى (واجبات الصلاة). وفى الصلاة أقوال وأفعال ، تصح الصلاة بدونها ، لكن يسن الإتيان بها ، لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يفعلها فى أكثر أحيانه وتسمى (سنن الصلاة). أما فروض الصلاة ، فمنها ما يفترض قبل الشرع فيها ، وتسمى (شروطا) . ومنها ما يفترض فى الصلاة ، وتسمى (أركانا) .

شروط الصلاة :–

شروط الصلاة سبعة ، هى :

(١) الطهارة من الحدث ، فلا تصح الصلاة من محدث أو جنب .

(٢) الطهارة من الخبث – يعنى النجاسة – وذلك فى البدن والثوب والمكان . وتصح الصلاة على طرف طاهر من بساط أو حصير ، ولو كان الباقي نجسا.

(٣) ستر العورة : ويشترط فيما يستر العورة من ثوب ونحوه أن يكون كثيفا ، فلا يجزئ الساتر الرقيق الذى يصف لون البشرة التى تحته . وعورة الرجل ما تحت السرة إلى ما تحت الركبة ، وعورة المرأة جميع بدنها، حتى شعرها النازل على أذنيها ، إلا وجهها وكفيها وقدميها ، وسميت عورة لقبح ظهورها ، وغض الأبصار عنها. وكما يطلب ستر العورة فى الصلاة ، يطلب سترها خارج الصلاة أيضا .

(٤) استقبال القبلة ، وهى الكعبة المعظمة : ويسقط استقبال القبلة عن الخائف والمريض والعاجز عن استقبالها .

(٥) دخول الوقت واعتقاد دخوله ؛ فلا تصح صلاة إذا قدمت عن وقتها . وتجب الصلاة بدخول وقتها وجوبا موسعا ، إلى أن يبقى من الوقت جزء لا يسع إلا الطهارة والصلاة ، فتجب الصلاة حينئذ وجوبا مضيقا . ويحرم تأخير الصلاة عن وقتها بغير عذر شرعي ، كنوم ونسيان .

(٦) النية ؛ وموضعها القلب : فإن كانت الصلاة فرضا طلب تعيينها ، كأن ينوى ظهر هذا اليوم ، أو عصره .. وهكذا . وكذلك إذا كانت الصلاة واجبة ، فإنه يلزم تعيينها فى النية ، كالوتر ، وصلاة العيدين، وركعتي الطواف . أما النفل فلا يشترط فيه تعيين النية ، سواء أكانت سننا مؤكدة أم غير مؤكدة ، بل يكفى أن ينوى مطلق الصلاة . إلا أن الأحوط فى السنن تعيين النية ، كما أن الأحوط فى صلاة التراويح أن ينوى التراويح ، أو قيام الليل .

(٧) تكبيرة الإحرام فى أول الصلاة : ويجب أن تكون بلفظ (الله أكبر) . ومن ترك أحد هذه الشروط ، أو أخل به بطلت صلاته ، ولزمته إعادتها .

أركان الصلاة :-

أركان الصلاة خمسة ، وهى :

[١] القيام للقادر عليه فى الصلاة المفروضة بقدر القراءة المفروضة .

[٢] القراءة ولو آية قصيرة من القرآن الكريم ، فى ركعتين من الفرض ، وفى جميع ركعات الوتر والنفل . ولا يقرأ المقتدئ ، بل يستمع فى أثناء جهر الإمام ، وينصت . وإن قرأ المقتدى الفاتحة أو غيرها كره تحريما .

[٣] الركوع :- وكمال الركوع بالإنحناء حتى يستوى الرأس العجز ، وتصل يد المصلى إلى ركبتيه . وهذا فى القائم ، أما المصلى قاعدا، فركوعه يحصل بطأطأة الرأس مع انحناء الظهر ، وكماله فى أن تحاذى جبهته قدام ركبتيه .

[٤] السجود مرتين فى كل ركعة :- وكمال السجود بوضع جميع اليدين والركبتين وأطراف القدمين والجبهة والأنف .. وضم الأنف إلى الجبهة فى السجود واجب . ويشترط لصحة السجود أن يكون على ما يجد حجمه ؛ فلا يصح السجود على القطن المندوف ، الذى لا تستقر الجبهة عليه .

[٥] القعود الأخير بقدر قراءة التشهد : ومن ترك أحد هذه الأركان ، أو أخل به بطلت صلاته ، ويفترض عليه إعادتها .

واجبات الصلاة :-

١ - قراءة الفاتحة وسورة قصيرة ، أو ثلاث آيات قصار ، فى الركعتين الأوليين من الفرض ، وفى جميع ركعات الوتر والنفل .

٢ - تقديم الفاتحة على السورة .

٣ - الاطمئنان فى الركوع ، وفى الرفع منه ، وفى السجود ، وبين السجدتين . والاطمئنان هو سكون الجوارح حتى تطمئن المفاصل .

٤ - ضم الأنف إلى الجبهة فى السجود .

٥ - القعود الأول قدر التشهد عقب الركعتين الأوليين من صلاة ثلاثية أو رباعية .

٦ - قراءة التشهد فى كل قعود .

٧ - القيام إلى الركعة الثالثة بعد قراءة التشهد من غير تراخ ، والتراخى مقدر بمقدار ثلاث تسبيحات .

٨ - لفظ السلام مرتين فى آخر الصلاة .

٩ - جهر الإمام فى الركعتين الأوليين من المغرب والعشاء ، وفى الصبح والجمعة والعيدين والتراويح ، وجميع ركعات الوتر فى رمضان . ويخير المنفرد بين الجهر والإسرار ، والجهر أفضل .

١٠ - الإسرار فى الظهر والعصر ، وفيما عدا الركعتين الأوليين من المغرب والعشاء ، وجميع ركعات الوتر فى غير رمضان .

ومن ترك شيئا من هذه الواجبات سهوا ، وجب عليه سجود السهو فى آخر صلاته ، فيسلم عن يمينه ، ثم يسجد سجدتين ، ثم يقعد ويقرأ التشهد

والصلوات الإبراهيمية والدعاء المأثور ، ثم يسلم .. وبذلك تجبر صلاته من النقص الذى اعتراها .

سنن الصلاة :-

(١) رفع الرجل يديه حذاء شحمتى أذنيه عند التحريم فى ابتداء الصلاة ، ورفع المرأة يديها حذاء منكبيها .

(٢) مقارنة إحرام المقتدى لإحرام إمامه.

(٣) وضع الرجل يده اليمنى فوق اليسرى تحت السرة ، محلقا بالخنصر والإبهام على رسغ اليسرى . ووضع المرأة يديها على صدرها من غير تحليق .

(٤) قراءة الثناء بعد التحريمة فى الركعة الأولى .

(٥) التعوذ قبل الفاتحة فى الركعة الأولى فقط .

(٦) البسملة قبل الفاتحة فى كل ركعة .

(٧) التأمين ، وهو قول (آمين) بعد قراءة الفاتحة ، يجهر بها فى الصلاة الجهرية ، ويسر بها فى السرية ، وسواء فى ذلك الإمام والمأموم والمنفرد .

(٨) القراءة بعد الفاتحة : يسن للمصلى أن يقرأ سورة أو شيئا من القرآن بعد قراءة الفاتحة فى ركعتي الصبح والجمعة ، والأوليين من الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وجميع ركعات النفل .

(٩) التكبير عند الركوع والسجود والرفع منه ، وعند القيام ، وقول : " سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد " ، عند الرفع من الركوع . والمقتدى يقتصر على قوله : " ربنا ولك الحمد" .

(١٠) جهر الإمام بالتكبير والتحميد لحاجته إلى إعلام المقتدين بالشروع والانتقال ، ولا حاجة للمنفرد والمأموم بالجهر .

(١١) أخذ الركبتين باليدين عند الركوع ، وتسوية الظهر ، فيقول :" سبحان ربى العظيم " .. ثلاث مرات .

(١٢) وضع الركبتين على الأرض ، ثم اليدين ، ثم الوجه عند السجود ، وعكس هذا الترتيب عند الرفع منه .

(١٣) مباعدة الرجل بطنه عن فخذيه ، ومرفقيه عن جنبيه ، وذراعيه عن الأرض فى السجود، بخلاف المرأة ، لأن أمرها مبنى على الستر . وقول :" سبحان ربى الأعلى " .. ثلاث مرات .

(١٤) أن يقعد الرجل على رجله اليسرى مفترشا لها . وينصب اليمنى فى القعود. أما المرأة فتقعد على الإلية ، وتخرج الرجلين من الجانب الأيمن .

(١٥) رفع السبابة من اليد اليمنى فى التشهد عند قول : " أشهد أن لا إله" ووضعها عند قول : " إلا الله ".

(١٦) قراءة الفاتحة فى الركعتين الثالثة والرابعة من الصلوات المفروضة.

(١٧) قراءة الصلوات الإبراهيمية بعد التشهد الأخير .

(١٨) الدعاء بالمأثور من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية ، بعد الصلوات الإبراهيمية فى القعود الأخير .

(١٩) الالتفات بالتسليم يمينا ثم شمالا .

آداب الصلاة :-

والآداب كمالات تحسن مراعاتها فى الصلاة لتكون أتم وأكمل؛ منها :

١] أن ينظر المصلى إلى موضع سجوده فى القيام ، وإلى ظهر قدميه فى الركوع ، وإلى حجره فى القعود ، وإلى منكبه فى السلام .

٢] دفع السعال ما استطاع ، ووضع اليد اليسرى على الفم عند التثاؤب إذا غلبه .

٣] المحافظة على الخشوع فى الصلاة، بإحضار القلب وإسكان الجوارح.

مكروهات الصلاة :-

مكروهات الصلاة أمور إذا فعلها المصلى لا تبطل صلاته ولكن تعد صلاة ناقصة ، فينبغى التحرز منها ؛ وهى :

١ - ترك واجب من واجبات الصلاة عمدا : كترك قراءة الفاتحة ، أو السورة بعدها ، أو جهر الإمام فى الصلوات السرية مثلا ...

٢ - ترك سنة من سنن الصلاة عمدا : كترك دعاء الثناء ، أو تسبيح الركوع أو السجود ...

٣ - القراءة على غير ترتيب القرآن : كأن يقرأ فى الركعة الأولى : " قل أعوذ برب الناس ... " ، وفى الركعة الثانية : " قل أعوذ برب الفلق ... ".

٤ - تكرار سورة واحدة عمدا فى ركعة واحدة ، أو فى ركعتين من الفرض ، أما فى النفل فلا يكره فيه التكرار .

٥ – الفصل بسورة بين سورتين من قصار المفصل ، قرأهما في ركعتين ، كأن يقرأ في الأولى :" قل هو الله أحد ..." ، وفي الثانية : " قل أعوذ برب الناس ..." ، ويترك بينهما :" قل أعوذ برب الفلق ..." .

٦ – الالتفات بالعنق يمينا وشمالا.

٧ – العبث بالثياب أو البدن ، لأنه مخل بالخشوع .

٨ – مدافعة الأخبثين – البول والغائط – لأنها مذهبة للخشوع .

٩ – الصلاة خلف صف فيه مكان فارغ – في صلاة الجماعة – .

١٠ – تغميض العينين ، إلا لكمال الخشوع فلا يكره .

١١ – الصلاة إلى وجه آدمي ، أو صورة ذي روح .

١٢ – الصلاة إلى نار موقدة ؛ وهي التي لها لهب ، أو إلى جمر . أما الصلاة إلى سراج موقد فلا كراهة فيها .

١٣ – تحويل أصابع اليدين أو الرجلين عن القبلة في السجود وغيره .

١٤ – الصلاة بحضرة طعام تتوق إليه نفسه .

١٥ – ترك اتخاذ السترة في مكان يحتمل فيه المرور بين يدي المصلي . والسترة شئ يصنعه المصلي ليمنع مرور الناس من موضع سجوده.

١٦ – افتراش الذراعين في السجود – أي وضعهما على الأرض .

١٧ – رفع البصر إلى السماء في أثناء الصلاة .

مفسدات الصلاة :-

مفسدات الصلاة أمور إذا فعلها المصلى تبطل صلاته ؛ وهى :

(١) ترك شرط من شرائط الصلاة ، كترك ستر العورة ، أو تحول الصدر عن القبلة قدر ثلاث تسبيحات .

(٢) ترك ركن من أركان الصلاة ، كترك الركوع أو السجود .

(٣) التحرك المتوالي ، ويقدر بثلاث حركات متواليات .

(٤) الكلام إذا لم يكن من أقوال الصلاة وأذكارها .

(٥) المشى ثلاث خطوات متواليات .

(٦) القهقهة فى صلاة ذات ركوع وسجود ، وهى ناقضة للوضوء أيضا.

(٧) الأكل والشرب قليلا كان أو كثيرا .

(٨) الغلط فى قراءة القرآن ، إذا غير المعنى تغييرا فاحشا ، والتغيير الفاحش هو ما كان اعتقاده كفرا . كما لو قرأ :" وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا " ، فغلط فقال :" إلى جهنم زمرا " ، ونحو ذلك .

(٩) التنحنح بلا عذر .

(١٠) قدرة المتيمم على استعمال الماء ، كأن تيمم لفقد الماء ثم وجده وهو فى الصلاة .

(١١) طلوع الشمس وهو فى صلاة الصبح ، وزوال الشمس فى صلاة العيد ، ودخول وقت العصر فى صلاة الجمعة .

(١٢) انتهاء مدة المسح على الخفين ، كأن كان يصلى ، وقبل تمام صلاته انتهت مدة المسح .

(١٣) محاذاة المرأة للرجل فى صلاة مشتركة من غير فرجة أو حائل .

(١٤) الإغماء ، بأن يغمى عليه فى أثناء الصلاة ، حتى لا يشعر بوجوده ، وهو ناقض للوضوء أيضا كما سبق .

ما يوجب قطع الصلاة وما يجيزه :-

[١] يجب قطع الصلاة وإن كانت فرضا لإغاثة ملهوف .. كمن وقع فى ماء مثلا ، أو صال عليه حيوان ، واستغاث بالمصلى أو بغيره ، وقدر على الدفع عنه ، ونحو ذلك .

[٢] ويجوز قطع الصلاة ولو كانت فرضا ، لدفع سرقة ما يساوى درهما.

[٣] يجوز قطع الصلاة النافلة فقط ، عند نداء أحد الأبوين ، إذا لم يعلم أن ولده يصلى . أما إذا كان يعلم ذلك ، فلا يجوز قطعها لأجله .

صلاة الجماعة :-

عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ – يعنى المنفرد – بسبع وعشرين درجة [١] ".

حكم الجماعة وحكمتها :-

صلاة الجماعة تحصل بواحد مع الإمام فأكثر ، رجلا كان أو امرأة أو صبيا مميزا . وهى سنة مؤكدة للرجال ، وأفضل من صلاة الفرد ، كما سبق بيانه فى الحديث الشريف .

---

(١) البخاري ١٣١/٢، والترمذى ١٣٨/١ ، ومسلم ٤٥٠/١ .

ولاشك فاجتماع المسلمين فى المساجد كل يوم خمس مرات ، يؤدى إلى التعاون بينهم والتآلف ، ويصل بين القلوب بروابط المحبة ، فيعين القوى الضعيف ، ويعود الصحيح المريض ، ويرحم الغنى الفقير ، ويقف الكبير إلى جانب الصغير ، والتاجر إلى جانب العامل ، والأمير بصف المسكين ، فيعلمون أنهم فى نظر الله سواء ، لا يفضل بعضهم على بعض إلا بالتقوى .

وصلاة الجماعة مربية على حب النظام والانتظام ، وعلى طاعة القائد الصالح فى أمره ونهيه ، كيف لا ، وهم يقتدون بإمامهم : يكبرون إذا كبر ، ويركعون إذا ركع ، ويسجدون إذا سجد ... لا يسبقونه فى قول ، ولا يبتدرونه بعمل ؟

فما أعظم المساجد بيوت الله جامعة المسلمين ! وما أكرم صلاة الجماعة مؤلفة بين قلوبهم !

شروط الجماعة والإمامة :-

١ - البلوغ ؛ فلا يصح إقتداء البالغ بصبي .
٢ - الذكورة ، فلا تصح إمامة المرأة الرجل . أما إمامة المرأة أو نساء ، فتصح مع الكراهة .
٣ - أن يحسن الإمام قراءة ما لا تصح الصلاة إلا به ، إذا كان المقتدى قارئا يحسن ذلك.
٤ - السلامة من الأعذار ؛ كسلس البول والرعاف الدائم ، إلا إذا صار إماما لمعذور مثله .

٥ – أن لا يتقدم المأموم على إمامه .

٦ – أن لا يكون الإمام مأموما ولو مسبوقا ؛ فلا يصح الإقتداء بالمسبوق الذى سلم إمامه ، فقام يتم صلاته ، لأنه فى حكم المقتدى .

٧ – أن لا يكون الإمام أدنى حالا من المأموم ، فلا يصح إقتداء مفترض بمتنفل ، ولا قادر على الركوع والسجود بالعاجز عنه كالمصلى بالإيماء . ويجوز إقتداء متوضئ بمتيمم ، وغاسل بماسح على خف أو جبيرة .

٨ – أن ينوى المأموم الإقتداء بإمامه . أما نية الإمام فسنة – كما سبق بيانه – إلا إذا كان إماما للنساء ، فتجب نية الإمامة لصحة صلاتهن معه .

٩ – اتحاد فرض الإمام والمأموم ؛ فلا تصح صلاة ظهر مثلا خلف إمام يصلى العصر ، ولا صلاة من يصلى عصر الجمعة مثلا خلف من يصلى عصر يوم قبله ، لعدم اتحاد الفرضين زمنا .

١٠ – أن لا يفصل بين الإمام والمأموم صف من النساء – أربع نساء فأكثر – فإذا كان ذلك فسدت صلاة من خلفهن من الرجال .

١١ – أن لا يعلم المقتدى من حال إمامه مفسدا كخروج دم ناقض للوضوء ونحوه .

١٢ – أن لا يفصل بين الإمام والمقتدى نهر عريض يسع زورقا ، ولا طريق عريض تمر فيه عجلة ، ولا حائط يشتبه معه على المقتدى العلم بانتقالات الإمام . فإن انتفى الاشتباه لرؤية الإمام ، أو سماع صوته صح الإقتداء به .

من الأحق بالإمامة ؟

الأحق بالإمامة الأعلم بأحكام الصلاة صحة وفسادا ، بشرط أن يكون ظاهر الصلاح ، مجتنبا الفواحش الظاهرة . ثم الأحسن تلاوة للقرآن . ثم الأورع ، ثم الأكبر سنا ، ثم الأحسن خلقا . هذا إذا لم يكن بين القوم سلطان ، كأمير ووال وقاض أو صاحب منزل اجتمعوا فيه ، أو موظف بالإمامة ، فهؤلاء أحق الناس بالإمامة ممن سواهم .

من تكره إمامته ؟

تكره إمامة الجاهل ، لأن صلاته عرضة لطروء الخلل ، بسبب جهله بأحكام الصلاة . وتكره إمامة الأعمى ، لصعوبة اهتدائه إلى القبلة ، ولعدم صون ثيابه من النجاسة . فإن لم يكن في القوم أفضل منه فلا كراهة . وتكره إمامة الفاسق المرتكب لكبيرة من المعاصي ، أو المصر على صغيرة منها ، لقلة اهتمامه بالدين ، فيستحق الإهانة ، ولا يقدم للإمامة لما في تقديمه من التعظيم . وتكره إمامة المبتدع في عقيدته ابتداعا لا يصل به إلى درجة الكفر ، كمن ينكر المعراج ، أو يفضل عليا – كرم الله وجهه – على أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – ، أو يكفر المسلمين بشبهة التوسل إلى الله تعالى بأنبيائه وأوليائه ...

أما المبتدع ابتداعا يصل به إلى درجة الكفر ، فلا تجوز الصلاة خلفه : كمن ينكر الإسراء ، أو ما علم من الدين بالضرورة كالصلاة والصيام ، ومن يستخف بسنة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم كاللحية. ويكره للإمام تطويل الصلاة عن القدر المسنون الذي سبق بيانه ، لما في

التطويل من تنفير للجماعة . وتكره جماعة النساء بواحدة منهن . ولا يحضرن الجماعة فى المسجد ، لما فى حضورهن من الفتنة .

كيف يقف المقتدي مع إمامه ؟

إذا كان مع الإمام واحد ، أو صبي مميز ، فيندب له أن يقف عن يمين الإمام .

وإذا كانا رجلين قاما خلف الإمام . وإن كان مع الإمام رجل وامرأة ، قام الرجل عن يمينه ، والمرأة خلف الإمام . ومثل الرجل فى هذه الصورة الصبي .

ويقف الأكثر من واحد خلف الإمام . وإذا اجتمع رجال وصبيان ونساء ، قدم الرجال ، ثم الصبيان ، ثم النساء . وإن لم يكن جمع من الصبيان ، قام الصبي بين الرجال .

وينبغى للإمام أن يقف وسط القوم ، فإن وقف عن يمينهم أو يسارهم أساء لمخالفته لسنة ، إلا لضرورة كضيق المكان .

إدراك الفريضة مع الجماعة :-

من حضر جماعة والإمام فى صلاة الفرض اقتدى به ، ثم يقضى السنة القبلية بعد الفرض ، وبعدها يصلى السنة البعدية ، إلا فى صلاة الفجر ، فينظر إن كان يمكنه أن يدرك الإمام ولو قبل السلام ، صلى سنة الفجر بعيدا عن الجماعة ، ثم اقتدى بالإمام . وإن كان يخاف فوات الجماعة ترك السنة واقتدى ، لأن صلاة الجماعة أفضل .

وإذا فاتت سنة الفجر لا تقضى بعد فرض الصبح ، لأن الوقت وقت كراهة . وإذا كان شارعا فى صلاة الفرض منفردا ، فأقيمت الجماعة – أى شرع الإمام فيها – فإن كانت الصلاة ثنائية كالفجر ، أو ثلاثية كالمغرب ، وكان لم يسجد هو للركعة الثانية ، قطع الصلاة واقتدى بالإمام. وإذا سجد للثانية منهما ، لا يقطع صلاته ، بل يتمها منفردا . وإن كانت الصلاة رباعية كالظهر والعصر والعشاء ، فإذا لم يسجد للأولى قطع واقتدى . وإن سجد لها ، أتم الركعتين ، ثم سلم ، واقتدى بالإمام.

وإن كان فى الثالثة ، ولم يسجد لها ، قطع صلاته قائما بتسليمة ، واقتدى بالإمام . وإن سجد للثالثة ، أتم صلاته منفردا ، وترك الجماعة .

وإن كان شارعا فى نفل ، لا يقطع بل ويتمم ركعتين ثم يقتدى . وإن كان شارعا فى سنة الجمعة ، فصعد الخطيب المنبر ، لا يقطعها ، لكنه يخفف القراءة فيها ، ويتمها . أما إذا كان فى سنة الظهر ، وأقيمت صلاة الجماعة ، فيقطعها على رأس الثانية ، ويقتدى ، ثم يعيدها أربع ركعات بعد الفرض قبل السنة البعدية .

أحوال المقتدى :-

المقتدى إما أن يدرك مع الإمام جميع الركعات ويسمى : (مدركا) وتنتهى صلاته بانتهاء صلاة إمامه ، وإما أن يفوته شئ منها ويسمى : (مسبوقا) . والمسبوق إن أدرك الإمام وهو راكع ، كبر للإحرام قائما ، ثم ركع ، فإن أدركه فى الركوع ، حسبت له الركعة ، ولو لم يدرك معه من

القيام شيئا . وإن أدركه بعد الركوع ، كبر للإحـرام قائمـا ، ثـم تابعـه فيمـا هو فيه ، ولا ينتظر حتى يقوم إلى الركعة التالية ، ولا تحسب له الركعة . وبعد سلام إمامه يقوم ويصلى ما فاته من الركعات .

ويجب عليـه حينئـذ أن يقرأ سـورة بعد الفاتحـة فـى قضـاء كـل مـن الركعتين : الأولى والثانية فى صلاته .

ولا تجب القراءة فى الثالثة والرابعة ، بل تستحب قراءة الفاتحة فيهما. والمسبوق إن أدرك الإمام فى ركعة سرية ، قرأ الثناء بعد تكبيرة الإحرام. وإن أدركه فى ركعة جهرية ، لا يأتى به مع الإمام ، وإنمـا يـأتى بـه عند قضاء ما فاته ؛ وحينئذ يتعوذ ويبسمل للقراءة كالمنفرد .

الأعذار التي تسقط بها الجماعة :-

١ - المرض ، أو القيام بخدمة مريض يحتاج إلى الخدمة .

٢ - العجز ، كالأعمى والمقعد .

٣ - البرد الشديد .

٤ - المطر الشديد .

٥ - الوحل الذى يتأذى به .

٦ - الخوف على النفس من ظالم أو فتنة ، أو نحو ذلك .

وإذا انقطع عن الجماعة لعذر من أعذارها المبيحـة للتخلف ، وكـانت نيته الحضور لولا العذر العارض ، يحصل له ثوابها .

من آداب المسجد :-

{١} الدخول إليه بالرجل اليمنى ، والخروج منه باليسرى .

{٢} الدعاء بالمأثور عند الدخول وعند الخروج : فيقول عند الدخول : " بسم الله ، اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم، الله افتح لي أبواب رحمتك ". ويقول عند الخروج : " بسم الله ، اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم إنى أسألك من فضلك ".

{٣} صلاة ركعتين تحية المسجد ، وذلك فى غير أوقات الكراهة .

{٤} مراعاة النظافة .

{٥} التحفظ من الأحداث .

{٦} الصمت وقت الخطبة ، فإنه واجب ، وينبغى الإصغاء إليها .

{٧} تجنب المرور بين أيدي المصلين ، والحذر من تخطى الرقاب ، ولاسيما فى يوم الجمعة ، فإن ذلك يكره تحريما .

{٨} البدء بالمسجد عند القدوم من سفر .

{٩} صون المسجد عن الروائح الكريهة ، كرائحة الثوم والبصل ونحو ذلك ، فإنه مكروه تحريما .

{١٠} المشى فيه بسكينة ووقار ، وتجنب الإسراع ، ولو لإدراك الركعة أو الجماعة .

{١١} خفض الصوت ، إلا لوعظ الناس وتعليمهم .

ما يكره فعله فى المسجد :-

١ - دخوله للكلام فيه بأمر من الأمور الدنيوية .

٢ - البيع والشراء فيه .

٣ - النوم فيه إلا لغريب أو معتكف .

٤ - رفع الصوت بالذكر ، إن ترتب عليه تشويش على المصلين ، أو إيقاظ للنائمين ، وإلا فلا يكره ، بل قد يكون أفضل ، إذا ترتب عليه إيقاظ قلب الذاكر ، وطرد النوم عنه ، وتنشيطه للطاعة .

٥ - اتخاذه طريقا من غير عذر .

٦ - الأكل فيه لغير معتكف .

٧ - إدخال الصبيان إليه حذرا من وقوع النجاسة فيه .

٨ - سؤال المال فيه ، وكذلك إعطاء السائل .

٩ - البصاق فيه والإمتخاط .

١٠ - إنشاء الشعر فيه إلا إذا كان مشتملا على مواعظ وحكم وذكر نعمة الله تعالى ، والثناء على الرسول عليه السلام ، ونحو ذلك .

١١ - نشد الضالة فيه .

١٢ - الوضوء فيه ، إلا إذا أعد مكان لذلك فلا كراهة .

صلاة الوتر :-

صلاة الوتر ثلاث ركعات بتسليمة واحدة ، وهى واجبة . ويجب أن يقرأ فى كل ركعة من ركعاتها الفاتحة وسورة قصيرة ، أو ثلاث آيات قصار . والسنة أن يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة الأعلى وفى

الثانية " الكافرون " وفى الثالثة "الإخلاص" . فيستحب ذلك لا على وجه الدوام لئلا يظن العوام وجوبها .

ويجلس المصلى على رأس الركعتين الأوليين ، كما فى المغرب ، ويقتصر على قراءة التشهد فى القعود كذلك .

فإذا فرغ المصلى من القراءة فى الركعة الثالثة ، رفع يديه حذاء أذنيه استجبابا ، وكبر وجوبا ، كما يكبر للافتتاح . وبعد التكبيرة يعقد يديه ويقرأ دعاء القنوت المأثور سرا ، وهو : " اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ، ونتوب إليك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ". نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . " اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد.– أى نسارع فى عبادتك – نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق أى لاحق – وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ".

والقنوت واجب ، ومن لم يحسن هذه الضيغة المأثورة فليقل : " ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار " . أو يقول : " رب أغفر لي ، رب أغفر لي ، رب أغفر لي " . أو " يارب ، يارب ، يارب ".

إذا نسى القنوت ثم تذكره حال الركوع ، فلا يقنت فى الركوع ، ولا يعود إلى القيام ، بل يسجد للسهو بعد أن يسلم عن يمينه . وإن سها فركع قبل قراءة السورة والقنوت ، فإنه يعود إلى القيام ، لقراءة السورة والقنوت، ويعيد الركوع ، ثم يسجد للسهو فى آخر الصلاة . ويقرأ المقتدى

القنوت سرا كالإمام . ولو ركع الإمام قبل فراغ المقتدى من قراءة القنوت، ترك القنوت وتابع إمامه ، لأن الإتمام مندوب ، والمتابعة واجبة .

ولو أدرك المقتدى الإمام فى ركوع الركعة الثالثة من الوتر كان مدركا للقنوت حكما ، تبعا لإدراك الركعة الثالثة ، فلا يأتى به فيما سبق به من الركعات .

ولا يقنت المصلى فى غير الوتر ، إلا فى النوازل - أى شدائد الدهر - فيسن له أن يقنت فى الصبح ، لا فى كل الأوقات ، وأن يكون قنوته بعد الرفع من الركوع ، بخلاف الوتر . وإنما يسن قنوت النوازل للإمام لا للمنفرد .

وأما المأموم ، فإنه يتابع إمامه ، إلا إذا جهر فى القنوت ، فإنه يؤمن فقط . وإذا اقتدي حنفي بمن يقنت فى صلاة الفجر كالشافعي ، قام معه فى حال قنوته ساكتا ، لوجوب متابعة الإمام فى القيام ، ويرسل يديه فى جنبيه . ووقت الوتر من غروب الشفق إلى طلوع الفجر . ويجب تأخير الوتر على صلاة العشاء لوجوب الترتيب ، فلو قدمه على صلاة العشاء ناسيا صح.

وكذا لو صلى العشاء والوتر على الترتيب ، ثم ظهر له فساد العشاء دون الوتر ، فإن الوتر يصح ، ويعيد العشاء وحدها ، لأن الترتيب يسقط بمثل هذا العذر .

وتأخير الوتر إلى آخر الليل أفضل لمن وثق بيقظته قبل الفجر ، وإلا فالأفضل تعجيله . ومن فاته الوتر ناسيا أو عامدا ، وجب عليه قضاؤه .

ولا يجوز أن يصلى الوتر قاعدا مع القدرة على القيام فيه . ولا تشرع الجماعة والجهر فى صلاة الوتر إلا فى رمضان .

صلاة النفل :-

صلاة النفل – وتسمى صلاة التطوع – هى ما يطلب فعلها من المكلف زيادة على الفرائض طلبا غير جازم .

وهى إما أن تكون تابعة للصلوات الخمس المفروضة ، وتسمى : سنن الرواتب ، كالسنن القبلية والبعدية ، وإما مستقلة عنها كصلاة الضحى.

السنن التابعة للفرائض :-

هى قسمان : مؤكدة وغير مؤكدة .

[أ] المؤكدة :-

١ - ركعتان قبل فرض الصبح :

ومن السنة أن يقرأ فى الأولى منها بعد الفاتحة سورة "الكافرون" وفى الثانية سورة "الإخلاص" .

وإذا قامت الجماعة لصلاة الصبح قبل أن يصليهما ، فإن أمكنه إدراك الإمام بعد صلاة السنة صلاها ، وإلا تركها وأدرك الجماعة، ولا يقضيها بعد ، لكراهة التنقل بعد صلاة الفجر .

ولا يجوز له أن يصلى أى نافلة إذا أقيمت الصلاة ، سوى سنة الصبح ، لعظم تأكيدها .

ولا تقضى سنة الصبح إلا تبعا للفرض ، فلو نام حتى طلعت الشمس ، قضاها أولا ، ثم قضى الصبح بعدها . ويمتد وقت قضائها إلى الزوال ، فلا تقضى بعده ، وإذا فعل تقع نفلا مطلقا . أما إذا خرج وقتها وحدها ، بأن صلى الفرض وحده ، فلا تقضى السنة بعد ذلك ، لا قبل طلوع الشمس ولا بعده .

٢ - أربع ركعات قبل صلاة الظهر ، بتسليمة واحدة . وهذه السنة أكد السنن بعد سنة الفجر .

٣ - ركعتان بعد فرض الظهر . هذا فى غير يوم الجمعة ، أما فيه فيسن أن يصلى بعدها أربعا ، كما يسن أن يصلى قبلها أربعا.

٤ - ركعتان بعد المغرب .

٥ - ركعتان بعد العشاء .

ولا تنس أن من الواجب فى صلاة السنة ضم سورة إلى الفاتحة فى كل ركعة من ركعاتها .

[ب] الغير مؤكدة :-

١ - ركعتان بعد الظهر متصلتان بالمؤكدة .

٢ - أربع ركعات قبل فرض العصر .

٣ - ست ركعات بعد المغرب : ركعتان مؤكدتان ، وأربع مستحبة .

٤ - أربع ركعات قبل فرض العشاء ، وركعتان بعدها متصلتان بالمؤكدة.

وتزيد السنة غير المؤكدة على المؤكدة فى كيفية الصلاة بشيئين : أحدهما - قراءة الصلوات الإبراهيمية فى القعود الأول بعد التشهد .

وثانيهما - دعاء الثناء فى ابتداء الركعة الثالثة . ولا يفصل بين صلاة الفرض ، وصلاة السنة البعدية ، إلا بمقدار ما يقول : " اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام " . وأما ما ورد من الأذكار بعد الصلاة ، فإنه لا ينافى ذلك ، لأن السنن من لواحق الفرائض ، فليست بأجنبية عنها ، فيؤخر الأذكار إلى ما بعد السنة .

السنن غير التابعة للفرائض :-

وهى كثيرة منها :

١ - تحية المسجد ، وهى ركعتان أو أربع ، والأربع أفضل . ويصح أن ينوى تحية المسجد مع الفروض والسنن الرواتب ونحوها . ويحصل ثوابها إذا نوى التحية مع الفرض أو السنة الراتبة ، وإن لم ينوها يسقط طلبها بذلك ، ولا ثواب له بدون النية .

٢ - صلاة الضحى ، ويبتدىء وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح - أى مقدار نصف ساعة - إلى ما قبل الزوال بساعة تقريبا وهو الضحوة الكبرى . وأقلها ركعتان ، وأفضلها ثماني ركعات ، يصليها أربعا أربعا .

٣ - صلاة الحاجة ، وهى ركعتان يدعو بعدهما فيقول : " لا إله إلا الله الحليم الكريم ؛ سبحان الله رب العرش العظيم ؛ الحمد لله رب العالمين . أسألك موجبات رحمتك ؛ وعزائم مغفرتك ؛ والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، لا تدع لي ذنبا إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين " .

ومن دعاء صلاة الحاجة أيضا : " اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ؛ يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتي لتقضى لي ، اللهم فشفعه في " .

٤ - التهجد بالليل ، وأقله ركعتان ، وأكثره ثمانية ، وهو أفضل النوافل، لأنه أقرب إلى الإخلاص .

٥ - صلاة الاستخارة ، وهى ركعتان يدعو بعدهما فيقول : " اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب " . اللهم إن كنت تعلم أن (هذا الأمر) خير لي فى ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه . وإن كنت تعلم أن (هذا الأمر) شر لي فى ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فأصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، وأقدر لي الخير حيث كان ؛ ثم ارضني به . ويسمى حاجته مكان قوله : (هذا الأمر) . ثم يمضى لما ينشرح صدره له من فعل أو ترك .

٦ - صلاة التراويح :

وهى عشرون ركعة ، وهى سنة مؤكدة ، وأداؤها فى جماعة سنة كفاية لأهل الحى ، فلو قام بها بعضهم ، سقط الطلب عن الباقين .وقد بين فعل عمر رضى الله عنه أن عددها عشرون ركعة ، حيث أنه جمع الناس أخيرا على هذا العدد فى المسجد ، ووافقه الصحابة رضى الله عنهم على ذلك ، ولم يوجد لهم مخالف ممن بعدهم من الخلفاء الراشدين . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ [١] " .

وقد سأل أبو يوسف أبا حنيفة رضى الله عنهما ، ما فعله عمر رضى الله عنه ، فقال : التراويح سنة مؤكدة ، ولم يتخرصه - أى لم يختلقه - عمر من تلقاء نفسه ، ولم يكن فيه مبتدعا ، ولم يأمر به إلا عن أصل لديه ، وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصلاة التراويح عشرون ركعة ما عدا الوتر. ويرى بعض العلماء أن المسنون إحدى عشرة ركعة بالوتر والباقي مستحب [٢] . ووقتها من بعد صلاة العشاء وتنتهى بطلوع الفجر. وتصح قبل الوتر وبعده ، والأفضل أن تكون قبله. وتصلى ركعتين ركعتين .

ويندب أن يجلس المصلون بعد كل أربع ركعات للاستراحة ، هكذا كان يفعل الصحابة رضى الله عنهم ، ولهذا سميت : صـــلاة

---

(١) الترمذى ١٤٩/٤ - ١٥٠ .. وأبو داود ١٣/٥ - ١٥ .
(٢) انظر فقه السنة ، السيد سابق . المجلد الأول (العبادات) ص ١٧٥ مكتبة دار التراث .

التراويح . وللمصلى فى هذا الجلوس أن يشتغل بذكر أو تهليل أو يسكت . ويسن قراءة القرآن بتمامه فيها ، بحيث يختمه آخر ليلة من الشهر ، إلا إذا تضرر المقتدون به، فالأفضل أن يراعى الإمام حالهم فى القراءة ، بشرط أن لا يسرع إسراعا مخلا بالصلاة .

ويكره تحريما الاقتصار على مادون ثلاث آيات قصار ، أو آية طويلة بعد الفاتحة ، لترك الواجب . وكل ركعتين منها صلاة مستقلة، فينوى فى أولها ، ويدعو بدعاء الافتتاح بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة ، ويزيد على التشهد الصلوات الإبراهيمية ، وهكذا ...

والأفضل أن تصلى من قيام عند القدرة عليه ، فإن صلاها من قعود صحت وخالف الأولى . ويكره أن يؤخر المقتدى القيام إلى ركوع الإمام ، لما فيه من إظهار الكسل فى العبادة. والأفضل أن تؤدى فى المسجد ، لأن كل ما شرعت فيه الجماعة ففعله بالمسجد أفضل . ولا تقضى التراويح إن فاتت عن وقتها ، لأن القضاء من خصائص الواجبات ، فلو قضاها كانت نفلا مطلقا لا تراويح .

والتراويح سنة الوقت لا سنة الصوم ، فهى سنة للمريض المفطر وللمسافر ، وللحائض والنفساء إذا طهرتا فى آخر اليوم .

٧ - صلاة الاستسقاء :-

والاستسقاء هو طلب العباد السقى من الله عز وجل عند الحاجة إلى الماء ، فى موضع لا يكون لأهله أودية وأنهار وآبار يشربون منها ، ويسقون زروعهم ومواشيهم ، أو كان لهم ذلك ولكن لا يكفيهم .

وفى صلاة الاستسقاء يصلى الإمام بالمأمومين ركعتين فى أى وقت غير وقت الكراهة : يجهر فى الأولى بالفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى ، والثانية بالغاشية بعد الفاتحة ، ثم يخطب خطبة بعد الصلاة أو قبلها ، فإذا انتهى من الخطبة حول المصلون جميعا أرديتهم بأن يجعلوا ما على أيمانهم على شمائلهم ويجعلوا ما على شمائلهم على أيمانهم ويستقبلوا القبلة ، ويدعون الله سبحانه وتعالى بدعاء الاستسقاء رافعي أيديهم .. " اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا " . " اللهم سقيا رحمة ، ولا سقيا عذاب ولا محق ولا بلاء ولا هدم ".

" اللهم على الظراب – أي التلال – والآكام ومنابت الشجر وبطون الأودية ، اللهم حوالينا ولا علينا ". " اللهم اسقنا غيثا مغيثا هنيئا مريعا – أي ذا ريع وخصب – غدقا – أي كثير الماء – مجللا – أي ساترا للأفق لعمومه – سحا عاما طبقا – أي طبق الأرض والبلاد مطره – دائما " .

" اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ". " اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ". " اللهم اسق عبادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحيي بلدك الميت ".

" اللهم أنت الله لا إله إلا أنت ، أنت الغني ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين ". "

اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا ".
ويستحب الخروج للاستسقاء ثلاثة أيام متواليات .

ويستحب أن يتصدقوا كل يوم قبل خروجهم ، وأن يجددوا التوبة ، ويردوا المظالم ، ويستغفروا للمسلمين .

٨ - صلاة الكسوف والخسوف :-

يسن عند كسوف الشمس وخسوف القمر صلاة ركعتين ، أو أربع ، أو أكثر ، والأفضل أن يصلي أربعا بتسليمة واحدة أو بتسليمتين .

فأقل صلاة للكسوف والخسوف ركعتان كهيئة النفل . وتصلى جماعة بلا أذان ولا إقامة ، ولا جهر ولا خطبة ، بل ينادي : " الصلاة جامعة " ليجتمع الناس لها .

ويشترط فى إمامها أن يكون إمام الجمعة ، فإن لم يوجد فلابد من إذن السلطان ، فإن لم يوجد صليت فرادى فى المنازل .

ويسن تطويل القراءة فى الركعة الأولى بنخو سورة البقرة ، وفى الثانية بنحو آل عمران . ولو خففهما وأطال الدعاء ، فقد أتى بالسنة ، لأن السنة استيعاب الوقت بالصلاة والدعاء ، فإذا خفف أحدهما طول الآخر ، ليبقى على الخشوع والخوف إلى الانجلاء .

ويسن تطويل الركوع والسجود فيهما بلا حد معين . ثم يدعو الإمام جالسا مستقبلا القبلة إن شاء ، أو قائما مستقبل الناس ، ويؤمنون فى دعائه، ويستمرون على ذلك حتى يكمل انجلاء الشمس.

وصـلاة خسوف القمر كصلاة كسـوف الشـمس ، إلا أنهـا مندوبة، ولا تشرع فيها الجماعة ، ولا يسن إيقاعها فى الجامع ، بل تؤدى فى المنازل وحدانا .

ومثل صـلاة الكسوف والخسوف صـلاة الفزع ، بـالزلازل والصواعق ، والريح الشديدة ، والظلمة الهائلة نهـارا ، وغير ذلـك مـن الأفزاع والأهوال ، لأنهـا آيـات مخوفـة للعبـاد ، ليـتركوا المعاصي ، ويرجعوا إلـى طاعـة اللـه تعـالى ، التـى بهـا فوزهـم وصلاحهم ، وأقرب أحوال العبد فى الرجوع إلى ربه الصلاة .

٩ - سنة الطهارة :- وهى ركعتان ، وتصلى عقب الوضوء أو الغسل .

١٠ - ركعتان عند الخروج للسفر ، وركعتان عند القدوم منه .

الأوقات التى لا تنعقد فيها صلاة الفريضة:-

لا تنعقد صلاة الفريضة والجنازة فى ثلاثة أوقات ، وهى :

[١] وقت طلوع الشمس حتى ترتفع ، فلـو شـرع فـى صـلاة الصبـح ثـم طلعت عليه الشمس فى أثنائها بطلت صلاته ، وعليه قضاؤها بعد .

[٢] وقت توسط الشمس فى كبد السماء ، وذلك وقت زوال الشـمس إلـى أن تزول .

[٣] عند احمـرار الشمس مساء ، إلـى أن تغيب ، وذلـك قبـل الغروب بنصف ساعة تقريبا . ويستثنى من ذلك عصر اليوم الحاضر ، فإنه يصح أداؤه عند غروب الشمـس مـع الكراهـة التحريميـة . وإنمـا لاتنعقد صلاة الجنازة فى هذه الأوقات ، إذا حضرت قبل دخولهـا ، أما إذا حضرت فيها فإنها تصح ، والأفضل عدم التأخير .

أحكام تتعلق بالنوافل :-

السنة فى النفل المطلق ، أن يسلم على رأس كل أربع ركعات فى نفل النهار ، وعلى رأس كل ركعتين فى نفل الليل .

ويجوز النفل قاعدا ، مع القدرة على القيام ، لكن له نصف أجر القائم ، إلا من عذر ، فإن صلاة القاعد بعذر ، مساوية لصلاة القائم فى الأجر .

ويقعد المتنفل جالسا كالمتشهد : يفترش رجله اليسرى ، وينصب اليمنى ، إذا لم يكن به عذر . وإذا أفسد المتنفل ما شرع به من نفل ، وجب عليه قضاؤه .

الأوقات التى يكره فيها التنفل :-

يكره التنفل تحريما فى أوقات ، وهى :-

(١) بعد طلوع الفجر ، قبل صلاة الصبح ، إلا سنتها .

(٢) بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، فلا يصلي فى هذا الوقت نافلة، ولو سنة الصبح إذا فاتت المصلي ، لأنها متى فاتت وحدها سقطت ، ولا تقضى .

(٣) عند طلوع الشمس حتى ترتفع قدر رمح – أي بعد نصف ساعة تقريبا

(٤) عند الزوال ، ويقدر ذلك بنصف المدة التى بين طلوع الفجر وطلوع الشمس أى ما بين ساعة وثلاثة أرباع الساعة .

(٥) بعد صلاة فرض العصر إلى غروب الشمس .

(٦) عند خروج الخطيب للخطبة ، سواء كانت خطبة جمعة ، أو عيد، أو حج ، أو نكاح ، أو كسوف ، أو استسقاء .

(٧) عند إقامة المؤذن للصلاة المفروضة ، إلا سنة الصبح إذا أمن المصلي فوت الجماعة ، فيصليها بعيدا عن الجماعة مهما أمكنه البعد

(٨) قبل صلاة العيد وبعدها فى المسجد .

(٩) بين الظهر والعصر المجموعتين فى عرفة جمع تقديم ، ولو سنة الظهر ، وبين المغرب والعشاء المجموعتين فى مزدلفة جمع تأخير ، ولو سنة المغرب .

(١٠) عند ضيق وقت الصلاة المفروضة .

(١١) عند مدافعة أحد الأخبثين – البول والغائط – وكذلك الريح .

(١٢) عند حضور ما يشغل البال ، ويخل بالخشوع ، كحضور الطعام مع التوقان إليه ، وكالنعاس الشديد .

وإذا وقع النفل فى وقت من هذه الأوقات ، انعقد مع الكراهة التحريمية ، ويجب قطعه وأداؤه فى وقت الجواز .

صلاة الجمعة :-

صلاة الجمعة ركعتان ، وهى فرض عين . فإذا أذن للظهر من يوم الجمعة ، كان فرضا لازما على كل مسلم مكلف ، أن يترك عمله ، ويذر بيعه وشراءه ، ويتوجه إلى صلاة الجمعة ، ويسعى إليها . ويسن أن يصلي قبل الجمعة أربع ركعات ، وبعدها أربعا ، وهما سنتان مؤكدتان .

شروط وجوب الجمعة:-

{١} الحرية ؛ فلا تفترض على رقيق .

{٢} الذكورة ؛ فلا تفترض على النساء .

{٣} البلوغ ؛ فلا تفترض على صبي ولو مراهقا . لكن على وليه أن يأمره بها كسائر الفرائض .

{٤} الصحة ؛ فلا تفترض على مريض .

{٥} البصر ؛ فلا تفترض على أعمى .

{٦} سلامة الرجلين ؛ فلا تفترض على مقعد ، لعجزه عن السعى إليها.

{٧} الأمن ، فلا تفترض على خائف على نفسه من ظالم أو فتنة .

{٨} الإقامة بمصر ، أي بلد لا يتسع أكبر مساجده لأهلها المكلفين ، فالإقامة من شروط وجوب الجمعة ولو من مسافر ، إذا نوى أن يقيم خمسة عشر يوما فأكثر . ومثل الإقامة فى المصر الجامع ، الإقامة بمكان قريب منه ، بحيث لا يبعد عنه أكثر من أربعمائة ذراع - أى منتى متر تقريبا . ومن لا تفترض عليه الجمعة ، يصلى الظهر بدلا عنها .

فإن صلى الجمعة صحت منه ، وسقطت عنه صلاة الظهر ، إلا أن الأفضل للمرأة أن تصلي فى بيتها ظهرا ، لمنعها عن الجماعة سواء أكانت عجوزا أم غيرها . ويسن لمن تخلف عن الجمعة لعذر ، تأخير صلاة الظهر ، إلى أن يفرغ الإمام من صلاة الجمعة ، فإن صلاته قبل ذلك مكروهة تنزيها .

شروط صحة الجمعة:-

ولا تكون صلاة الجمعة صحيحة إلا إذا توافرت فيها الشروط الآتية :-

١ - أن تصلى فى مصر - وقد تقدم تعريفه .

٢ - أن يكون الإمام فيها السلطان أو نائبه ، أو من أذن له بالإمامة ، كما هو الواقع فى أيامنا هذه .

٣ - وقت الظهر ، لأن وقت الجمعة هو وقت الظهر نفسه فلا تصح قبله، وتبطل بخروجه.

٤ - الخطبة ؛ ويشترط أن يكون فيها ذكر خالص ، قليلا كان أو كثيرا ، ولو تحميدة أو تسبيحة وتهليلة ، لكن يكره تنزيها الاقتصار على ذلك . ويكفى فى الجمعة خطبة واحدة ، أما تكرارها فسنة . ويشترط فى الخطبة أن تكون قبل الصلاة .

وأن يحضرها جماعة اثنان أو ثلاثة ممن تنعقد بهم الجمعة ، بأن يكونوا ذكورا عقلاء بالغين ، ويكفى حضور المريض والمسافر البالغين العاقلين ، بخلاف الصبي والمرأة . ويسن فى الخطبة أمور، بعضها يرجع إلى الخطيب ، وبعضها يرجع إلى الخطبة نفسها : فيسن للخطيب أن يكون طاهرا من الحدثين الأكبر والأصغر ، فإن لم يكن كذلك صحت مع الكراهة .

ويسن أن يجلس الخطيب على المنبر قبل الشروع فى الخطبة ، ويكره أن يسلم على القوم . ويسن أن يخطب وهو قائم ، فلو خطب قاعدا أجزأه مع الكراهة . ويسن أن يستقبل الخطيب القوم بوجهه فلا يلتفت يمينا ولا شمالا .

وأن يخطب خطبتين ، وأن يجلس بينهما بقدر ثلاث آيات ، فإن ترك الجلوس أساء .

وأن يبدأ الأولى منهما بالتعوذ فى نفسه سرا ، ثم يجهر بالحمد لله ، والثناء عليه بما هو أهله ، والشهادتين ، والصلاة والسلام على النبي عليه السلام ، والعظة بالزجر عن المعاصي ، والتخويف والتحذير مما يوجب مقت الله تعالى ، وعقابه سبحانه ، والتذكير بما به النجاة فى الدنيا والآخرة ، وقراءة آية من القرآن الكريم .

ويبدأ الخطبة الثانية بالحمد لله ، والثناء عليه ، والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم .

ويدع فى الخطبة الثانية للمؤمنين والمؤمنات . ويسن أن يقصر الخطبة ويطيل الصلاة .

٥ - ومن شروط صحة الجمعة الإذن العام ، فيشترط أن يسمح لكل الناس بالدخول إلى الصلاة ، فلو سمح لبعض الناس ، وأغلق الباب دون آخرين ، لا تصح الجمعة .

٦ - والجماعة ؛ فلا تصح صلاتها بالانفراد ، بل يشترط أن يصليها ثلاثة ماعدا الإمام على الأقل ، ممن تنعقد بهم الجمعة ، بأن يكونوا ذكورا عقلاء بالغين . فيكفى حضور المريض والمسافر ، بخلاف الصبي والمرأة . فإن الجماعة فى الجمعة لا تصح بالنساء والصبيان وحدهم ، لعدم صلاحيتهم للإمامة بمثلهم فيها . ومن

أدرك الإمام فى صلاة الجمعة فى أي جزء من صلاته ، فقد أدرك الجمعة ، ولو فى تشهد سجود السهو ، ويتمها جمعة .

سنن الجمعة وآدابها:-

[١] الاغتسال ، والتطيب ، ولبس أحسن الثياب .

[٢] التبكير إليها .

[٣] قراءة سورة الكهف فى يومها وليلتها .

[٤] الإكثار من الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم. وأقل الإكثار ثلاثمائة فى الليل،ومثلها فى النهار. وأما الإكثار فلا حد له .

[٥] الإكثار من الدعاء،ففى يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يرد فيها الدعاء .

مما يكره فى يوم الجمعة:-

{١} تخطى رقاب الناس ، لما فيه من الإيذاء المنافي لحكمة الجمعة والجماعة. أما إذا لم يجد مكانا يجلس فيه ، وكان أمامه فرجة ، فلا كراهة فى التخطى حينئذ.

{٢} الكلام حال الخطبة ، فيكره تحريما ، سواء أكان بعيدا عن الخطيب أو قريبا منه ، وسواء أكان الكلام دنيويا أم بذكر ونحوه . ومن الكلام المكروه حينئذ رد السلام وتشميت العاطس . وإذا سمع إسم النبي – صلى الله عليه وسلم – يصلي عليه فى نفسه .

{٣} الصلاة حال الخطبة ، فتكره تحريما .

صلاة العيدين :-

شرعت صلاة العيدين فى السنة الأولى من الهجرة ، وهى سنة مؤكدة واظب النبي – عليه السلام – عليها وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا لها.

شروط وجوبها وشروط صحتها :-

شروط صلاة العيدين مثل شروط الجمعة ، إلا أنها تخالفها فى شيئين:

(١) الخطبة ؛ فإنها سنة فى العيد ، وشرط لصحة الجمعة .

(٢) ويخطب بعد صلاة العيدين ، خلافا للجمعة ، فيخطب قبلها .

ويكره أن يجلس قبل الشروع فى خطبة العيد الأولى ، بل يشرع فى الخطبة بعد الصعود ، ولا يجلس ، بخلاف خطبة الجمعة ، فإنه يسن أن يجلس قبل الأولى قليلا.

وفى خطبة عيد الفطر يعلم المسلمين أحكام صدقة الفطر . وفى خطبة عيد الأضحى يعلمهم أحكام الأضحية ، وتكبير التشريق .

وينبغي للخطيب التنبيه على ذلك فى خطبة الجمعة التى يليها العيد .

وإذا أخرت صلاة عيد الفطر فى اليوم الأول تصلى فى اليوم الثاني .

وإذا أخرت صلاة عيد الأضحى لعذر ، تصلى فى اليوم الثاني أو الثالث بلا كراهة ، وتكره بدون عذر . فوجود العذر فى صلاة عيد الفطر فى اليوم الثاني للصحة . ووجود العذر فى صلاة عيد الأضحى لنفى الكراهة .

كيفية صلاة العيد:-

صلاة العيد واجبة ؛ وهى ركعتان تصلى فى المسجد مع الجماعة ، ولا أذان لها ولا إقامة بل ينادى لها : " الصلاة جامعة " ويجهر الإمام فى قراءتها .

كيفيتها :-

أن ينوى المصلى صلاة عيد الفطر ، أو عيد الأضحى ، ثم يكبر الإمام للتحريمة ، ويكبر معه المقتدون ، وبذلك يكونون قد شرعوا فى :

الركعة الأولى :- فيضع كل منهم يديه تحت سرته ، كما فى سائر الصلوات ، ثم يقرأ الإمام والمقتدون دعاء الثناء. ثم يكبر الإمام تكبيرات الزوائد : وهى سبع تكبيرات بعد تكبيرة الإحرام ، ويكبر المقتدون كذلك ، فيرفعون فى كل تكبيرة أيديهم إلى آذانهم - كما فى تكبيرة الإحرام - ثم يرسلونها فى جوانبهم ، ويسكتون بعد كل تكبيرة ، بمقدار ثلاث تكبيرات . ويسن أن يرفع الإمام والمقتدون أيديهم عند كل تكبيرة منها .

وبعد السابعة يعقد المصلون أيديهم ، ويتعوذ الإمام ويبسمل سرا ، ثم يقرأ الفاتحة وسورة بعدها جهرا . ويندب أن تكون السورة : " سبح اسم ربك الأعلى ". ثم يركعون ويسجدون ، ويقومون إلى :

الركعة الثانية :-

يكبر الإمام والمقتدون تكبيرات الزوائد ، وهى خمس تكبيرات عدا تكبيرة القيام مع رفع اليدين مع كل تكبيرة أيضا . ثم يقرأ الإمام الفاتحة وسورة بعدها . ويندب أن تكون السورة : " سورة الغاشية ". ثم

يركعون ويسجدون ، ويتممون الركعة الثانية ، ويقعدون يقـرءون التشـهد ، والصلوات الإبراهيمية ، والدعاء المأثور ، ويسلمون .

وإذا سبق المقتدى بتكبيرات الزوائد ، بحيث أدرك الإمام قائما بعدها ، كبر للزوائد وحده قائما . وإذا سـبقه الإمام بركعة كاملة ، وقام بعد فراغ الإمام لإتمام صلاته ، قرأ أولا ، ثم كبر للزوائد ، ثـم ركـع . ومـن أدرك الإمام راكعا ، كبر تكبيرة الإحرام ، ثم تكبـيرات الزوائـد قائمـا ، إن غلـب على ظنه إدراكه فى ركوعه ، وإلا كبر للإحرام قائما ، ثـم ركـع . ويكـبر للزوائد فى ركوعه من غير رفع اليدين . فإن رفع الإمام رأسه من الركوع قبل أن يتم المقتدى تكبيرات الزوائـد ، سقط عنـه مـا بقـى منهـا ، لمتابعـة الإمام الواجبة فـى الرفـع مـن الركـوع . وإن أدرك الإمـام بعـد الرفـع مـن الركوع ، فلا يأتي بتكبيرات الزوائد ، بل يقضى الركعـة التـى فاتتـه ، مـع تكبيرات الزوائد بعد فراغ الإمام .

ما يسن فى العيدين :-

يسن فى العيدين ما يسن فى الجمعـة ، مـن الاغتسـال ، ولبـس أحسـن الثياب ، والتطيب . ويسن أيضا أن يأكل فى عيد الفطر قبل خروجـه إلـى صلاة العيد ، لئلا يكون متشبها بالصائمين. ويؤخر الأكل فى عيد الأضحى حتى يرجع ، فيـأكل مـن لحـم أضحيتـه . ويسـن أن يكـون المـأكول تمـرا ووترا . ويسن أن يكـبر فـى طريقـه إلـى المصلـى سـرا فـى عيد الفطـر ، وجهرا فى عيد الأضحى . ويكره التنفل بعدها ، فيكره فى المصلـى فقـط . ويسن أن يذهب من طريق ، ويرجع من غيره .

تكبير التشريق :-

يجب التكبير عقب كل فريضة ، من فجر يوم عرفة إلى عصر اليوم الرابع من أيام التشريق – أى الثالث عشر من ذى الحجة – .

والتكبير المشهور :- " الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . الله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد ".

ويجب التكبير المذكور على المقيم بمصر إذا صلى الفريضة فى جماعة ؛ ولا يجب على المسافر ، إلا إذا اقتدى بمقيم . ولا يجب عقب صلاة النافلة ولا على المنفرد . ولا يكبر عقب صلاة الوتر ، ولا صلاة العيد ، ولا صلاة الجنازة .

وينبغي أن يكون التكبير متصلا بالسلام ، حتى لو تكلم أو أحدث بعد السلام متعمدا أثم .

وإذا فاتته صلاة من الصلوات التى يجب أن يكبر عقبها ، فإنه يجب عليه أن يقضى التكبير تبعا لها ، ولو قضاها فى غير أيام التشريق ، لأن القضاء يحكى الأداء – أى حكم القضاء كحكم الأداء-.

وإذا قضى فائته لا يجب التكبير عقبها فى أيام التشريق ، فإنه لا يكبر عقبها ، لما ذكرنا من أن القضاء يحكى الأداء . وإذا ترك الإمام التكبير يكبر المقتدى .

ملاحظة :-

وقت صلاة العيد ، من ارتفاع الشمس قدر رمح أو رمحين – وتقدر بعشرين دقيقة تقريبا – إلى قبيل زوالها . وتؤخر بعذر إلى اليوم الثاني فى

عيد الفطر ، والى ثلاثة أيام فى عيد الأضحى . والعذر كان غم الهلال وتأخر الشهود فى أداء الشهادة إلى ما بعد الزوال .

من الحكمة فى صلاة العيدين :-

يجتمع المسلمون فى صلاة العيدين ، ويتصافحون ، ويهنئ بعضهم بعضا بالعيد ، ويكرم الأغنياء إخوانهم الفقراء ، ويخففون عنهم ألم الحاجة، فيحيون فى العيد حياة سعيدة متشابهة .

وصلاة العيدين مظهر هيبة للمسلمين أمام أعدائهم ، بسبب اجتماعهم العظيم ، وأصوات التكبير والتهليل الذى يملأ صداها الآفاق .

وهذان اليومان من مظاهر فضل الله على المسلمين ، وإكرامه اياهم ، وقبوله عبادة الصيام والقيام فى رمضان ، إيمانا بالله تعالى ، واحتسابا لوجهه الكريم ، فيفرح الصائم فى يوم الفطر ، فرح العامل الذى أنهى عمله ، وأخذ أجره .

وعيد الأضحى بعد أيام عشر ذى الحجة ، والعمل الصالح فيها أفضل من العمل فى سائر أيام السنة .

ومن أيام العشر يوم عرفة ، والوقوف بعرفة للحاج أعظم فروض الحج ، فيكون هذا العيد مظهر فرح عظيم بالقبول والغفران . " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ". ﴿سورة يونس - آية ٥٨﴾.

صلاة المريض :-

لم يجعل الإسلام على المسلمين حرجا فى دينهم ، ولا كلفهم من العبادة مالا يطيقون . فهو مع شديد عنايته بالصلاة ، واهتمامه بها ، رخص للمريض العاجز عن أداء الصلاة كاملة أن يقوم بما يستطيع منها . فإذا عجز المريض عن القيام فى الصلاة . أو خاف زيادة المرض ، أو تأخر الشفاء بسبب القيام ، صلى وهو قاعد ، بركوع وسجود حقيقيين .

وإن تعذر عليه الركوع والسجود ، صلى وهو قاعد ، يفترش رجله اليسرى ، وينصب اليمنى ، كما فى التشهد ، هذا هو الأفضل ، فإن عجز قعد كيف شاء ، وأومأ برأسه للركوع والسجود ، جاعلا إيماءه للسجود أخفض من إيماءه للركوع .

وإن عجز عن السجود ، وقدر على الركوع ، يومئ بهما ، فلا يرفع لوجه المريض شئ يسجد عليه .

والإيماء للركوع والسجود ، يصح وهو قائم ، ويصح وهو قاعد ، ولكن الإيماء وهو قاعد أفضل .

وإذا عجز عن السجود ، فإنه يسقط عنه القيام ، فيصلى من قعود ، موميا للركوع والسجود.

وإن تعذر عليه القعود ، اضطجع إلى جنبه ، والجانب الأيمن أفضل ، أو استلقى على ظهره وهو أفضل من الاضطجاع - مادا رجليه نحو القبلة، وينصب ركبتيه ، ويرفع رأسه يسيرا ، ولو بوضع وسادة تحته ، ليصير وجهه إلى القبلة ، ويصلى بالإيماء . فإن عجز عن التوجه إلى القبلة ، صلى كيف شاء .

وإن صلى الصحيح بعض صلاته قائما ، ثم حدث به مرض أو ألم ، فعجز عن القيام ، فإنه يتمها قاعدا يومئ بالركوع والسجود ، فإن عجز عن القعود أيضا ، استلقى وأتمها بالإيماء .

وإن تعذر عليه الإيماء برأسه ، لم يصح أن يومئ بعينيه ، ولا حاجبيه ، ولا أن يجرى أعمال الصلاة على قلبه ، بل تؤخر عنه الصلاة ، فيقضيها بعد الشفاء ، إذا لم تزد الصلوات عن خمس ، فإن زادت عن خمس سقطت عنه ، ولا يطالب بقضائها .

صلاة المسافر

مشروعية القصر :-

تقصر الصلاة الرباعية المفروضة فى السفر إلى ركعتين : والصلوات الرباعية هى : الظهر والعصر والعشاء ، أما الصلاة الثنائية كالصبح ، والثلاثية كالمغرب ، فتبقى على حالها . وكذلك الوتر والسنن الرواتب ، وقصر الصلاة واجب على المسافر ، ولايجوز له الإتمام .

فإذا أتم صلاته أثم ، لتأخير السلام عند نهاية القعود المفروض ، وهو القعود الأول من هذه الحالة ، ويعد متنفلا بالركعتين الأخيرتين ، لأن الفرض إنما هو الركعتان الأوليان.

ولهذا تبطل صلاته إن ترك القعود الأول فى هذه الصورة ، لأنه ترك فرضا من فرائض الصلاة . ولا يصح إقتداء من اقتدى بالمسافر فى الركعتين الأخيرتين لكونهما نفلا ، ولا يصح إقتداء المفترض بالمتنفل .

السفر الذى يجب فيه القصر:-

إنما يجب القصر فى السفر البعيد ، وهـو ماكان ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة . ويكفى أن يسافر فى يوم كل منها ، من الصباح إلـى الـزوال ، وتسمى : مرحلة . والمعتبر فى ذلك السير المتوسـط ، وَهو سير الإبل ، ومشى الأقدام .

ويقدر ذلك بـ (٨١) كيلومترا فأكثر . ولا يصح القصر فى أقل من هذه المسافة . ولـو قطعت هذه المسافة فى ساعات يسيرة ، ركوبا فى سيارة أو طائرة مثلا فالقصر واجب ، لأن قصر الصلاة لا لمشقة السفر ، بل رجوع للأصل ، لأنها فرضت ركعتين ، فأقرت فى صلاة السفر ، وزيد فى صلاة الحضر ، وإن كان يترتب على القصر تخفيف على المسافر ، بقصر الفرض الرباعي .

فمن قصد السفر إلى مكان يبعد عنه مسافة القصر المذكورة ، قصر الصلاة متى جاوز العمران ، من موضع إقامته ، سواء أكان مقيما فى المصر أم غيره .

ولا يشترط مجاوزة البساتين ، لأنها لا تعد من العمران وإن كانت متصلة بالبناء .

ويمتنع القصر إذا نوى الإقامة خمسة عشر يوما متوالية كاملة فأكثر . ولو نوى الإقامة أقل من ذلك لا يعد مقيما . ومن نوى السفر مسافة القصر، ثم رجع قبل إتمامها ، وجب عليه إتمام الصلاة بمجرد عزمه على الرجوع . وكذا إذا نوى الإقامة قبل إتمامها ، فإنه يجب عليه الإتمام فى الموضع الذى وصل إليه .

ومن نوى الإقامة أقل من خمسة عشر يوما ، أو أقام بمحل ولم ينو الإقامة ، ولا يدرى متى تنتهى إقامته يعد مسافرا يجب عليه القصر ، ولو بقى على ذلك سنين. ما إذا عاد بعد قطع مسافة القصر فإنه لا يتم إلا إذا عاد بالفعل ، فلا يبطل القصر بمجرد نية العودة ، ولا بالشروع فيها حتى يدخل فناء بلدته .

الوطن قسمان :-

١ - **وطن أصلي :** وهو الذى ولد فيه الإنسان أو له فيه زوجة فى عصمته ، أو قصد يرتزق فيه ، وإن لم يولد فيه ، ولم يكن له به زوجة . وهذا الوطن لا يسقط إلا بمثله : فإذا ولد بالقاهرة مثلا ، كانت له وطنا أصليا . فإن خرج منها إلى الإسكندرية وتزوج بها ، أو مكث فيها بقصد الاستقرار والتعيش، كانت له وطنا أصليا كذلك.

فإذا سافر من الإسكندرية إلى القاهرة التى ولد بها ، وجب عليه قصر الصلاة فيها ، ما لم ينو المدة التى تقطع القصر ، لأن القاهرة، وإن كانت وطنا أصليا له ، إلا أنه بطل بمثله وهو الإسكندرية . ولا يشترط فى بطلان أحدهما بالآخر ، أن يكون بينهما مسافة القصر .

٢ - **ووطن إقامة :** وهو المكان الصالح للإقامة فيه مدة خمسة عشر يوما فأكثر ، إذا نوى الإقامة فيه ، أو علم أنه لا يخرج منه إلا بعد خمسة عشر يوما ، وإن لم ينو لأن علمه بذلك يكون فى حكم النية.

ووطن الإقامة يبطل بثلاثة أمور :

أولها : فإذا أقام شخص بمكة المكرمة مثلا خمسة عشر يوما ، ثم سافر منها إلى منى ، فتزوج بها ، ثم رجع إلى مكة ، فانه يتم الصلاة، لبطلان وطن الإقامة وهو مكة ، بالوطن الأصلي الجديد ، وهو منى .

وثانيها : أنه يبطل بمثله . فلو سافر مسافة قصر ، إلى مكان صالح للإقامة ، وأقام به خمسة عشر يوما ناويا ، ثم ارتحل عنه إلى مكان آخر ، وأقام به كذلك ، ثم عاد إلى المكان الأول ، وجب عليه قصر الصلاة إن لم ينو الإقامة به خمسة عشر يوما . لأن وطن الإقامة الأول ، بطل بوطن الإقامة الثاني . ولا يشترط في بطلان وطن الإقامة بمثله ، أن يكون بينهما مسافة قصر .

وثالثهما : إنشاء السفر من وطن الإقامة . فلو أقام المسافر سفر قصر بمكان صالح خمسة عشر يوما فأكثر ، ثم نوى السفر بعد ذلك إلى مكان آخر ، بطل وطن الإقامة بإنشاء السفر منه ، فلو عاد إليه ولو لحاجة ، لا يتم الصلاة فيه ، لبطلان كونه وطن إقامة له ، بإنشاء السفر منه .

قضاء المسافر وإقتداؤه :-

إذا اقتدى المسافر بمقيم ، في صلاة رباعية في وقتها ، أتمها مع إمامه . ولا يجوز إقتداء المسافر بالمقيم خارج الوقت ، لأن المسافر استقر

فى ذمته الفرض ركعتين ، أما المقيم فأربع ، فلا يصح إقتداء المسافر بالمقيم ، أما العكس فيصح .

وإذا اقتدى المقيم بمسافر ، سلم المسافر على رأس الركعتين ، وقال لمن خلفه : " أتموا صلاتكم فإني مسافر " ، فيقومون ويصلون الركعتين الباقيتين ، من غير قراءة فيهما ، لأن المصلين لازالوا فى حكم المقتدين .

والمسافر إذا فاتته صلاة رباعية فى السفر يقضيها فى الحضر ركعتين ، كما وجبت عليه من قبل . فإن فاتته صلاة رباعية فى الحضر، قضاها فى السفر أربعا ، لأن القضاء بحسب الأداء .

صلاة الخوف :-

إذا اشتد الخوف ، جعل الإمام الناس طائفتين : طائفة إلى وجه العدو، وطائفة خلفه . فيصلى بهذه الطائفة ركعة وسجدتين ، فإذا رفع رأسه من السجدة الثانية ، مضت هذه الطائفة إلى وجه العدو ، وجاءت تلك الطائفة ، فيصلى بهم الإمام ركعة وسجدتين ، ويتشهد ويسلم .

أما المقتدون فلا يسلمون ، بل يذهبون إلى وجه العدو ، وتجئ الطائفة الأولى ، فتصلى ركعة وسجدتين ، وحدانا بغير قراءة ، لأنهم فى حكم المقتدين ، ويتشهدون ويسلمون ويمضون إلى وجه العدو . وتجئ الطائفة الأخرى ، وتصلى ركعة وسجدتين بقراءة ، لأنهم مسبوقون بركعة، ويتشهدون ويسلمون . هذا إذا كانوا فى سفر قصر ، وإلا صلى الإمام بالطائفة الأولى ركعتين ، وبالطائفة الثانية ركعتين .

ويصلى بالطائفة الأولى من المغرب ركعتين ، وبالثانية ركعة واحدة. ولا يقاتلون فى حال الصلاة ، فإن فعلوا بطلت صلاتهم ، لأن النبي

صلى الله عليه وسلم ، شغل عن أربع صلوات يوم الخندق ، ولو جاز الأداء مع القتال ، لما تركها.

فإن اشتد الخوف صلوا ركبانا ومشاة فرادى ، يومئون بالركوع والسجود ، إلى أى جهة شاءوا ، إذا لم يقدروا على التوجه إلى القبلة للضرورة . ويستحب حمل السلاح فى الصلاة عند الخوف .

والأفضل فى صلاة الخوف ، أن تصلى كل طائفة مقتدين بإمام ، فتذهب الطائفة الأولى بعد تمام الصلاة ، ثم تجئ الطائفة الأخرى ، فتصلى مع إمام آخر ، مثل حالة الأمن : للتوقى عن المشى ونحوه.

قضاء الفوائت :-

يجب أداء الصلاة المفروضة فى أوقاتها ؛ فمن أخرها عن وقتها بغير عذر كان آثما إثما عظيما . وتارة يكون العذر مسقطا للصلاة رأسا ، وتارة يكون غير مسقط ويطالب بقضائها .

الأعذار التى تسقط بها الصلاة :-

تسقط الصلاة رأسا عن الحائض والنفساء ، فلا يجب عليهما قضاء ما فاتهما فى أثناء الحيض والنفاس بعد زوالهما . وتسقط الصلاة عن المغمى عليه ، إذا استمر إغماؤه أكثر من خمس صلوات . أما إن استمر خمس صلوات فأقل ، ثم أفاق ، فيجب عليه القضاء .

الأعذار بتأخير الصلاة عن وقتها :-

النوم والنسيان والغفلة . فمن نام عن صلاة ، أو نسيها ، أو غفل عنها، افترض عليه قضاؤها . ولا يجوز تأخير القضاء إلا لعذر ، كالسعى

لتحصيل الرزق ، وتحصيل العلم الواجب ، والأكل والنوم . والأولى أن يشتغل بقضاء الفرائض ، ويترك النوافل ، حتى السنن الرواتب إلا سنة الصبح تقضى مع الفرض.

وإذا كان التأخير بلا عذر ، لا يرتفع الإثم المجرد بالقضاء ، بل لابد من التوبة ، كما لا ترتفع الصلاة بالتوبة ، بل لابد من القضاء ، لأن من شروط التوبة الإقلاَع عن الذنب . والتائب من غير قضاء غير مقلع عنه .

كيف تقضى الفائتة ؟

تجب مراعاة الترتيب فى قضاء الفوائت بعضها مع بعض ، فيقضى الصبح قبل قضاء الظهر ، ويقضى الظهر قبل قضاء العصر ، وهكذا ... كما يجب الترتيب بين الفوائت والحاضرة . فلا يجوز أداء الوقتية الحاضرة قبل قضاء الفائتة . وكذلك الترتيب بين الفرائض والوتر . فلا يجوز أداء الصبح قبل قضاء فائتة الوتر ، كما لا يجوز أداء الوَتر قبل أداء العشاء .

متى يجب الترتيب ؟

وإنما يجب الترتيب إذا لم تبلغ الفوائت ستا – غير الوتر – فلو كان عليه أقل من ست صلوات ، وأراد قضاءها : وجب أن يقضيها مرتبة : فيصلى الصبح مثلا قبل الظهر ، والظهر قبل العصر ، وهكذا ... فلو صلى الظهر قبل الصبح مثلا ، فسدت صلاة الظهر ، ووجب عليه إعادتها، بعد قضاء الصبح . وكذا لو صلى فائتة العصر ، قبل فائتة

الظهر. أما إذا بلغت الفوائت ستا - غير الوتر - فإنه يسقط عنه حينئذ وجوب الترتيب.فيقضيها مبتدئا بأيها شاء .

مسقطات الترتيب :-

ويسقط وجوب الترتيب بأحد أمور ثلاثة :

(١) صيرورة الفوائت ستا-كما ذكر-ولا يدخل الوتر فى العدد المذكور .

(٢) ضيق الوقت عن أن يسع الوقتية والفائتة ، فتقدم الوقتية لئلا يخرج وقتها .

(٣) نسيان الفائتة وقت أداء الوقتية ، كمن شرع بصلاة الظهر مثلا ، ناسيا فوات الصبح .

الفوائت إذا لم يعرف عددها :-

يجب على من عليه فوائت لايدرى عددها أن يقضى حتى يغلب على ظنه براءة ذمته . كما يجب تعيين الزمن ، فينوى أول مغرب عليه ، أو ينوى آخر مغرب عليه ، وهكذا ...

صلاة الجنازة :-

إذا مات المسلم افترض على من علم به من المسلمين أمور فرض كفاية : غسله ، وتكفينه ، والصلاة عليه ، ودفنه . وفرض الكفاية ، هو الذى إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الباقين .

ما يفعل بالميت قبل غسله :-

إذا مات المحتضر ، يندب شد لحييه – أى فكيه – بعصابة عريضة ، تربط من فوق رأسه ، وتغميض عينيه ، وتليين مفاصله برفق ، ورفعه عن الأرض ، وستره بثوب صونا له عن الأعين ، بعد نزع ثيابه التى مات فيها . ويجب الانتظار بتجهيزه حتى يتحقق موته ، وبعد التحقق من موته ينبغى الإسراع بتجهيزه ودفنه. ويستحب إعلام الناس بموته ، لتكثير المصلين عليه . ويعجل بتجهيزه إكراما له .

غسل الميت :-

المفروض من غسله مرة واحدة ، بحيث يعم بها جميع بدنه . أما تكرار غسله وترا فهو سنة .

ويشترط لفريضة الغسل أمور :

١ – أن يكون الميت مسلما ، فلا يغسل الكافر .

٢ – أن لا يكون سقطا ، فلا يغسل السقط إلا إذا نزل حيا ، بأن سمع له صوت ، أو رئيت لــه حركة . أما إذا نزل ميتا غير تام الخلق ، بل ظهر بعض خلقه ، فإنه لا يغسل الغسل المعروف ، وإنما يصب عليه الماء،ويلف فى خرقة،ويسمى لأنه يحشر يوم القيامة .

٣ – أن يوجد من جسد الميت أكثره ، أو نصفه مع الرأس .

٤ – أن لا يكون شهيدا ، وهو من قتل فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله. ويقوم التيمم مقام غسل الميت عند فقد الماء ، أو تعذر الغسل، كأن مات حريقا ، ويخشى أن يتقطع بدنه إذا غسل بدلك ،

أو يصب عليه الماء بدون دلك. ويجب ستر عورة الميت ؛ فلا يحل للغاسل ولا غيره أن ينظر إليها . وكذلك لا يحل لمسها ؛ فيجب أن يلف الغاسل على يده خرقة ، ليغسل بها عورته . ولهذا لا يحل للرجال تغسيل النساء ، وكذلك العكس .

سنن غسل الميت ، ومندوباته ، ومكروهاته :-

يسن تكرار الغسلات إلى ثلاث ، بحيث تستوعب كل غسلة منها جميع بدن الميت فإن لم يحصل إنقاء البدن بالثلاث ، يزاد عليها حتى ينقى البدن، لكن يندب أن تنتهى الزيادة إلى وتر : خمس أو سبع ...

ويندب أن يوضع على مكان مرتفع من وقت تيقن موته ، إلى حين غسله . والغسل بالماء الساخن أفضل . ويندب أن يجعل فى ماء الغسلة الأخيرة كافور ونحوه من الطيب ، إلا أن الكافور أفضل . ويستثنى من ذلك المحرم بحج أو عمرة ، فيجنب الطيب كما لو كان حيا ، لأن الطيب من محظورات الإحرام .

أما غيرها من الغسلات ، فيندب أن يكون بماء فيه صابون ونحوه مما ينظف . ويندب أن يجرد الميت عند غسله من ثيابه ماعدا ساتر العورة .ويندب أن يوضأ كما يتوضأ الحى عند الغسل من الجنابة ، إلا المضمضة والاستنشاق ، فإنهما لا يفعلان فى وضوء الميت ، لئلا يدخل إلى جوفه فيسرع فساده ، وللمشقة فى ذلك . لكن يستحب أن يلف الغاسل خرقة على سبابته وإبهامه ، ويبلها بالماء ، ثم يمسح بها أسنان الميت ولثته ومنخريه ، فيقوم ذلك مقام المضمضة والاستنشاق .

ويندب أن يكون المغسل ثقة ، كى يستوفى الغسل ، ويستر ما يراه من سوء ، ويظهر ما يراه من حسن. ويندب أن يجفف بدن الميت بعد الغسل ، حتى لا تبتل أكفانه . ويندب للغاسل أن يغتسل بعد تغسيله الميت .

ويكره تسريح شعر الميت ولحيته ، كما يكره قص ظفره وشاربه ، وسائر شعر بدنه ، بل المطلوب أن يدفن بجميع ما كان عليه ، فإن سقط منه شئ من ذلك رد إلى كفنه ليدفن معه . والنجاسة الخارجة من الميت لا تضر ، سواء ما أصاب بدنه منها أو كفنه .

التكفين :-

وأحب الأكفان الثياب الأبيض ، سواء أكانت جديدة أم لا. وكل ما يباح للرجال لبسه فى حال الحياة ، يباح للتكفين به بعد الوفاة ، وكل ما لا يباح فى حال الحياة كالحرير ، فلا يجوز التكفين به ، إلا إذا لم يوجد غيره. أما المرأة فيجوز تكفينها بالحرير . والسنة فى الكفن أن يكون قميصا وإزارا ولفافة : والقميص من أصل العنق إلى القدم . والإزار من قرن الرأس إلى القدم .ومثله اللفافة . ويزاد للمرأة على ذلك خمار يستر وجهها ، وخرقة تربط ثدييها .

الصلاة على الميت

شروطها :-

[١] أن يكون الميت مسلما ، فلا يصلى على كافر .

[٢] أن يوضع الميت أمام المصلين .

[٣] أن توضع الجنازة على الأرض حين الصلاة عليها ، فلا تصح إن كان الميت مرفوعا على دابة ، أو على أيدى الناس .

[٤] أن يكون حاضرا أو أكثره ، فلا يصلى على غائب . أو من فقد أكثر بدنه .

[٥] أن يكون المصلى مستوفيا لشروط الصلاة ، ماعدا الوقت ، فان وقت صلاةالجنازة عند حضورها .

أركانها :-

١ - التكبيرات الأربع .

٢ - والقيام .

وأما السلام بعد التكبيرة الرابعة فواجب ، كما فى سائر الصلوات .

سننها :-

(أ) قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى .

(ب) والصلوات الإبراهيمية - التى تقرأ بعد التحيات - بعد التكبيرة الثانية ، وتصح بغيرها من الصيغ ، كقولك : " اللهم صلى على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ". ولكن الإبراهيمية أفضل.

(جـ) الدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة .

(د) ولادعاء بعد التكبيرة الرابعة ، ولا بأس أن يقول : " ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ".أو يقول : " اللهم لاتحرمنا أجره ، ولاتفتنا بعده ، واغفر لنا وله ولكافة المسلمين " . ثم يسلم .

كيفيتها :-

صلاة الجنازة لا آذان لها ولا إقامة ، ولا ركوع فيها ولا سجود. يقف الإمام محاذيا لصدر الميت ، ويصطف الناس خلفه ، ويكبر الإمام ، ويكبر المقتدون .

التكبيرة الأولى : " مثل تكبيرة الإحرام ". ويقرءون بعدها الفاتحة ، ثم يكبرون .التكبيرة الثانية : " بدون رفع الأيدى " . ويقرءون بعدها الصلوات الإبراهيمية ، ثم يكبرون : التكبيرة الثالثة : " بدون رفع أيضا ". ويدعون بعدها للميت ؛ والأفضل أن يكون الدعاء بالمأثور ، ومنه :

" اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا . اللهم من أحييته منا ، فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منه فتوفه على الإيمان .اللهم إن كان محسنا فزد فى إحسانه ، وإن كان مسيئا فتجاوز عن سيئاته . اللهم اغفر له ؛ وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ؛ ووسع مدخله ، واغسله بالماء والثلج البرد ، ونقه من الخطايا ؛ كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وزوجا خيرا من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر ، ومن عذاب النار . اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتننا بعده ".

ومن لم يحسن هذا الدعاء فليقل : " اللهم اغفر له وارحمه ... " ، وإن كان الميت صغيرا ، يدعو المصلون عليه بالدعاء المذكور ، إلى قولهم : " فتوفه على الإيمان " ثمَ يقولون : اللهم اجعله لنا فرطا وسلفا وأجرا ". والفرط : السابق المهئ للمصالح . ثم يكبرون .

التكبيرة الرابعة : " بدون رفع الأيدى أيضا " . وإذا زاد الإمام على أربع تكبيرات ، فالمقتدى لا يتابعه فى الزيادة بل ينتظر حتى يسلم معه ، وصحت صلاة الجميع .

أما إذا نقص عن أربع تكبيرات ، فتبطل صلاة الجميع إن كان النقص عمدا ، فإن كان سهوا ، فالحكم فيها كحكم نقص ركعة فى الصلاة ، إلا أنه لا سجود للسهو فى صلاة الجنازة .

وإذا جاء المأموم فوجد الإمام قد فرغ من التكبيرة ، واشتغل بالثناء ، أو فرغ من الثانية ، واشتغل بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، أو فرغ من الثالثة ، واشتغل بالدعاء ، فلا يكبر فى الحال ، بل ينتظر إمامه ليكبر معه ، هذا قول الطرفين أما المفتى به فقول أبى يوسف : أنه لا ينتظره وتحسب له التكبيرة ، فإن لم ينتظره وكبر فلا تفسد صلاته ، لكن لا تحسب هذه التكبيرة . ثم بعد سلام الإمام يأتى المسبوق بالتكبيرات التى فاتته ، إن لم ترفع الجنازة فورا ، فان رفعت فورا سلم ، ولا يقضى ما فاته من التكبيرات . ويندب أن تكون صفوف المصلين عليه ثلاثة فأكثر .

والأحق بالصلاة على الميت – أى بالإمامة فيها – ولى الأمر إن حضر ، ثم ولى الميت . فيقدم الابن ثم ابن الابن وإن سفل ، ثم الأب ، ثم الجد وإن علا ، ثم الأخ ، وهكذا يقدم الأقرب فالأقرب .

وإن دفن الميت بلا صلاة صلى على قبره ، وإن لم يغسل ما لم يتفسخ، لسقوط شرط طهارته لحرمة نبشه .

وإذا اجتمعت جنائز ، فالإفراد بالصلاة لكل منها أولى ، ويقدم الأفضل فالأفضل . وإن اجتمعت الجنائز وصلوا عليها مرة واحدة صح .

حمل الجنازة :-

يستحب حمل الجنازة ، ولو بعض خطوات ، والإسراع بها بلا مبالغة. ويستحب تشييعها ، والسير خلفها ، والسكوت فى الطريق معها ؛ للاعتبار بالموت والتفكير فيه . ويكره تحريما رفع الصوت بالذكر والقرآن، وعليهم الصمت . ويكره إتباع النساء الجنائز كراهة تحريم أيضا. ويكره الجلوس قبل وضعها . ويستحب أن يسجى - أى يغطى - قبر المرأة عند الدفن سترا لها ، إلى أن يسوى عليها اللحد ، أما الرجل فلا. ويسن أن يقول اللاحد عند وضع الميت فى القبر : " بسم الله ، وبالله وعلى ملة رسول الله " . ويكره البناء على القبر كراهة تحريم . ولا بأس بالكتابة عليه لئلا يذهب الأثر .

ومن مات فى سفينة ، وكان البر بعيدا ، وخيف عليه الضرر ، غسل، وكفن ، وصلى عليه ، وألقى فى البحر ، ويثقل ليرسب .

التعزية :-

التعزية لصاحب المصيبة مستحبة . ووقتها من حين الموت إلى ثلاثة أيام . وتكره بعد ذلك ، إلا إذا كان المعزى أو المعزى غائبا ، فإنها لا تكره حينئذ بعد ثلاثة أيام . ويستحب أن يقال للمصاب : " غفر الله تعالى لميتك ، وتجاوز عنه ، وتغمده برحمته ، ويرزقك الصبر على مصيبته وآجرك على موته ".

وأفضل صيغة فى التعزية صيغة رسول صلى الله عليه وسلم ، وهى: " إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ".

ويحسن أن يضيفها إلى ما سبق . والأولى أن تكون التعزية بعد الدفن ، وإذا اشتد الجزع ، فتكون قبل الدفن أولى .

ويكره تكرار التعزية . وتكره الضيافة من أهل الميت ، لأنها شرعت في السرور، وهى في المأتم بدعة مستقبحة ، والأولى الاعتذار عن قبولها.

زيارة القبور ، والدعاء لأهلها :-

زيارة القبور مستحبة للاتعاظ وتذكر الآخرة . وتتأكد يوم الجمعة ، ويوما قبلها ويوما بعدها . وينبغى للزائر الاشتغال بالدعاء والتضرع ، والاعتبار بالموت ، وقراءة القرآن للميت ، فإن ذلك ينفعه .

ويقول الزائر : " السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين – أى فى الموت – وإنا إن شاء الله بكم للاحقون. أسأل الله لنا ولكم العافية . السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ، ونحن بالأثر ". ولا فرق فى الزيارة بين أن تكون المقابر قريبة أو بعيدة ، بل يستحب السفر لزيارة الموتى ، خصوصا مقابر الصالحين .

أما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فهى من أعظم القرب . وكما تستحب زيارة القبور للرجال ، تستحب أيضا للنساء العجائز ، اللاتى لا يخشى منهن الفتنة ، إن لم تؤد زيارتهن إلى الندب أو النياحة ، وإلا كانت محرمة .

الفصل الثانى

تشريع الزكاة فى الإسلام

ما الزكاة ..؟

الزكاة لغة .. الطهارة ، والنماء ، والبركة ، والمدح ، وكله قد استعمل فى القرآن الكريم والحديث الشريف .

ويقال : زكا الزرع ، إذا نما وزاد(١). وإذا وصف الأشخاص بالزكاة ، بمعنى الصلاح ، فذلك يرجع إلى زيادة الخير فيهم ، وتطلق أيضا على المدح ، كما جاء فى قوله تعالى : " فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ " (٢)، أى تمدحوها. كما تطلق على التطهير ، كما ورد فى القرآن الكريم : " قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا " (٣)، أى زكا نفسه ، أى طهرها ونقاها . وأصل التسمية – كما قال العلماء – مأخوذة من قوله سبحانه : " خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا " (٤).

والزكاة شرعا : كما عرفها الفقهاء – حق واجب فى مال خاص ، لطائفة مخصوصة ، فى وقت مخصوص . أى أنها الحصة المقدرة من المال ، التى فرضها الله عز وجل للمستحقين .

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٣٩٨/١ .

(٢) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

(٣) سورة الشمس ، الآية ٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

حكمها :-

الزكاة فريضة من فرائض الإسلام ، وركن من أركانه . يقول عـــز وجل : " وءاتوا الزكـاة " (١). فهـى الركن الثـالث مـن أركـان الإسـلام ، وعلى هذا الركن تقوم مبانيه العظام ، من جحد وجوبها عالما بذلك ، أو جاحدا ، كفر بإجماع آراء الفقهاء ، لأنه يعد فى نظرهم مكذب لله ورسوله وإجماع الأمة .

قال الفقهاء : وإذا لم يتب جاحد الزكاة ويرتد عن غيه .. قتل كفرا وجوبا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة " (٢). أما مـن منـع الزكـاة بخلا أو تهاونا ، أخذت منه قهرا ، كدين الآدمي ، لما يؤخذ العشر منه .

الأصل فى تشريع الزكاة :-

والأصل فى مشروعية الزكاة .. الكتاب ، والسنة ، والإجماع .

- أما الكتاب .. فقول الحق سبحانه : "وَآتُواْ الزَّكَاةَ " (٣). وقولـه عــز وجل : " وآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ " (٤). وقوله جل وعلا : "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ " (٥).

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٣ .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة البقرة – الآية ١١٠ ، سورة النور – الآية ٥٦ ، وسورة النساء – الآية ٧٧ .

(٤) سورة الأنعام – الآية ١٤١ .

(٥) سورة البقرة – الآية ٢٦٧ .

- وأما السنة .. فمنها حديث إرسال معاذ إلى اليمن .. " أعلمهم أن الله افترض عليهم فى أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد فى فقرائهم " (١).

- وأما الإجماع .. فقد أجمع المسلمون ، فى جميع العصور على وجوبها ، واتفق الصحابة - رضى الله عنهم - على قتال مانعي الزكاة ، فروى البخاري بإسناده ، عن أبى هريرة قال : " لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر بن الخطاب لأبى بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله ". فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها . قال عمر : فو الله ما هو إلا أنى رأيت أن قد شرح الله صدر أبى بكر ، فعرفت أنه الحق " (٢).

وروى الجماعة ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان صاعا من شعير ، على كل حر أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين (٣) ".

قال جمهور العلماء : معنى (فرض) هنا ألزم وأوجب ، فزكاة الفطر فرض واجب عندهم لدخولها فى عموم قوله تعالى:" وآتوا الزكاة" .

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) نيل الأوطار جـ ١٧٩/٤ .

وقد سماها رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – زكاة ، فهى داخلة فى أمر الله بها . فقوله صلى الله عليه وسلم (فرض) وهو غالب فى استعمال الشرع بهذا المعنى . ومما يؤكد أن : (فرض) بمعنى أوجب وألزم ، اقترانها بحرف الجر (على) ، التى تفيد الوجوب أيضا .

الحكمة فى مشروعية الزكاة :–

والحكمة فى مشروعيتها – ما جاء عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : " فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمه للمساكين ".

وكان من حكمة الشارع أيضا تقليل مقدار الواجب ، وإخراجه مما يسهل على الناس ، من غالب قوتهم ، حتى يشترك أكبر عدد ممكن من الأمة ، فى هذه المساهمة الكريمة ، وهذا الإسعاف العاجل فى هذه المناسبة المباركة .

شروط وجوب الزكاة :–

١ – الإسلام ؛ فلا تجب على كافر ، لأن الكافرغير مخاطب بفروع الشريعة .

٢ – البلوغ ؛ فلا تجب الزكاة على الصبي ، لأن من شروط صحة الزكاة النية ، وليس للصبي نية معتبرة .

٣ – العقل ؛ فلا تجب على المجنون ، للسبب السابق .

٤ – أن يبلغ المال المملوك نصابا ، فلا تجب الزكاة إلا على مالك النصاب، . والنصاب هو ما جعله الشارع علامة وجوب الزكاة .

ويختلف النصاب باختلاف المال المزكى . وسيأتي بيانه عند ذكر كل نوع من الأنواع التى تجب فيها الزكاة .

٥ - الملك التام ؛ وذلك بأن يكون المال مملوكا فى اليد ، فلو ملك شيئا لم يقبضه ، فلا تجب فيه الزكاة ، كمهر المرأة قبل قبضه ، فلا زكاة عليها فيه . وكذلك لا زكاة على من قبض مالا ، ولم يكن ملكا له ، كالمدين الذى فى يده مال غيره . ولا زكاة فى المال الموقوف ، لعدم الملك فيه ، ولا فى الزرع النابت بأرض مباحة غير مملوكة ، لعدم الملك أيضا ، إلا إن حماها الإمام ففيها العشر .

٦ - خلو المال من الدين ، فمن كان عليه دين يستغرق النصاب ، أو ينقصه ، فلا تجب عليه الزكاة . والدين يمنع وجوب الزكاة بجميع أنواعها ، إلا زكاة الزروع والثمار .

٧ - حولان الحول القمري على ملك النصاب . وإنما يشترط كمال النصاب فى طرفي الحول ، سواء أبقى فى أثنائه كاملا أم لا ، فإذا ملك نصابا فى أول الحول ، ثم تم فى آخره ، وجبت فيه الزكاة كذلك . أما إذا استمر ناقصا ، حتى تم الحول ، فلا تجب فيه الزكاة . ومن ملك نصابا فى أول الحول ، ثم استفاد مالا فى أثناء الحول ، فإنه يضم إلى أصل المال ، وتجب فيه الزكاة إذا بلغ المجموع نصابا ، وكان المال المستفاد من جنس المال الذى معه. وإنما يشترط حولان الحول فى غير زكاة الزروع والثمار. أما زكاة الزروع والثمار فلا يشترط فيها نصاب ولا حولان حول.

ما لا تجب فيه الزكاة :-

لا تجب الزكاة فى دور السكنى ، وثياب البدن ، وأثاث المنزل ، ودواب الركوب - ومثلها السيارات - وسلاح الاستعمال ، وما يتجمل به من الأواني إذا لم يكن من الذهب أو الفضة .

وكذلك لا تجب الزكاة فى آلات الصناعة ، ولا فى كتب العلم إذا لم تكن للتجارة ، سواء أكان مالكها من أهل العلم أم لا . ولا تجب الزكاة أيضا فى الجواهر كاللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، ونحوها ، إذا لم تكن للتجارة .

أنواع الأموال التى تجب فيها الزكاة :-

الأموال التى تجب فيها الزكاة خمسة :

(١) النعم ، وهى الإبل والبقر والغنم . والمراد بالبقر ما يشمل الجاموس، وبالغنم ما يشمل الماعز . ولا زكاة فى غير ما ذكر من الحيوان ، كالخيل والبغال والحمير ، إلا إذا كانت للتجارة ، ففيها زكاة التجارة الآتي بيانها .

(٢) الذهب والفضة ، ولو غير مضروبين .

(٣) عروض التجارة ؛ كالزيت والسمن والثياب ونحوها ...

(٤) المعدن والركاز .

(٥) الزروع والثمار . ولا زكاة فيما عدا هذه الأنواع الخمسة .

زكاة النعم :-

تجب الزكاة فى النعم بشرطين :

الأول : أن تكون سائمة ترعى فى المراعي المباحة بلا علف خاص أكثر أيام السنة.

والثاني : أن تبلغ النصاب.والنصاب يختلف باختلاف النعم،كما سيأتي بيانه

زكاة الإبل :-

أول نصاب الإبل خمس ، فإذا بلغتها ففيها شاة من الضأن أو المعز . والشاة التى تجزئ فى الزكاة هى ما أتمت سنة ، ودخلت فى الثانية ، معزا كانت أو ضأنا ، بشرط أن تكون سليمة من العيوب . وهكذا فى كل خمس شاة إلى عشرين ، ففيها أربع شياه . فإن بلغت خمسا وعشرين ففيها (بنت مخاض). سميت (بنت مخاض) لأن أمها قد لحقت بالمخاض أو الحوامل . وهى ما بلغت من الإبل سنة ، ودخلت فى الثانية . فإذا بلغت ستا وثلاثين ، ففيها (بنت لبون) . وبنت اللبون : هى التى صارت أمها ذات لبن ، لأنها تكون قد حملت حملا آخر ووضعته . فإذا بلغت ستا وأربعين ، ففيها (حقة) . سميت بذلك لأنها استحقت الركوب . وهى ما أتمت ثلاث سنين ، ودخلت فى الرابعة . فإذا بلغت إحدى وستين ، ففيها (جذعة) – أى فتية ، وهى ما أتمت أربع سنين ، ودخلت فى الخامسة . وما زاد على ذلك فهو مبين فى الكتب المطولة . وما بين كل فريضتين من جميع ما تقدم معفو عنه لا زكاة فيه . ففى الخمس من الإبل شاة إلى التسع ففيها شاه ، ولاشيء فى مقابلة الأربع الزائدة على أصل النصاب ، وهكذا ...

زكاة البقر :-

وأول نصاب البقر ثلاثون ، فإذا بلغتها ففيها (تبيع) . والتبيع من البقر ما أوفى سنة ، ودخل فى الثانية . وسمى (تبيعا) لأنه لا يزال يتبع أمه . فإذا بلغت أربعين ، ففيها (مسنة) . وهى من البقر ما أوفت سنتين ، ودخلت فى الثالثة . وسميت : (مسنة) لطلوع سنها . فإذا زادت على ذلك، ففى كل ثلاثين (تبيع) وفى كل أربعين (مسنة) وما بين الفريضتين كذلك معفو عنه ، ولا زكاة فيه .

زكاة الغنم :-

وأول نصاب الغنم أربعون ، وفيها شاه من الضأن أو المعز . إلا إذا كانت الغنم ضأنا ، تعين الإخراج منها . وإن كانت معزا ، فالإخراج من المعز . وإن كانت ضأنا ومعزا ، فالإخراج من الجنس الغالب . وإن تساويا فله الخيار . والشاه التى تجزئ فى الزكاة هى ما أتمت سنة ، ودخلت فى الثانية، معزا كانت أو ضأنا ، بشرط أن تكون سليمة من العيوب .

فإذا بلغت مئة وإحدى وعشرين ، ففيها شاتان . فإذا بلغت مئتين وواحدة ، ففيها ثلاث شياه . وما بين الفريضتين معفو عنه ، فلا زكاة فيه.

زكاة الذهب والفضة :-

تجب الزكاة فى الذهب والفضة إذا بلغا النصاب ، كلا على حدة ، أو إذا ضم أحدهما إلى الآخر . ونصاب الذهب عشرون مثقالا وهو الدينار .

ويخرج مالك النصاب من الذهب ربع العشر زكاة له بالشروط المتقدمة . ونصاب الفضة مئتا درهم [١] .

ويخرج مالك النصاب من الفضة ربع العشر أيضا زكاة له . ولا فرق في الذهب والفضة بين أن يكونا مضروبين أو غير مضروبين . وفي الدين زكاة تبقى في ذمة المالك ، يؤديها متى قبض الدين . وفي الحلي من الذهب والفضة زكاة أيضا إذا بلغت النصاب. ويعتبر فيها الوزن لا القيمة.

زكاة الزروع والثمار :–

يجب في الزروع والثمار العشر ، إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر أو السيح – يعني الماء الذي يسيح على الأرض من المصارف ونحوها .

ويجب فيها نصف العشر، إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها . وتجب الزكاة في كل ما تخرجه الأرض : من الحنطة والشعير والأرز وأصناف الحبوب والبقول والرياحين والورد والبطيخ والقثاء والخيار والباذنجان والعصفر والتمر والعنب ، وغير ذلك ... سواء أكان قليلا أم كثيرا،فلا يشترط في الزروع والثمار نصاب،ولا حولان حول

---

(١) اختلف العلماء قديما وحديثا في بيان مقدار الدرهم والمثقال ، وذلك لصعوبة ضبط مقدار الدرهم الشرعي والمثقال الشرعي من جهة ، وصعوبة التفريق بينه وبين الدرهم العرفي والمثقال العرفي من جهة أخرى .

ومن متابعة هذا البحث فيما كتب فيه بعض القدماء والمحدثين ، تبين لنا أن الأحوط تقدير نصاب الفضة بـ (٥٩٥) غراما باصطلاحنا اليوم ، وهو ما يعادل (٢٠٠) درهم في الاصطلاح القديم .

والأحوط أن نقدر نصاب الذهب بـ (٨٥) غراما باصطلاحنا اليوم ، وهو ما يعادل (٢٠) مثقالا في الاصطلاح القديم . ونظرا لتغير سعر الذهب والفضة من وقت لآخر ، فعلى من ملك ذهبا أو فضة أن يعرف وزنها ، فإذا بلغت نصابا كما هو مبين ، فيسأل عن قيمة غرام الذهب أو الفضة يوم وجوب الزكاة، فيعرف قيمة النصاب بالعملة الدارجة ، فيستخرج منه الزكاة الواجبة وهي : ربع العشر أي : ٥و٢٪.

ويقوم النقد المتداول اليوم مقام الذهب والفضة ، فتجب فيه الزكاة إذا بلغ نصاب الذهب أو الفضة ، وهي ربع العشر أي ٥و٢٪ والأولى فيه اعتبار ما هو أنفع للفقير احتياطا .

وتجب الزكاة أيضا فى الجوز واللوز والكمون والكزبرة ، وفيما يجمع من ثمار الأشجار ليست بمملوكة كأشجار الجبال . وما ينفق على الزروع من الكلف يحسب على الزارع فتجب الزكاة فى كل الخارج ، بدون أن يخصم منه النفقات .

وإذا باع المالك الزرع قبل إدراكه ، وجبت الزكاة على المشتري إذا تركه حتى استحصد ؛ وبعد الإدراك على البائع . ووقت وجوب زكاة الخضر عند ظهور الثمرة ، والأمن عليها من الفساد ، ويخرج حقها وقت قطعها . أما وقت زكاة الحبوب ؛ فبعد كيلها وتنقيتها .

زكاة عروض التجارة :-

عروض التجارة : جمع عرض ، وهو ما ليس بنقد ، أى ليس ذهبا ولا فضة . وتجب فيها الزكاة ربع العشر بشروط وهى :

[١] أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة .

[٢] أن يحول عليها الحول ، والمعتبر فى ذلك طرفا الحول لا وسطه ، كما فى سائر الأموال التى تجب فيها الزكاة . وإن زادت قيمتها فى آخر الحول عن النصاب ، فإنه يخرج زكاتها باعتبار هذه الزيادة.

[٣] أن ينوى التجارة . وإذا بقيت عنده عروض التجارة أعواما ، ثم باعها بعد ذلك ، فعليه : زكاتها لجميع الأعوام ، لا لعام واحد فقط . وإنما تجب الزكاة فى قيمتها لا فى عينها . ويضم عند التقويم بعضها إلى بعض ، ولو اختلفت أجناسها : كثياب ، وسمن ، ونحاس ... كما يضم الربح الناشئ عن التجارة إلى أصل المال فى الحول . وكذلك المال الذى استفادة من غير التجارة : كالإرث ، والهبة .

زكاة المعادن والركاز :-

المعدن والركاز بمعنى واحد ، وهو مال وجد تحت الأرض ، سواء أكان معدنا خلقه الله تعالى ، دون أن يضعه فيه أحد أم كان كنزا دفنه الكفار .

ويجب فيه إخراج الخمس ، وما بقى بعد الخمس فللواجد إن وجده فى أرض غير مملوكة لأحد كالصحراء والجبل . وإن وجده فى أرض مملوكة، ففيه الخمس المذكور ، والباقي للمالك . وإن وجده فى داره ، فإنه لا يجب فيه الخمس ، ويكون ملكا لصاحب الدار .

ويلحق بالكنز ما يوجد تحت الأرض من سلاح وآلات وأثاث ونحو ذلك ، فإنه يخمس على ما تقدم . ولاشيء فيما يستخرج من البحر : كالعنبر واللؤلؤ والمرجان والسمك ونحو ذلك .

مصارف الزكاة :-

تصرف الزكاة للأصناف الثمانية المذكورة فى قوله تعالى : " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ والْعَامِلِينَ عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ والْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابنِ السَّبِيلِ " (١).

١- الفقير : هو الذى يملك أقل من النصاب .

٢- المسكين : هو الذى لا يملك شيئا . ويحل للمسكين أن يسأل ، بخلاف الفقير ، فإنه لا يحل له المسألة مادام يملك قوت يومه بعد سترة بدنه .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٠ .

٣- العامل عليها : هو الذى نصبه الإمام لأخذ الصدقات والعشور فيأخذ بقدر ما عمل .

٤- فى الرقاب : هم الأرقاء المكاتبون . والرقيق المكاتب : هو الذى كاتبه سيده – أى اتفق معه – على أن يدفع إليه مبلغا من المال ليجعله حرا .

٥- الغارم : هو الذى عليه دين ، ولا يملك نصابا كاملا بعد دينه . والدفع إليه لسداد دينه أفضل من الدفع للفقير .

٦- فى سبيل الله : هم الفقراء المنقطعون للغزو فى سبيل الله . وما ينفق فى سبيل تعليم الفقراء ، ومداواة مرضاهم هو إنفاق عليهم ، وإعطاء لهم ، فيجوز إعطاء الزكاة للمؤسسات الخيرية ، كمؤسسة طبية لمعالجة الفقراء أو تعليمهم ، أو الإنفاق عليهم ، باعتبار أن هذه الجماعات نائبة عن الفقراء الذى تتولى الإنفاق عليهم .

٧- ابن السبيل : هو الغريب المنقطع عن ماله ، فيجوز صرف الزكاة له بقدر الحاجة فقط . والأفضل أن يستدين.

٨- والمؤلفة قلوبهم : صنف من الكفار يعطون من الزكاة ليتألفوا على الإسلام .ويشترط لصحة أداء الزكاة النية المقارنة لإخراجها ، أو لعزل ما وجب إخراجه .

ولا يجوز للمالك أن يصرف الزكاة لأصوله : كأبيه وأمه وجدته ، وإن علوا . ولا لفروعه : كابنه وابن ابنه ، وبنته وأولادها ، وإن سفلوا ذكورا كانوا أو إناثا . ويجوز إعطاء الزكاة لزوج ابنته ، وزوجة أبيه، وخالته وعمته . ولا يجوز من أحد الزوجين للآخر . وصرف الزكاة

لغير من ذكر من الأقارب المحتاجين أفضل من صرفها للبعيد . ولا يجوز صرف الزكاة فى بناء مسجد ، أو مدرسة ، أو تكفين ميت ، أو كل ما ليس فيه تمليك لمستحق الزكاة .

ويكره نقل الزكاة من بلد إلى بلد ، إلا أن ينقلها إلى قرابته ، أو إلى من هو أحوج إليها من فقراء بلده . وإذا نوى الزكاة بما يعطيه لصبيان أقاربه ، أو لمن يأتيه ببشارة ونحوها أجزأه . وكذا ما يدفعه للفقراء فى المواسم والأعياد .

ولا يجوز أن يدفع الزكاة إلى غير المسلم ، لأنها حق المسلم . ويجوز التصدق على الذمي بغير مال الزكاة . ويجوز التوكيل فى دفع الزكاة ، ويجوز للوكيل أن يوكل غيره بلا إذن . ولابد من وجود النية من الأصيل الموكل . فلو نوى الأصيل عند الدفع لوكيله ، ثم دفعها الوكيل إلى الفقير بلا نية جاز . ولا يشترط أن يعلم الفقير أنها زكاة . ولا تدفع الزكاة إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى حرمها عليهم ، وعوضهم بخمس الغنائم . هذا هو الحكم فى الأصل ، لكن أفتى العلماء بجواز دفع الزكاة لهم ، لانقطاع الخمس . وتحل لهم صدقات التطوع ، والوقف .

زكاة الفطر :-

زكاة الفطر واجبة على كل حر مسلم قادر . وقد أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم فى السنة التى فرض فيها صيام رمضان قبل الزكاة .

شروط وجوبها :-

شروط وجوبها ثلاثة :

الإسلام ، والحرية ، وملك النصاب الفاضل عن حاجته الأصلية . ولا يشترط فيها العقل ولا البلوغ ؛ فتجب فى مال الصبي والمجنون ، حتى إذا لم يخرجها وليهما كان آثما ، ويجب عليهما دفعها للفقراء بعد البلوغ ، والإفاقة من الجنون .

وقت وجوبها :-

ووقت وجوبها من طلوع فجر عيد الفطر ، ويصح أداؤها مقدما ومؤخرا ، لأن وقت أدائها العمر ؛ فلو أخرجها فى أى وقت شاء ، كان مؤديا لا قاضيا ، كما فى سائر الواجبات الموسعة – أى التى ليس لها وقت محدود – إلا أنها تستحب قبل الخروج إلى صلاة العيد .

عمن يخرجها الرجل ؟

ويخرجها الرجل عن نفسه ، و عمن تلزمه نفقته ، كزوجته ، وأبنائه، وخدمه الذين يتولى أمورهم ، ويقوم بالإنفاق عليهم .

من أى شئ تخرج الزكاة ؟

وتخرج الزكاة من أربعة أشياء : الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب . فيجب من الحنطة نصف صاع عن الفرد الواحد وهو مقدر بكيلوين تقريبا . ويجب من الشعير والتمر والزبيب صاع كامل . أى قدر أربع كيلوات تقريبا . ويجوز إخراج القيمة من النقود ، والأفضل الأنفع

للفقير . ويجوز دفع زكاة جماعة إلى مسكين واحد كما تجوز دفع زكاة الواحد إلى مساكين . ومصرف زكاة الفطر ، هو مصرف الزكاة العامة التى سبق بيانها .

من آداب الزكاة :-

من أدب المعطى :-

١ - الإسرار ، فإن ذلك أقرب إلى الإخلاص ، وأبعد عن الرياء والسمعة . إلا إذا كان فى إظهارها ترغيبا للناس فى الاقتداء به ، لكن ينبغي أن يلاحظ سره من داعية الرياء : " إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " (١) .

٢ - التعجيل عن وقت الوجوب إظهارا للرغبة فى امتثال الأمر الإلهي ، ولإيصال السرور إلى قلوب الفقراء وصرفا لنزعات الهوى ووساوس الشيطان : " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ " (٢).

٣ - الحذر من إبطال الثواب بالمن والأذى : قال عز وجل : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى " (٣) . والمن : أن يذكرها ويتحدث بها ، أو يستخدم الفقير بسببها ، أو يتكبر عليه من أجل عطائه . والأذى : أن يظهرها إذا كان الإظهار يؤذيه أو يعيره بالفقر ، أو ينهره ، أو يوبخه على مسألته ، وأن يرى نفسه خيرا من الفقير . وأصل المن أن يرى نفسه محسنا إلى الفقير ، ومنعما عليه

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧١ . (٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٨ . (٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .

... وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول صدقته، التى هى حق الله تعالى ، والتى فيها طهارته ونجاته من النار .

٤ - انتقاء الأجود من المال والأبعد عن الشبهة . قال تعالى :" لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ " (١) . وقال أيضا : " وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ " (٢) .

٥ - استصغار العطية ، فإن استعظمها أعجب بها ، والعجب من المهلكات .

٦ - إعطاء الصدقة لمن تزكوا به الصدقة وهم :

- الأقارب الأقربون من الاخوة والأخوات ، والأعمام والأخوال والخالات ، وأولادهم ، ثم ذوو الأرحام ، لتكون صدقة وصلة رحم ، ثم الجيران ، ثم أهل محلته ، ثم أهل بلده .
- الأتقياء ، لأنهم يستعينون بالمال على التقوى ، فيكون مقويا لهم فى طاعاتهم بإعانته إياهم عليها .
- الفقراء المستورون ، الذين يخفون حاجتهم ، ولا يعلنون الشكوى ، وأرباب النعم الذين ذهبت نعمتهم ، ويعز عليهم إظهار الحاجة والمسألة . يقول سبحانه وتعالى : " يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ " (٣) .
- وأهل العلم الفقراء ، الذين قطعوا أنفسهم لطلبه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٩٢ . (٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧ . (٣) سورة البقرة ، الآية ٢٧٣ .

من أدب الآخذ :-

(١) أن يشكر المعطى ويدعو لـه ، ويثنـى عليـه ، بحيـث لا يخـرج عن كونه واسطة لوصول نعمة الله إليه . وشكر المعطى لا ينافى رؤيـة النعمة من الله عز وجل . ففى الحديث الشريف :"ومن أسدى إليكـم معروفا فكافئوه ، فإن لم تستطيعوا فـادعوا لـه ، حتـى تعلمـوا أن قـد كافأتموه " . ومن الحديث الشريف أيضا : " من لم يشكر النـاس لـم يشكر الله " [١] .

(٢) أن يعلم أن الله عز وجل أنعم عليه بالزكـاة ، لتكـون عونـا لـه علـى الطاعة ، فإن استعان بهـا علـى المعصيـة ، كـان كـافرا للنعمـة غير شاكر لها ، مستحقا للمقت والبعد من الله عز وجل .

(٣) أن ينظر فيما يأخذه ، فإن لم يكن حلالا تورع عنه ، فـلا يـأخذ ممـن أكثر كسبه من الحرام ، إلا إذا ضاق الأمر عليه .

---

(١) قال الترمذى : هذا حديث حسن .

الفصل الثالث

تشريع الصيام فى الإسلام

تعريف الصيام :-

الصيام – فى اللغة – الإمساك عن القول أو الفعل . والصيام شرعا: هو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، مع النية .

أقسامه :-

ينقسم الصوم إلى ستة أقسام :-

الأول : الصيام المفروض : وهو صوم شهر رمضان أداء وقضاء .

الثاني : الصيام الواجب : وهو صوم الكفارات : كفارة اليمين ، وكفارة القتل ، وكفارة الصوم ، وكفارة الظهار (١) . وصوم النذر ، وجزاء الصيد فى الإحرام ، وصوم الاعتكاف المنذور ، وقضاء ما أفسده من نفل لوجوبه فى الشروع فيه .

الثالث : الصيام المسنون : وهو صوم يوم عاشوراء – أى العاشر من محرم – مع اليوم التاسع قبله .

الرابع : الصيام المندوب : وهو صيام ثلاثة أيام من كل شهر . ويندب أن تكون الأيام البيض ، وهى : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري ، سميت بذلك لتكامل ضوء

---

(١) الظهار : هو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمي .

القمر فى لياليها ، وشدة البياض فيها . ومن الصيام المندوب أيضا صوم الاثنين والخميس ، وصوم تسع ذى الحجة السابقة على يوم النحر ، ومن التسع يوم عرفة .

الخامس : صيام النفل : وهو النفل المطلق ، مما لم تثبت كراهيته ، ولا تخصيصه بوقت .

السادس : الصيام المكروه : وهو قسمان : مكروه تحريما ، ومكروه تنزيها :

* فالمكروه تحريما : هو صوم يومي العيدين : عيد الفطر والأضحى ، وصوم أيام التشريق ، وهى الحادى عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذى الحجة .
* والمكروه تنزيها : صوم يوم عاشوراء منفردا عن التاسع أو عن الحادى عشر .

شروط وجوب الصيام

يجب الصوم بشروط ثلاثة :

أولها : الإسلام ؛ فلا يجب الصوم على الكافر حتى يسلم ، لأنه غير مخاطب بفروع الشريعة . ولو صام الكافر لا يصح منه ، لأن النية شرط لصحة الصوم ، والنية لا تصح إلا من المسلم .

ثانيها : البلوغ ؛ فلا يجب الصيام على الصبي ولو مميزا ، لكن يؤمر به عند بلوغه سبع سنين ، ويضرب على تركه إذا بلغ عشر سنين ، إن أطاقه .

ثالثها : العقل ؛ فلا يجب الصوم على المجنون فى حالة جنونه ، ولو جن نصف الشهر ثم أفاق ، وجب عليه صيام ما بقى ، وقضاء ما فات . أما إذا أفاق بعد فراغ الشهر ، فلا يجب عليه قضاؤه . ومثل المجنون المغمى عليه .

شروط وجوب أداء الصيام :-

يجب أداء الصيام بشرطين اثنين :

الأول : الإقامة ؛ فلا يجب أداء الصيام على المسافر سفرا طويلا ، وهو مقدر بـ (٨١) كيلو مترا فأكثر ، وإن وجب عليه قضاؤه . والعبرة بطلوع الفجر ، فإن طلع عليه الفجر وهو مقيم ، وجب عليه صوم ذلك اليوم ، وإن طلع عليه الفجر وهو مسافر لم يجب عليه الصوم.

الثاني : الصحة ؛ فلا يجب الأداء على المريض ، وإن كان مطالبا بالقضاء بعد شفائه من مرضه .

شروط صحة أداء الصيام :-

يصح أداء الصيام بشرطين اثنين أيضا :

[١] الطهارة من الحيض والنفاس ، فلا يصح للحائض والنفساء أداء الصيام وإن كان يجب عليهما قضاؤه . أما الجنب فيصوم ، ويصح صومه مع الجنابة ، لكنه آثم إذا ترك الصلاة التى يشترط لصحتها الطهارة . وصيام الجنب صحيح ، ويسقط به الفرض ، وإن استمرت جنابته ، لكنه بعيد عن القبول .

[٢] النية ؛ فلا يصح الصوم إلا بالنية تمييزا للعبادات من العادات . والقدر الكافي من النية ، أن يعلم بقلبه أنه يصوم كذا ويسن له أن يتلفظ بها . والسحور بقصد الصوم نية للصوم . ووقت النية كل يوم بعد غروب الشمس إلى ما قبل نصف النهار .

والنهار الشرعي من انتشار الضوء فى الأفق الشرقي عند طلوع الفجر ، إلى غروب الشمس ، فقسم هذا الزمن نصفين ، وتكون النية فى النصف الأول ، بحيث يكون الباقي من النهار إلى غروب الشمس أكثر مما مضى .

فلو لم يبيت النية بعد غروب الشمس ، حتى أصبح بدون نية ، ممسكا عن المفطرات ، فله أن ينوى إلى ما قبل نصف النهار كما سبق بيانه . ولابد من النية لكل يوم من رمضان .

ولو نوى الصيام فى أول الليل ، ثم رجع عن نيته قبل طلوع الفجر ، صح رجوعه فى كل أنواع الصيام .

وإذا نوى فى رمضان صيام يوم آخر ، سواء أكان منذورا أو مندوبا ، يقع عن رمضان ، لأن رمضان معيار لا يسع غيره . إلا إذا كان مسافرا ، ونوى صوما واجبا ، فإنه يقع عن ذلك الواجب ، لأنه مرخص له بالفطر حال السفر .

ما يجب فيه تبييت النية وما لا يجب :-

- يجب تبييت النية وتعيينها فى قضاء رمضان ، وفى صيام الكفارات ، والنذر المطلق ، كما لو قال : " لله على صيام يوم "

من غير تعيين . فلا بد من تبييت النية وتعيينها فى صيام ذلك اليوم .

- ولا يجب تبييت النية فى أداء رمضان - كما سبق بيانه - ولا فى النذر المعين ، ولا فى النفل المطلق . فتصح النية فى هذه الثلاثة من غروب الشمس إلى ما قبل نصف النهار .

ما يفسد الصوم وما لا يفسده :-

مفسدات الصوم قسمان :

١ - القسم الأول يوجب القضاء دون الكفارة ، وهو ثلاثة أنواع :

(الأول) : أن يتناول الصائم ما ليس فيه غذاء ، أو ما فيه معنى الغذاء .

وما فيه غذاء : هو ما يميل الطبع إلى تناوله ، وتنقضي به شهوة البطن . وما فى معنى الغذاء : هو الدواء . أما ما ليس غذاء ، ولا فى معنى الغذاء : فهو كالأرز النيئ ، أو العجين ، أو الدقيق غير المخلوط بشيء يؤكل عادة كالسمن والعسل ، وإلا وجبت فيه الكفارة . وكذا إذا أكل طينا ، أو ابتلع حصاة ، أو درهما ، أو ترابا ، أو أكل ملحا كثيرا دفعة واحدة ... فإن ذلك مما لا يقبله الطبع ، ولا تنقضى به شهوة البطن . أما أكل القليل منه ، فإن فيه الكفارة مع القضاء لأنه يتلذذ به عادة . وكذا إذا ابتلع نواة ، أو قطعة من الجلد ، أو ثمرة من الثمار ، التى لا تؤكل قبل نضجها ، وإلا كانت فيه الكفارة .

وكذا إذا أدخل ماء أو دواء فى جوفه ، بواسطة الحقنة من الدبر أو الأنف أو قبل المرأة . وكذا إذا صب فى أذنه دهنا .

وكذا إذا دخل فى فمه مطر ، أو ثلج ، ولم يبتلعه بصنعه . وكذا إذا تعمد إخراج القيء من جوفه، أو خرج كرها وأعاده بصنعه، بشرط أن يكون ملء الفم فى الصورتين .

أما إذا كان القيء أقل من ملء الفم ، فلا شئ فيه . وإذا أكل ما بقى بين أسنانه من الطعام إذا كان قدر الحمصة وجب القضاء . فإن كان أقل من قدر الحمصة ، فلا يفسد صومه لعدم الاعتداد به . وكذا إذا كون ريقه ثم ابتلعه ، أو بقى بلل بفمه بعد المضمضة ، وابتلعه مع الريق ، فلا يفسد صومه .

وينبغي أن يبصق بعد المضمضة ، قبل أن يبتلع ريقه ، ولا تشترط المبالغة فى البصق .

(**والثاني**) : مما يوجب القضاء دون الكفارة : أن يتناول غذاء أو دواء لعذر شرعي ، كمرض أو سفر أو إكراه أو خطأ ، كما لو أهمل وهو يتمضمض فوصل الماء إلى جوفه .

ومن هذا القسم – أى ما يوجب القضاء دون الكفارة – ما لو أفطرت المرأة خوفا على نفسها أن تمرض من الخدمة، أو كان الصائم نائما وأدخل شيئا مفطرا فى جوفه .

وكذا إذا أفطر عمدا بشبهة شرعية ، بأن أكل عمدا بعد أن أكل ناسيا ، ظانا أنه أفطر فى النسيان . وكذا إذا لم يبيت النية ليلا ، ثم نوى نهارا ، فإنه إذا أفطر لا تجب عليه الكفارة ، لشبهة عدم صيامه عند الشافعية ، لأن أداء رمضان عندهم مما يجب فيه تبييت النية .

كذا إذا نوى الصوم ليلا ، ولم ينقض نيته ، ثم أصبح مسافرا ، ونوى الإقامة بعد ذلك ، ثم أكل ، لا تلزمه الكفارة، وإن حرم عليه الأكل فى هذه الحالة . وكذا إذا أكل أو شرب مثلا ، شاكا فى طلوع الفجر ، وكان الفجر طالعا ، فيجب عليه القضاء دون الكفارة ، لوجود الشبهة . وكذا إذا أفطر ظانا غروب الشمس ، ثم تبين له أنها لم تغرب .

(والثالث) : مما يجب فيه القضاء دون الكفارة : أن يقضى شهوة الفرج غير كاملة ، وذلك بالاستمناء .

ومن هذا القسم : ما لو أدخل أصبعه مبلولة بماء أو دهن فى دبره ، فوصلت إلى محل الحقنة . ولا يكون هذا إلا إذا تعمده ، أو بالغ فيه . ومثل هذا مايسميه الأطباء (حمولا أو تحاميل) ويستعملونه لخفض الحرارة ، أو لغير ذلك من التداوي . وكذلك المرأة إذا أدخلت أصبعها مبلولة بماء أو دهن فى فرجها الداخل .

ففى كل هذه الأشياء ونحوها يجب القضاء دون الكفارة إذا كانت عمدا.أما النسيان فإنه لا يفسد الصيام أصلا ، ولا يجب به قضاء ولا كفارة، سواء ذلك فى جميع أنواع الصيام.

ومما لا يفسد الصوم : صب الصائم ماء أو دهنا فى إحليله للتداوي . وكذا لو أمنى بنظرة بشهوة أو احتلم . وكذا شم الروائح العطرية ، كالورد والنرجس ... وكذا دخول

غبار الطريق ، أو غربلة الدقيق ، أو بخول الذباب أو البعوض إلى الحلق من غير تعمد .

ولا يفسد الصوم بتأخير غسل الجنابة حتى تطلع الشمس، ولو مكث جنبا كل اليوم ، لكنه يأثم بذلك لتضييعه الصلاة ، كما سبق بيانه .

٢ - القسم الثاني يوجب القضاء والكفارة ، وهو نوعان :-

الأول : أن يتناول غذاء أو ما فى معناه ، بدون عذر شرعي ، كالأكل والشرب ونحوهما ، مما يميل إليه الطبع وتنقضي به شهوة البطن .

والثاني : أن يقضى شهوة الفرج كاملة ، وذلك بالجماع . وإنما تجب الكفارة فى هذين القسمين بشروط :

(١) أن يكون الصائم المكلف مبيتا للنية فى أداء رمضان . فلو لم يبيت النية لا تجب عليه الكفارة . وكذا إذا بيت النية فى قضاء ما فاته من رمضان ، أو فى صوم آخر غير رمضان ، ثم أفطر ، فإنه لا كفارة عليه .

(٢) أن لا يطرأ عليه ما يبيح الفطر كالمرض ، فإنه يجوز له أن يفطر بعد حصول المرض .

(٣) أن يكون طائعا مختارا لا مكرها .

(٤) أن يكون متعمدا ، فلو أفطر ناسيا أو مخطئا ، لا كفارة عليه كما تقدم .

ما لا يكره للصائم فعله :-

[١] الاغتسال .

[٢] المضمضة والاستنشاق ، ولو فعلهما لغير وضوء .

[٣] السواك فى جميع ساعات النهار ، بل هو سنة ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون السواك يابسا أو أخضر ، مبلولا بالماء أو لا .

[٤] التبرد بالماء بلف ثوب مبلول على بدنه ، ونحو ذلك .

[٥] القبلة ، إن أمن الإنزال والجماع .

[٦] الحجامة ونحوها ، إذا كانت لا تضعف الصائم عن صومه .

ما يكره للصائم فعله :-

(١) مضغ شئ بلا عذر كالعلك .

(٢) جمع ريقه فى فمه ثم ابتلاعه ، لما فيه من الشبهة .

(٣) فعل ما يظن أنه يضعفه عن الصوم ، كالفصد والحجامة ، فإن ظن أنه لا يضعفه فلا كراهة .

(٤) ذوق شئ لا يتحلل منه ما يصل إلى الجوف ، بلا فرق بين أن يكون الصوم فرضا أو نفلا ، إلا فى حالة الضرورة ، فيجوز للمرأة أن تذوق الطعام لتتبين ملوحته ، إذا كان زوجها سيئ الطباع .

(٥) تقبيل الرجل امرأته ، إذا لم يأمن على نفسه الإنزال أو الجماع . أما إذا أمن فلا كراهة .

الأعذار المبيحة للفطر :-

الأعذار التى تبيح للصائم الفطر كثيرة .. منها :

١ - المرض ؛ فإذا مرض الصائم ، وخاف بالصوم زيادة المرض ، أو تأخر الشفاء ، أو حصول مشقة شديدة ، جاز له الفطر . أما إذا غلب على ظنه الهلاك بسبب الصوم ، أو الضرر الشديد ، كتعطيل حاسة من حواسه ، وجب عليه الفطر ويأثم إذا صام . ومن كان صحيحا ، وغلب على ظنه حصول المرض لو صام ، فهو كالمريض ، فيباح له الفطر .

٢ - السفر الطويل ، وهو (٨١) كيلومترا فأكثر ، بشرط أن يشرع فيه قبل طلوع الفجر ، بحيث يفارق بنيان بلده قبل طلوع الفجر . ويستحب للمسافر الصوم إن لم يشق عليه ، فإن شق عليه كان الفطر أفضل .

٣ - خوف الحامل والمرضع الضرر من الصيام على نفسيهما وولديهما معا ، أو على نفسيهما فقط ، أو على ولديهما فقط . ويجب عليهما القضاء عند القدرة بدون فدية ، وبدون متابعة الصوم فى أيام القضاء . ولا فرق فى المرضع بين أن تكون أما ، أو مستأجرة للإرضاع .

٤ - الجوع والعطش الشديدان اللذان لا يقدر معهما على متابعة الصوم فيجوز لمن حصل له شئ من ذلك الفطر ، وعليه القضاء .

٥ – الحيض والنفاس ، فلو حاضت الصائمة أو نفست ، وجب عليها الفطر ، وحرم عليها الصيام ، ولو صامت فصومها باطل ، وعليها القضاء .

٦ – وكبر السن ؛ فالشيخ الهرم الفاني ، الذى لا يقدر على الصوم فى جميع فصول السنة ، يفطر وعليه عن كل يوم فدية طعام مسكين . ومثله المريض الذى لا يرجى برؤه ولا قضاء عليهما للعجز عن الصيام .

أما من عجز عن الصوم فى رمضان ، ولكن يقدر على قضائه فى وقت آخر ، فإنه يجب عليه القضاء فى ذلك الوقت ، ولا فدية عليه.

وإذا زال العذر المبيح للإفطار فى أثناء النهار ، كأن طهرت الحائض ، أو أقام المسافر ، أو بلغ الصبي ، وجب عليه الإمساك بقية اليوم احتراما للشهر .

ما هى الكفارة ؟

الكفارة : هى عتق رقبة ، بشرط أن تكون سليمة من العيوب المضرة، كالعمى والبكم والجنون .فإن لم يجدها ، فصيام شهرين متتابعين.

فإن صام فى أول الشهر القمري ، أكمله وما بعده باعتبار الأهلة . فإن ابتدأ الصيام فى أثناء الشهر صام باقية ، وصام الشهر الذى بعده كاملا باعتبار الهلال ، وأكمل الأول ثلاثين يوما من الشهر الثالث ، ولا يحسب يوم القضاء من الكفارة .

ولابد من التتابع فى صيام هذين الشهرين ، بحيث لو أفسدت يوما فى أثنائها ، ولو بعذر شرعي كسفر ، صار ما صامه نفلا ، ووجب عليه استئناف الكفارة ، لانقطاع التتابع الواجب فى صيامها .

فإن لم يستطع الصوم لمشقة شديدة ونحوها ، فإطعام ستين مسكينا ، بأن يشبعهم فى غذاءين ، أو عشاءين ، أو فطور وسحور . أو يدفع لكل واحد نصف صاع من القمح – وهو ما يعادل كيلوين تقريبا – أو قيمته ، أو صاعا من الشعير ، أو التمر .

ويجب أن لا يكون فى المساكين من تلزمه نفقته كأصوله وفروعه وزوجته . ولا تتعدد الكفارة بتعدد ما يقتضيها مطلقا ، سواء أكان التعدد فى يوم واحد ، أم فى أيام متعددة ، وسواء أكان فى رمضان واحد ، أو متعدد من سنين مختلفة .

إلا أنه لو فعل ما يوجب الكفارة ، ثم كفر عنه ، ثم فعل ما يوجبها ثانيا فإن كان هذا التكرار فى يوم واحد ، كفت كفارة واحدة . وإن كان التكرار فى أيام مختلفة ، كفر عما بعد الأول ، الذى كفر عنه ، بكفارة جديدة.

ما يستحب للصائم:-

يستحب للصائم أمور .. منها :

{١} التسحر على شئ وإن قل ، ولو جرعة ماء .

{٢} تعجيل الفطر بعد تحقق الغروب وقبل الصلاة . ويستحب أن يكون على رطب ، وإلا فتمر ، وإلا فماء ، وأن يكون ما يفطر عليه من ذلك وترا ، ثلاثة فأكثر .

{٣} كف اللسان عن فضول الكلام . وأما كفه عن الحرام كالغيبة والنميمة والكذب ... فواجب فى كل زمان ، ويتأكد فى رمضان . وكذلك كف سائر الجوارح عن الآثام .

{٤} الدعاء عند الفطر بالمأثور ، ومنه : " اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . يا واسع الفضل اغفر لي ، الحمد لله الذى أعانني فصمت ورزقني فأفطرت ".

{٥} الاشتغال بتلاوة القرآن ، والذكر ، والدعاء ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومطالعة العلم الشرعي ، كلما تيسر له ذلك ليلا أو نهارا .

{٦} الإكثار من الصدقة والإحسان إلى ذوى الأرحام والفقراء والمساكين.

{٧} الاعتكاف ، وسيأتي بيانه .

الاعتكاف :

تعريفه :-

لزوم المسجد والإقامة فيه للعبادة على وجه مخصوص يأتي بيانه ، بنية التقرب إلى الله عز وجل .

أقسامه ومدته :-

الاعتكاف ثلاثة أقسام : واجب وسنة ومستحب .

فالواجب : هو المنذور ، فمن نذر أن يعتكف ، وجب عليه الاعتكاف .

والســـنة : هو الاعتكاف فى العشر الأواخر من رمضان فى كل عام .

والمستحب : هو الاعتكاف فى غير العشر الأواخر المذكورة .

شروطه :-

١ - الإسلام ؛ فلا يصح الاعتكاف من كافر .

٢ - التمييز ، فلا يصح من مجنون ونحوه ، ولا من صبي غير مميز . أما الصبي المميز - وهو الذى بلغ السابعة من العمر - فيصح اعتكافه .

٣ - قوعه فى المسجد ، فلا يصح الاعتكاف فى بيت ونحوه . ويشترط فى المسجد أن يكون مسجد جماعة - وهو ماله إمام ومؤذن - هذا إذا كان المعتكف رجلا . أما المرأة فتعتكف فى مسجد بيتها الذى أعدته لصلاتها . ويكره تنزيها اعتكاف المرأة فى مسجد الجماعة المذكورة .

٤ - النية ؛ فلا يصح الاعتكاف بغير نية .

٥ - الطهارة من الجنابة والحيض والنفاس .

٦ - الصيام إن كان الاعتكاف واجبا وهو المنذور . أما اعتكاف التطوع يشترط فيه الصوم .

مفسدات الاعتكاف :-

[١] الجماع .

[٢] الخروج من المسجد . وخروج المعتكف من المسجد له حالتان :

الحالة الأولى : أن يكون الاعتكاف واجبا بنذر ، وفي هذه الحالة لا يجوز له الخروج من المسجد مطلقا ليلا أو نهارا ، عمدا أو نسيانا . فمن خرج بطل اعتكافه إلا لعذر.

والأعذار التي تبيح للمعتكف اعتكافا واجبا الخروج من المسجد تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(أ) أعذار طبيعية ، كالبول والغائط والجنابة بالاحتلام ، حيث لا يمكنه الاغتسال في المسجد . فيخرج المعتكف من المسجد للاغتسال من الجنابة ، ولقضاء حاجة الإنسان ، بشرط أن لا يمكث خارج المسجد إلا بقدر قضائها .

(ب) أعذار شرعية ، كالخروج لصلاة الجمعة ، إذا كان المسجد المعتكف فيه لا تقام في الجمعة . ولا يجوز له أن يخرج إلا بقدر ما يدرك به أربع ركعات قبل الأذان بين يدي الخطيب ، ولا يمكث بعد الفراغ من الصلاة إلا بقدر ما يصلي أربع ركعات. فإن مكث أكثر من ذلك لم يفسد اعتكافه ، لأن المسجد الثاني محل للاعتكاف إلا أنه يكره له ذلك تنزيها ، لمخالفته ما التزمه أولا ، وهو الاعتكاف في المسجد الأول بلا ضرورة .

(جـ) وأعذار ضرورية ؛ كالخوف على نفسه أو متاعه إذا استمر في هذا المسجد . وكذا إذا انهدم المسجد ، فإنه يخرج بشرط أن يذهب إلى مسجد آخر فورا ناويا الاعتكاف فيه . أما إذا خرج من المسجد في الاعتكاف الواجب بلا عذر من هذه الأعذار المبيحة للخروج ، أثم وبطل ما فعل منه .

والحالة الثانية : أن يكون الاعتكاف نفلا ، وفى هذه الحالة لا بأس بالخروج منه ، ولو بلا عذر ، لأنه ليس له زمن معين ينتهي بالخروج ، ولا يبطل ما مضى منه ، فإن عاد إلى المسجد ثانيا ، ونوى الاعتكاف كان له أجره .

[٣] الإغماء إذا استمر أياما ، ومثله الجنون .

[٤] الحيض والنفاس ، فإذا طرأ أحدهما على المعتكفة اعتكافا واجبا بنذر معين ، فسد اعتكافها ، وعليها قضاء ما بقى من الأيام المنذورة ، ولا تستأنف الاعتكاف من أوله .

وإن كان النذر غير معين ، استأنف الاعتكاف ، ولا يعد بما تقدم منه على وجود المفسد .

مكروهات الاعتكاف :-

يكره تحريما فى الاعتكاف أمور ؛ منها :

١- الصمت ، إذا اعتقد أنه قربة ، أما إذا لم يعتقده كذلك فلا يكره . والصمت عن معاصي اللسان من أعظم العبادات .

٢- وإحضار سلعة فى المسجد للبيع . أما عقد البيع لما يحتاج إليه لنفسه أو لعياله بدون إحضار السلعة فجائز . بخلاف عقد التجارة ، فإنه لا يجوز .

من آداب الاعتكاف :-

(١) أن لا يتكلم المعتكف إلا بخير .

(٢) الإكثار من تلاوة القرآن ، وذكر اللـه تعـالى ، والصـلاة علـى النبـي صلى الله عليه وسلم ، ومطالعة العلم الشرعي ، وتدريسه .

(٣) أن يختـار أفضـل المسـاجد ، وهـي : المسـجد الحرام ، ثـم المسـجد النبوي الشريف ، ثم المسجد الأقصى ، لمـن كـان مقيمـا هنـاك ، ثـم المسجد الجامع .

الفصل الرابع

تشريع الحج في الإسلام

تعريف الحج :-

الحج – في اللغة – القصد ، وكثرة الاختلاف والتردد ، تقول العرب: حج بنو فلان فلانا ، إذا قصدوه ، وأطالوا الاختلاف إليه ، والتردد عليه .

قال الخليل بن أحمد : الحج كثرة القصد إلى من تعظمه ، ورجل محجوج أي مقصود. والحاج : من يحج البيت الحرام ، والجمع : حجاج وحجيج .

والحج – شرعا – قصد مكة لعمل مخصوص ، في وقت مخصوص، أي لأداء عبادة الطواف ، والسعي ، والوقوف بعرفة ، وسائر المناسك ، استجابة لأمر الله ، وابتغاء مرضاته . في وقت مخصوص : أي القصد في أشهر معلومات – هي شوال وذو القعدة وذو الحجة – إلى البيت الحرام للنسك والعبادة . وسمي السفر إلى البيت (حجا) دون ما سواه . والحج : بالفتح والكسر لغتان .

والحج الأكبر : هو الذي يسبقه الوقوف بعرفة ، قال تعالى : "وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ "[1] . ويقال : يوم النحر ، ويوم عرفة . والحج الأصغر : هو الذي ليس فيه وقوف بعرفة ، ويسمى العمرة .

---

(١) سورة التوبة – الآية ٣.

والحج حكما : أنه أحد أركان الإسلام ، ومبنى من مبانيه العظام ، من جحد وجوبه عالما كفر . وإن كان جاهلا عرف ، فإن أصر بعد التعريف كفر . وهو فرض كفاية مرة ، فمن زاد فهو تطوع .

والدليل على أنه إحدى الدعائم الخمس ، التى بنى عليها الإسلام : حديث ابن عمر ، المتفق عليه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا " [1] .

الأصل فى مشروعية الحج :-

والأصل فى مشروعيته ووجوبه : الكتاب .. والسنة .. والإجماع.

- فأما دليل وجوبه من كتاب الله : فقوله تعالى : " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " [2] . وقوله سبحانه : " وأتموا الحج والعمرة لله ".

- وأما دليل وجوبه من السنة المطهرة : فالأحاديث كثيرة .. من ذلك ما رواه مسلم – فى صحيحه – عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا " فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله : " لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم " ثم قال : "ذروني ما تركتم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ،

(١) رواه أحمد ، أنظر الفتح الرباني ٧٩/١ ، ومسلم ٤٥/١ ، والبخاري ٤٩/١.
(٢) سورة آل عمران – الآية ٩٧ .

واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه ".

– وأما الإجماع .. فقد أجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع فى العمر مرة واحدة .

وجوب الحج على الفور :-

من استطاع الحج فى أشهر الحج وجب عليه الحج على الفور . ففى الحديث الشريف " تعجلوا الحج ، فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له " [١].

شروط وجوب الحج :-

١ – الإسلام ؛ فلا يجب على كافر .

٢ – العقل ؛ فلا يجب على مجنون .

٣ – البلوغ ؛ فلا يجب على صبي .

٤ – الحرية ؛ فلا يجب على رقيق .

٥ – الاستطاعة ؛ وتكون فى النفس ، وفى المال ، وفى الطريق ، أو باحجاج غيره عنه .

فالاستطاعة بالنفس : هى أن يكون المكلف صحيح البدن والأعضاء ، فلا يجب مع العجز ، كالأعمى والمقعد والمريض ...

والاستطاعة بالمال : بأن يكون قادرا على زاد يكفيه إلى حين عودته. وأن يكون قادرا على أجرة الركوب ، إذا كان بعيدا عن مكة . ويشترط فى الزاد وأجرة الركوب أن يكونا زائدين عن نفقة عياله إلى حين عودته .

---

(٤) رواه أحمد ٣١٤/١ ، وأشار السيوطى فى الجامع ١٣١/١ إلى ضعفه .

والاستطاعة فى الطريق : بأن يكون الغالب عليه السلامة ، فإن خاف على نفسه أو ماله ، فلا يجب عليه الحج.

والاستطاعة باحجاج غيره عنه : الأصل فيها ما روى أن امرأة من خثعم قالت يا رسول الله ، إن فريضة الله فى الحج ، أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ فقال : نعم [1] .

فدل على جواز حج المسلم عن غيره عند العجز ، وأنه يقع عن المحجوج عنه.فيجوز الحج عن الميت إذا مات ولم يحج،ولو لم يوصى به.

كما يجوز الحج عن العاجز عنه عجزا مستمرا إلى الموت . وأما حج النفل فإنه يقبل النيابة من غير شرط . ويشترط فى استطاعة المرأة شرط زائد على استطاعة الرجل ، وذلك أن يكون معها زوج أو محرم . ومحرم المرأة هو من لا يجوز له أن ينكحها أبدا . ولا فرق بين العجوز والشابة . فيحرم على المرأة أن تخرج إلى الحج من غير أن يكون معها زوج أو محرم . ففى الحديث الشريف : "لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم ، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم " [2] .

لماذا أخر تشريع الحج عن بقية الفرائض ؟

قال الفقهاء : لقد شاءت حكمة الله سبحانه ، تأخير الحج عن الصلاة والزكاة والصيام ، لأن الصلاة عماد الدين . ولشدة الحاجة إليها لتكررها كل يوم خمس مرات ، ثم الزكاة لكونها قرينة لها فى أكثر المواضع ، ولشمولها المكلف وغيره ، ثم الصوم لتكرره كل سنة .

---

(١) انظر الفتح الرباني ١١/٣٨ ، ٣٩ ، البخاري ٢/٥٦٥ ، ٥٦٦ ، مسلم ٢/٩٧٥ .
(٢) البخارى ٢/٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ومسلم ٢/٩٧٥ .

متى فرض الحج ؟

قال بعض العلماء : إنه فرض عام ست من الهجرة . وقال بعض آخر: إنه فرض عام تسع من الهجرة . ولكنهم اتفقوا جميعا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحج سوى حجة واحدة ، بعد هجرته إلى المدينة ، وهى حجة الوداع ، ولا خلاف فى أنها كانت سنة عشر من الهجرة .

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال هام .. إذا كان الحج فرض سنة ست، أو سنة تسع .. فما سبب تأخير النبي صلى الله عليه وسلم الحج إلى سنة عشر ، مع تمكنه وقدرته عليه ؟

ونرى أن عام تسع – كان عام فتح مكة ، وانتصار المسلمين ، وفى هذا العام لم يتمكن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه من منع المشركين من الطواف بالبيت وهم عراة . وقد بين الله تعالى فى كتابه العزيز ، أن منعهم من قربان المسجد الحرام ، إنما هو بعد ذلك العام ، الذى هو عام تسع ، وذلك فى قوله عز وجل : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا " (١) .

وعامهم هذا هو عام تسع ، فدل على أنه لم يمكن منعهم عام تسع ، ولذا أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عليا – كرم الله وجهه – بعد أبى بكر ينادى ببراءة . وألا يحج بعد العام مشرك ولا عريان .

---

(١) سورة التوبة – الآية ٢٨ .

فلو بادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحج عام تسع ، لأدى ذلك إلى رؤيته المشركين يطوفون بالبيت وهم عراة ، وهو لا يمكنه أن يحضر ذلك ، ولاسيما فى حجة الوداع ، التى يريد أن يبين للناس فيها مناسك حجهم .

فأول وقت أمكنه فيه الحج صافيا من الموانع والعوائق بعد وجوبه عام عشر ، وقد بادر بالحج فيه .

وقال بعض العلماء : " يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أخر الحج ، لأن الله أطلعه على أنه لن يموت حتى يحج ، فيكون على يقين من الإدراك ، أو لاحتمال عدم الاستطاعة ، أو حاجة خوف فى حقه منعه من الخروج ، ومنعه أكثر أصحابه خوفا عليه " .

ترتيب أعمال الحج :-

يستحب لمن أراد الحج أن يشاور من يثق بدينه وخبرته وعلمه فى حجه هذا ، ويجب على من يشير عليه أن يبذل له النصيحة ، ويتخلى عن الهوى وحظوظ النفس ، وما يتوهمه نافعا من أمر الدنيا ، فإن المستشار مؤتمن ، والدين النصيحة .

وتستحب له الاستخارة ، فإذا عزم على الحج ، فينبغي أن يستخير الله تعالى . وهذه الاستخارة لا تعود إلى الحج نفسه ، فإنه خير لاشك فيه ، وإنما تعود إلى وقته ، وإلى من يرافق وأى طريق يسلك ...

فمن أراد الاستخارة فعليه أن يصلي ركعتين من غير الفريضة ، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة " قل يا أيها الكافرون " ، وفى الثانية " قل هو الله أحد " . ثم يدعو بعد الصلاة فيقول :

" اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .

اللهم إن كنت تعلم أن سفري إلى الحج فى وقت (كذا) ومع فلان وفلان وفى طريق كذا خير لي فى ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله ، فاقدره لي ، ويسره لي ، ثم بارك لي فيه . وإن كنت تعلم أن ذلك شر لي فى ديني ودنياي ، ومعاشي وعاقبة أمري ، عاجله وآجله ، فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به ". ثم ليمض بعد الاستخارة لما ينشرح إليه صدره .

وينبغي أن يتعلم ما يحتاج إليه فى سفره من أحكام التيمم ، وقصر الصلاة وجمعها ، وآداب الدعاء والمأثور منه . وينبغي أن يتعلم كيفية الحج قبل أن يخرج من بلده ، أو أن يرافق من يثق بدينه ومعرفته . ويتوب من جميع المعاصي والمكروهات ، ويرد المظالم ، ويقضى ما أمكنه من ديونه ، ويرد الودائع ، ويستحل كل من بينه وبينه معاملة فى شئ ، أو مصاحبة . وينبغي أن يكتب الحاج وصيته ، ويشهد عليها . ويعد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع . ويجتهد فى إرضاء والديه ، وإن كانت زوجة استرضت زوجها ، وأقاربها ، ويستحب للزوج أن يحج بها ، أو يأذن لها بالحج مع أحد محارمها . ولا تخرج المرأة إلا مع زوج أو محرم . وقد سبق أن المحرم : هو من لا يجوز له أن يتزوجها أبدا . وينفق الحاج فى سفره من المال الحلال ، ويستصحب معه ما يكفيه لذهابه

وإيابه من غير تقتير ، بل على وجه يمكنه معه الرفق بالضعفاء . ويتصدق بشيء قبل خروجه . وتستحب له السماحة فى البيع والشراء . ويستحب له أن يطلب الرفيق الصالح ، المحب للخير ، المعين عليه . وإذا ترافق ثلاثة فأكثر ، فيسن أن يؤمروا على أنفسهم أفضلهم وأجودهم رأيا، ثم عليهم أن يطيعوه .

وتخضب المرأة يديها بالحناء ظاهرا وباطنا ، وتمسح وجهها بشيء منه . ويستحب أن يكون السفر يوم الخميس ، فإن فات فيوم الاثنين .

ويصلى ركعتين قبل الخروج من داره يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة " قل يا أيها الكافرون " ، وفى الثانية " قل هو الله أحد ".

وبعد الصلاة يقرأ آية الكرسي ، ثم يرفع يديه ويدعو الله سبحانه عن إخلاص صاف ، ونيه صادقة ، ويقول : " اللهم بك استعين ، وعليك أتوكل . اللهم ذلل لي صعوبة أمري ، وسهل علي مشقة سفري ، وارزقني من الخير أكثر مما أطلب ، واصرف عنى كل شر ، رب اشرح لي صدري ونور قلبي ، ويسر لي أمري ." اللهم إني استحفظك واستودعك نفسي وديني وأهلي وأقاربي ، وكل ما أنعمت علي وعليهم به من آخرة ودنيا فاحفظنا أجمعين من كل سوء يا كريم ".

ثم يودع أهله وجيرانه وأصحابه ، ويلتمس أدعيتهم ، فإن الله جاعل فى أدعيتهم خيرا . والسنة فى الوداع أن يقول لمن يودعه : " استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك " ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر : " فى حفظ الله وكنفه ، زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجهك للخير أينما كنت " [1] .

---

(١) رواه الترمذى ١٦٣/٥ دون قوله فى حفظ الله وكنفه وقال : حديث حسن غريب .

فإذا خرج من داره قال : " بسم الله ، آمنت بالله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " . " اللهم إني أعوذ بك من أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أوأظلم أو أظلم ، أوأجهل أو يجهل علي " ." اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، والحامل على الظهر ، والمستعان على الأمر ".

" اللهم اصحبنا بنصح ، واقبلنا بذمة ، اللهم أزو لنا الأرض ، وهون علينا السفر ". " اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، ودعوة المظلوم ، والحور بعد الكور – أى الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص – وسوء المنظر فى الأهل والمال ".

" اللهم اطو لنا البعيد وهون علينا السفر ". " اللهم لم أخرج أشرا ولا بطرا ، ولا رياء ولا سمعة . بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، وقضاء فرضك ، واتباع سنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، وشوقا إلى لقائك ".

فإذا ركب الدابة أو السيارة أو الطائرة يقول : " الحمد لله ، الحمد لله، الحمد لله. الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . سبحان الذى سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون " . " اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ".

ويجتنب فى سفره الشبع المفرط ، ويقلل من النوم فى الليل ، ويشغل أكثر وقته بالعبادة .

ويستحب له الإكثار من تلاوة القرآن ، ومن الدعاء ، والمحافظة على الأذكار الواردة بعد الصلاة . ويستحب له دوام الطهارة ، والنوم على الطهارة . ويحافظ على صلاة الجماعة فى أول وقتها ، مع السنن والرواتب .

ويحرص على فعل المعروف فى طريقه ، فيسقى الماء عند الحاجة إليه إذا أمكنه ، ويحمل المنقطع إذا تيسر له ، لأن أفضل الصدقة ما وافق ضرورة أو حاجة ، ولاسيما فى هذا السفر المبارك . وقد وقع خلاف كبير بين أئمة الفقه الإسلام حول موضوع :

- أى أنواع الحج أفضل ؟
- أن يحرم المرء قارنا بين الحج والعمرة ؟
- أم يحرم متمتعا بالعمرة إلى الحج ؟
- أم يحرم المرء مفردا بالحج ؟

قال أبو حنيفة والثوري وابن راهويه وأصحابهم : إن القران هو أفضل أنواع النسك . واحتجوا بأحاديث كثيرة ، تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قارنا - بين العمرة والحج - فى حجته الوحيدة .

منها - ما أخرجه الشيخان فى صحيحيهما عن ابن عمر قال : " تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج ، وأهدى ، فساق معه الهدى من ذي الحليفة ، وبدأ رسول الله فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج " الحديث .

ومنها : ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر : " أنه قرن الحج إلى العمرة . وطاف لهما طوافا واحدا ، ثم قال : هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الإمام أحمد وأصحابه : إن التمتع أفضل . وساقوا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واستندوا إليه ، وقالوا : لو لم يكن التمتع هو أفضل الأنساك لما أمر به أصحابه ، ولما تأسف على أنه لم يفعله حين قال: " لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة الحديث" .

وقال مالك وأصحابه ، والشافعي وأصحابه : إن الإفراد أفضل من التمتع والقران .

وقال النووي – فى شرح المهذب – " وبه قال عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وجابر ، وعائشة ، ومالك، والأوزاعي ، وداود ".

واحتج مالك وأصحابه ، بأحاديث صحيحة جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أفرد فى حجة الوداع . منها ما روى عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحجة وعمرة ، ومنا من أهل بالحج ، وأهل رسول الله بالحج " (١) .

وهذا الحديث صريح فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بالحج ، ولا يحتمل لفظ عائشة – رضى الله عنها – غير إفراد الحج ،

---

(١) هذا لفظ البخاري ومسلم .

لأنها ذكرت معه التمتع والقران ، وأن بعض الناس تمتع ، وبعضهم قرن، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بالحج ، فهو الحج المفرد ، ولا يحتمل غيره .

وفى رواية أخرى عنها – فى الصحيح – قالت : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا نرى إلا الحج " .

وفى رواية ثالثة : " ولا نذكر إلا الحج " ، وفى رواية رابعة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد الحج ".

وأمر ثان – احتج به مالك وأصحابه .. وهو إجماع أهل العلم على أن المفرد إذا لم يفعل شيئا من محظورات الإحرام ، ولم يخل بشيء من النسك أنه لا دم عليه ، وانتفاء الدم عنه مع لزومه فى التمتع والقران ، يدل على أنه أفضل منهما ، لأن الكامل بنفسه ، الذى لا يحتاج إلى الجبر بالدم أفضل من المحتاج إلى الجبر بالدم .

وأمر ثالث – ذكره البيهقى فى السنن الكبرى – بإسناد – عن سعيد بن المسيب ، أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى عمر بن الخطاب فشهد عنده ، أنه سمع رسول الله .. فى مرضه الذى قبض فيه ، ينهى عن العمرة قبل الحج.

وأمر رابع – ذكره النووي – فى شرح المهذب – على أفضلية الإفراد بالحج .. أنه هو الذى كان الخلفاء الراشدون يفعلونه بعده ، وهم أفضل الناس وأتقاهم ، وأشدهم اتباعا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم ، فقد حج أبو بكر رضى الله عنه بالناس مفردا ، وحج عمر بن الخطاب عشر سنين بالناس مفردا ، وحج عثمان بهم مدة خلافته مفردا ..

فمدة هؤلاء الخلفاء الراشدين الثلاثة حوالى أربع وعشرين سنة ، وهم يحجون بالناس مفردين ، ولو لم يكن الإفراد أفضل من غيره ، لما واظبوا عليه هذه المدة الطويلة .

ونحن نقف مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمة الله عليه في قوله : فاعلم .. أنهم أدعوا الجمع بين الأحاديث الصحيحة المصرحة بأنه صلى الله عليه وسلم كان قارنا ، والأحاديث المصرحة بأنه صلى الله عليه وسلم كان متمتعا ، وكلها ثابتة فى الصحيحين وغيرهما فى حجة الوداع ، مع الأحاديث المصرحة بأنه كان مفردا التى هى معتمدهم فى تفضيل الإفراد بأنه أحرم أولا (مفردا) ، ثم بعد ذلك أدخل العمرة على الحج فصار (قارنا) ، فأحاديث الإفراد يراد بها عندهم أنه هو الذى أحرم به أول إحرامه ، وأحاديث القران عندهم حق إلا أنه عندهم أدخل العمرة على الحج فصار (قارنا) ، وصيرورته قارنا فى آخر الأمر هى معنى أحاديث القران فلا منافاة ..

أما الأحاديث الدالة على أنه كان متمتعا ، فلا إشكال فيها ، لأن السلف يطلقون اسم (التمتع) على القران ، من حيث إن فيه عمرة فى أشهر الحج ، وكذلك أمره لأصحابه بالتمتع ، وتمنيه له ، وتأسفه على فواته بسبب سوق الهدى فى قوله : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، ما سقت الهدى وجعلتها عمرة " كفعله له .

وبهذا تتفق الأحاديث ويكون التمتع المذكور بفسخ الحج فى العمرة لبيان الجواز ، وهو بهذا الاعتبار أفضل من غيره ، فلا ينافى أن الإفراد أفضل منه بالنظر إلى ذاته ، كما سار عليه أبو بكر وعمر وعثمان -

رضى الله عنهم – وهذا هو الذى لاحظه الخلفاء الراشدون ، فواظبوا على الإفراد نحو أربع وعشرين سنة ، كلهم يأخذبسنة الخليفة الذى قبله فى ذلك.

قال :" والأظهر عندي فى هذه المسألة هو ما اختاره العلامة ابن تيمية – رحمه الله – فى منسكه ، وهو إفراد الحج بسفر ينشأ له مستقلا ، وإنشاء سفر آخر مستقل للعمرة " (١) .

" .. واعلم أن من أراد الحج له أن يحرم مفردا للحج ، وله أن يحرم متمتعا بالعمرة إلى الحج ، وله أن يحرم قارنا بين الحج والعمرة ، وإنما الخلاف بين العلماء فيما هو الأفضل من الثلاثة المذكورة ، والدليل على التخيير بين الثلاثة ما روى عن عائشة : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحجة وعمرة ، ومنا من أهل بالحج " .

وهذا نص صريح متفق عليه فى جواز الثلاثة المذكورة ، قال ابن قدامة فى المغنى : " وأجمع أهل العلم على جواز الإحرام بأى الأنساك الثلاثة شاء ".

أركان الحج وواجباته :–

أركان الحج أربعة :–

الأول : الوقوف بعرفة : لحديث : " الحج عرفة " (٢) .

الثاني : طواف القدوم – أو الزيارة – لقوله تعالى : "وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ " (٣) .

(١) أضواء البيان ١٧١/٢.   (٢) رواه أبو داود .   (٣) سورة الحج ، الآية ٢٩ .

الثالث : الإحرام ، وهو نية الدخول فى النسك ، فلا يصح حج بدونها . لحديث : " إنما الأعمال بالنيات.وإنما لكل امرئ ما نوى" (١)

الرابع : السعى بين الصفا والمروة . لحديث عائشة : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون ، يعنى بين الصفا والمروة ، فكانت سنة . فلعمري ما تم الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة (٢) . ولحديث : " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى " (٣) .

أما واجبات الحج :-

فأولها : الإحرام من الميقات .

والثاني : الوقوف بعرفة نهارا إلى غروب الشمس من يوم عرفة ، ولو غلبه نوم بعرفة .

والثالث : المبيت بمزدلفة إلى ما بعد نصف الليل إن وافى مزدلفة قبل نصف الليل.

والرابع : المبيت بمنى ليالي أيام التشريق ، لفعله عليه الصلاة والسلام، وأمره به.

والخامس : رمى الجمار مرتبا .

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم . (٣) رواه أحمد وابن ماجه .

والسادس : الحلق أو التقصير ، لأن الله تعالى وصفهم بذلك ، وامتن به عليهم فقال تعالى : " مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ " (١) . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به ؛ فقال : " فليقصر ثم ليحلل " . ودعا للمحلـــقين ثلاثـا ، وللمقصرين مرة " (٢) . وفى حديث أنس : " أن النبي صلى اللـه عليـه وسلم أتى منى فأتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، ثم قال للحلاق : خذ وأشار إلى جانبـه الأيمـن ثـم الأيسـر ، وجعل يعطيه الناس " (٣) .

والســـابع : طواف الوداع . لحديث ابن عباس : " أمر الناس أن يكـون آخر عهدهم بالبيت ، إلا أنه خفف عن الحائض " (٤) .

الإحـــــــرام :

ما الإحرام ؟

جاء فى معاجم اللغة مادة (أحرم) : أحرم الرجل : دخل فى الحرم ، أو البلد الحرام ، أو فى الشهر الحرام، أو فى حرمة من عهد أو ميثـاق .. وأحرم بالصلاة : دخل فيها ، وأحرم بالحج والعمرة ، دخل فى عمل يحـرم عليه به ما كان حلالا .

والمحرم : ذو الحرمة ، وهو مـا حـرم اللـه تعـالى ، جمعـه محـارم ، والإحرام : الدخول فى التحريم ، لأنه يحرم على نفسه بنيته ما كان مباحـا له قبل الإحرام ، من النكاح والطيب ، والحلق ...

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه أحمد ومسلم .
(٤) متفق عليه .

والبيت الحرام : الكعبة ، والمسجد الحرام الذى فيه الكعبة ، والبلد الحرام : مكة ، والشهر الحرام : أحد الأشهر الأربعة التى كان العرب يحرمون فيها القتال ، وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب. وفى التنزيل : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) . [1]

والحرم : حرم مكة ، والحرمان : مكة والمدينة .

والإحرام شرعا : هو نية أحد النسكين : الحج والعمرة ، أو هو نيتهما معا . وهو ركن من أركان الحج أو العمرة – لقوله تعالى : " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ " [2] .

وقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : "إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " [3]. والنية محلها القلب ، ولا يشترط التلفظ بها.

الإحرام من الميقات :-

للحج ميقاتان :-

الأول : ميقات زمانى ، وهو من أول شهر شوال إلى فجر يوم النحر .

والثاني : ميقات مكاني ، ويختلف باختلاف الجهات :

- فميقات المتوجه من المدينة (ذو الحليفة) وهو المكان المعروف الآن بـ (أبيار على) ، وبينه وبين مكة ٤٥٠ كيلومتر.

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٦.
(٢) سورة البينة ، الآية ٥ .
(٣) متفق عليه .

- وميقات المتوجه من نجد (قرن المنازل) . وهو جبل عند الطائف شرقي مكة يطل على عرفات ، وبينه وبين مكة ٩٤ كيلو متر ، ويسمى الآن (السيل) .
- وميقات المتوجه من العراق وخراسان (ذات عرق) . وهو جبل صغير فى الشمال الشرقي لمكة مشرف على وادى العقيق، وبينه وبين مكة ٩٤ كيلو متر .
- وميقات المتوجه من الشام على طريق تبوك ، والمتوجه من مصر والمغرب (الجحفة) وهى التى يقال لها (رابغ) ، وهى بين مكة والمدينة ، قريبة من البحر، وبينها وبين مكة ٢٠٤ كيلو متر.
- وميقات المتوجه من تهامة واليمن (يلملم) ، وهو جبل جنوبى مكة مشهور بالسعدية ، بينه وبين مكة ٥٤ كيلو متر.
- ومن كان بمكة ، فميقاته مكة نفسها .

مع ملاحظة أن :

[١] هذه المواقيت لأهلها ، ولكل من مر عليها من غير أهلها ممن يريد حجا أو عمرة . ولا تشترط أعيان هذه المواقيت ، بل يكفى الإحرام من محاذاتها يمنة أو يسرة .

[٢] من مسكنه بين مكة والميقات ، فميقاته مسكنه .

[٣] من جاوز ميقاتا غير مريد نسكا ثم أراده فميقاته موضعه .

[٤] مــن جاوز الميقات مريدا للنسك ، ولم يحرم منه عصى ، وعليه دم إن لم يعد . فإذا انتهى الحاج إلى الميقات يقلم أظفاره ، ويقص شاربه ثم يغتسل ناويا به غسل الإحرام .

ثم يفارق الثياب المخيطة المحيطة ، ويلبس ثوبي الإحرام ، فيرتدى ويتزر بإزار ورداء أبيض جديدين ، وإلا فمغسولين . ولا يعقد الرداء ، ولا يزره ، ولا يخلله بخلال . ويجوز أن يعقد الإزار ، ويشد عليه خيطا بنحو تكة . ويحرم لبس كل نعل ستر أعلى القدمين .

ويتطيب ثم يصلى ركعتين سنة الإحرام فى غير وقت الكراهة . يقرأ فيهما الفاتحة ، وفى الأولى : " قل يا أيها الكافرون " . وفى الثانيــة : " قل هو الله أحد ".

والحائض والنفساء تحرم بما شاءت من حج أو عمرة ، وتفعل جميع المناسك ، إلا الطواف فتؤخره حتى تطهر ، وكذلك السعي ، لأن شرط السعى أن يكون بعد طواف .

ثم ينوى الإحرام ، وله فيه ثلاثة أحوال :

١ - الإحرام بالعمرة فقط ، ويسمى : (التمتع) . وهو الأفضل عند الإمام أحمد رضى الله عنه .

٢ - الإحرام بالحج فقط ، ويسمى : (الإفراد). وهو الأفضل عند الإمام مالك والشافعي رضى الله عنهما .

٣ - الإحرام بالحج والعمرة معا ، ويسمى (القران) . وهو الأفضل عند الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه .

إذا أحرم بالعمرة :-

إذا أحرم بالعمرة ووصل إلى مكة المكرمة ، يطوف لها حول الكعبة سبعة أشواط ويسعى لها بين الصفا والمروة سبعة أشواط أيضا . ثم يتحلل بالحلق أو التقصير ، والحلق للرجال أفضل . ويلبس ثيابه ، وتحل له محظورات الإحرام ، لأنه أصبح حلا .

فإذا كان يوم التروية - وهو الثامن من ذي الحجة - يغتسل ، ويلبس ثياب الإحرام ويتطيب ، ويحرم بالحج ، ويخرج إلى منى متوجها إلى عرفة .

ثم يفيض منها مساء التاسع من ذي الحجة ، ويبيت في المزدلفة ويلتقط منها سبع حصيات ، ثم يصبح يوم النحر في منى ، ويرمى جمرة العقبة بسبع الحصيات التى أتى بها من المزدلفة ، ثم يذبح دم التمتع ، ثم يتحلل بالحلق أو التقصير .

ثم ينزل إلى مكة ويطوف طواف الحج ، ويسعى بين الصفا والمروة سعى الحج . ثم يعود إلى منى ، ليبيت فيها ويرمى الجمرات الثلاث فى أيام التشريق .

وإذا أحرم بالحج :-

وإذا أحرم بالحج ، ووصل إلى مكة ، فإنه يطوف حول الكعبة سبعة أشواط طواف القدوم - وهو سنة - .

ثم إن شاء عجل السعى بين الصفا والمروة ، وإن شاء أخره بعد طواف الزيارة - أى بعد النزول من عرفات ومنى - . ويبقى محرما إلى

أن ينزل ، فيتجنب محظورات الإحرام ، إلى أن يرمى جمرة العقبة يوم النحر – ولا ذبح عليه – فيتحلل بالحلق أو التقصير . وينزل إلى مكة فيطوف طواف الزيارة . ويسعى بين الصفا والمروة ، إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم . ثم يعد إلى منى ، ليبيت فيها ، ويرمى الجمرات الثلاث فى أيام التشريق . وبعد أيام التشريق يخرج إلى التنعيم ، فيحرم بالعمرة . ويعود إلى مكة ملبيا ، فيطوف لها ويسعى . ثم يتحلل منها بالحلق أو التقصير .

وإذا احرم بالحج والعمرة :-

وإذا احرم بالحج والعمرة معا ، ووصل إلى مكة ، يطوف للعمرة ويسعى لها . ويبقى محرما إلى أن يخرج إلى عرفات . ثم ينزل إلى منى، فيرمى جمرة العقبة يوم النحر . ثم يذبح دم القران . ثم يتحلل بالحلق أو التقصير . ثم ينزل إلى مكة ، فيطوف طواف الحج ، ويسعى له . ويقرن النية بالتلبية ، فيقول مثلا : " اللهم إني أريد العمرة ، فيسرها لي وتقبلها مني . نويت العمرة وأحرمت بها لله تعالى ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ".

ويسن الإكثار من التلبية فى دوام الإحرام . ويسن تجديدها خصوصا عند تقابل الرفاق ، وعند اجتماع الناس ، وعند كل صعود وهبوط ، وعند كل ركوب ونزول. ويرفع الرجل صوته بالتلبية ، أما المرأة فتخفض صوتها لأن أمرها مبنى على الستر .

والأكمل أن يلبي ثلاث مرات ، ويصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، ثم يدعو : " اللهم إني أسألك رضاك والجنة ، وأعوذ

بك من سخطك والنار ". وسن أن يشترط فى الإحرام .. فيقول المحرم : " اللهم إني أريــد النسك (الفلانى) – أى الحج أو العمرة – فيسره لــي ، وتقبله منى ، وإن حبسني حابس فمحلى حيث حبستني ".

ويفيد هذا الشرط – كما قال أهل العلم – شيئين :

أولهمـــا : إذا عاقه عدو أو مرض أو ذهاب نفقة ، ونحــوه أن لــه التحلل .

وثانيهما : أنه متى حل بذلك فلا شئ عليه . لما ورد عـن ابـن عباس – أن ضباعة بنت الزبير ، قالت : يا رسول الله ، إني امرأة ثقيلة ، وإنــي أريد الحج فكيف تأمرني أهل ، فقال : أهلــي واشترطي.أن محــلى حيث حبستني " ، وفى رواية : " فإن لك على ربك ما استثنيت " قــالت : فأدركت " [١] . فقد اختلف بعض الصحابة والتابعين حول الاشتراط فى الإحرام ..

فمن يرى الاشتراط فى الإحرام .. عمر ، وعلى ، وابن مســعود وعمار – رضى الله عنهم ، وبه قال عكرمة والشافعي بالعراق .

وممن أنكره .. ابن عمر ، والزهري ، ومالك ، وأبو حنيفة .. قالوا : إن ابن عمر كان ينكره ، ويقول : حسبكم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم. ولأنها عبادة تجب بأصل الشرع ، فلم يفد الاشتراط فيها كالصلاة .

جاء فى الاختيارات الفقهيــة : " ويستحب للمحرم الاشتراط إن كـان خائفا ، وإلا فلا ".

---

(١) رواه البخاري .

محرمات الإحرام:-

يحرم على المحرم مدة إحرامه أمور تسمى : محرمات الإحرام أو محظورات الإحرام . منها اثنتان خاصتان بالرجل ، وهما :

(١) لبس المخيط المعتاد أو المخيط فى أي جزء من البدن . ولا فرق فى المخيط بين أن يكون بخياطة أو غيرها . وعقد الرداء أو تخليله بخلال أو ربطه حرام عند الأئمة الثلاثة ، ومكروه عند أبي حنيفة. أما عقد الإزار أو تزريره أو ربطه بحزام فجائز . والتظلل ببناء أو شجر أو خيمة أو مظلة جائز . وشد منطقة – أى كمر من جلد أو غيره – فى وسطه لحفظ المال جائز . وابدال المحرم ثوبه الذى أحرم فيه بثوب آخر جائز .

(٢) تغطية الرأس أو بعضه ، ومثله الوجه . وواحدة خاصة بالمرأة ، وهى : ستر الوجه أو بعضه ، وكذا الكفان بالقفازين . ولبس المرأة حال الإحرام محيطا بكفها محظور . وإدخالها الكفين فى كمها وقميصها وجلبابها جائز . وإن خشيت المرأة نظر الرجل إليها ، سترت وجهها بنقاب متجاف عنه .

والباقي من محظورات الإحرام مشترك بين الرجل والمرأة وهو :

١ – إزالة الشعر فى أى جزء من البدن . وفي الكثير دم وفى القليل صدقة ، أما تساقط الشعر بنفسه لاشيء فيه ولو كثر .

٢ – دهن شعر الرأس والوجه بزيت ونحوه .

٣ – تقليم الأظافر .

٤ - التطيب .

٥ - التعرض للصيد البري الوحشي المأكول . أما البحري كالسمك فجائز . ومثله الأنسي - يعني الأهلي - كالغنم والبقر والإبل والدجاج . وكذلك غير المأكول من الحيوانات . أما المؤذي فيستحب قتله ، كالفأرة والحية والعقرب ... وأما الحلال - وهو غير المحرم - فيحرم عليه التعرض للصيد المذكور فى الحرم فقط ، ويحرم أكله .

٦ - التعرض لشجر الحرم وحشيشه بقلع أو قطع أو إتلاف . واستثنى الأذخر - وهو نبات طيب الرائحة - وغير الشجر فشرطه أن ينبت بنفسه ، بخلاف ما يستنبت كالحبوب فيجوز حصدها .

٧ - الوطء ومقدماته .

مباحات الإحرام :-

أقر الفقهاء .. بأنه يباح للمحرم الاغتسال ، وتغيير الرداء والإزار ، واستعمال الصابون ، ولو كانت له رائحة ، وغيره من كل ما يزيل الأوساخ - كالأشنان والسدر والخطمى ، وهى أنواع من النبات تستعمل فى التنظيف مثل الصابون ، وكذلك يجوز نقض الشعر وامتشاطه ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم عائشة فقال :" انقضي رأسك وامتشطى " [1].
كما يباح التظلل بمظلة أو خيمة أو سقف ، ونحو ذلك .

---

(١) رواه مسلم .

ويباح للمحرم قتل الذباب ، والقراد ، والنمل ، والغراب ، والحدأة ، والفأرة ، والعقرب ، والكلب العقور ، وكل ما يؤذى ، وله أن يدفع ما يؤذيه من الآدميين والبهائم حتى ولو صال عليه أحد ، ولم يندفع إلا بالقتال قاتله ، وإذا قرصته البراغيث وغيرها ، فله إلقاؤها عنه ، وله قتلها ولاشيء عليه ، وإلقاؤها أهون من قتلها .

ويباح للمحرم أيضا : الحجامة ، أى فصد الدم من الرأس ، وفقء الدمل ، ونزع الضرس ، وقطع العرق ، وحك الرأس والجلد.

قال النووي : إذا أراد المحرم الحجامة لغير حاجة ، فإن تضمنت قطع شعر فهى حرام لقطع الشعر ، وإن لم تتضمنه جازت عند الجمهور ، وكرهها مالك .

قال الحسن : فيها فدية ، وإن لم يقطع شعرا ، وإن كان لضرورة جاز قطع الشعر ، وتجب الفدية .

ويباح للمحرم كذلك تغطية وجهه ، كما يجوز للمرأة لبس الخفين . قالت الشافعية : لاشيء على من غطى رأسه ناسيا ، أو لبس قميصه ناسيا. وقال عطاء : لاشيء عليه ، ويستغفر الله تعالى .

أما الأحناف فقالوا : عليه فدية . وكذلك الخلاف فيما إذا تطيب ناسيا أو جاهلا . وقاعدة الشافعية : أن الجهل والنسيان عذر يمنع وجوب الفدية فى كل محظور ، ما لم يكن إتلافا كالصيد ، وكذلك الحلق والقلم ، أى قص الأظافر .

ويباح للمحرم كذلك – النظر فى المرآة ، وشم الريحان . روى البخاري عن ابن عباس ، قال : المحرم يشم الريحان ، وينظر فى المرآة .

ويتداوى بأكل الزيت والسمن . وقال ابن المنذر : أجمع العلماء على أن للمحرم أن يأكل الزيت والشحم والسمن ، وعلى أن المحرم ممنوع من استعمال الطيب فى جميع بدنه .

وكره الأحناف والمالكية المكث فى مكان فيه روائح عطرية ، سواء أقصد شمها ، أم لم يقصد وعند الحنابلة والشافعية – إن قصد حرم عليه ، وإلا فلا . ويباح للمحرم شد الهميان فى وسطه ، ليحفظ فيه نقوده ، ويباح له لبس الخاتم والساعة .

دخول مكة المكرمة

ويغتسل الحاج لدخول مكة إن أمكن . ويقول عند دخول الحرم : "اللهم هذا حرمك وأمنك ، فحرمني على النار ؛ وآمني من عذابك يوم تبعث عبادك ، واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك " .

وإذا رأى الكعبة المعظمة قال : " اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام . اللهم زيد بيتك هذا تشريفا وتعظيما وتكريما وبرا ومهابة ، وزد من شرفه وعظمه تعظيما وتشريفا وبرا ومهابة ".

وإذا دخل المسجد فليدخل من باب السلام ، وليقل : " أعوذ بالله من الشيطان الرحيم ، الحمد لله ، اللهم صلى على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم . اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك . بسم الله الرحمن الرحيم ، رب أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ". ويقدم رجله اليمنى فى الدخول ، واليسرى فى الخروج. ثم يشرع بالطواف .

هل يجوز لأحد دخول مكة بغير إحرام؟

قال بعض أهل العلم : لا يجوز لأحد دخـول مكـة بغير إحرام ، ولـو كان دخوله لغرض آخر غير النسك . وقال بعضهم : إن كـان دخـول مكـة لغير النسك ، فلا مانع من دخوله غير محرم . والخلاف فـى هذه المسـألة مشهور بين العلماء ..

فأما الذين قالوا : إنه لا يجوز دخول مكة بغير إحرام ، إلا للمـترددين عليها كثيرا كالحطابين ، وذوى الحاجات المتكررة ، كالمالكيـة والحنابلـة ، فقد استدلوا بمجموعة من الأدلة : منها : ما رواه البيهقى فـى سننه ، عن ابن عباس ، أنه قال : " لا يدخل مكة أحد من أهلها ولا من غير أهلهـا إلا بإحرام " .

وعن عطاء ، عن ابن عباس : " فوالله ما دخلها رسول اللـه صلـى الله عليه وسلم إلا حاجا أو معتمرا ". ومنها : أن دخول مكـة بغير إحـرام مناف للتعظيم اللازم لها . وأما الذين قالوا : يجوز دخول مكـة بـلا إحـرام لمن لم يرد نسكا ، فاحتجوا بأدلة : منها : مـا رواه البخـاري فـى صحيحـه (باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام) ، قال : " وإنما أمر النبي – صلـى الله عليه وسلم – بالإهلال لمن أراد الحج والعمـرة ، ولـم يذكـر الحطـابين وغيرهم ".

ثم ذكر بسنده حديث ابن عباس : " هن لهن ولكل آت أتى عليهن مـن غيرهم ممن أراد الحج والعمرة ". ومراد البخـاري – أن مفهوم قولـه : " ممن أراد الحج والعمرة " أن من لم يـرد الحـج والعمـرة لا إحرام عليـه ، ولو دخل مكة .

قال الفقهاء المعاصرون : إن من أراد دخول مكة لغرض غير الحج والعمرة ، أنه لا يجب عليه الإحرام ، ولو أحرم كان خيرا له ، لأن أدلة هذا القول أقوى وأظهر ، فحديث ابن عباس – خص فيه النبي صلى الله عليه وسلم الإحرام بمن أراد النسك ، وظاهره : أن من لم يرد نسكا فلا إحرام عليه ، وقد تواترت الروايات الصحيحة ، بدخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة ، يوم الفتح ، غير محرم . ودخول ابن عمر غير محرم أيضا .

وأما قول بعض العلماء – من المالكية وغيرهم – أن دخول مكة بغير إحرام من خصائصه صلى الله عليه وسلم فهو لا تنهض به حجة ، لأن المقرر فى الأصول ، وعلم الحديث ، أن فعله صلى الله عليه وسلم لا يختص حكمه به ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، لأنه هو المشرع لأمته بأقواله ، وأفعاله ، وتقريره ، كما هو معلوم .

تلبية الإحرام :-

ثبت فى الصحيحين ، من حديث ابن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول فى تلبيته ، إذا أهل محرما : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ".

وقد أجمع أهل العلم على لفظ هذه التلبية ، ولكنهم اختلفوا فى الزيادة عليها بألفاظ فيها تعظيم الله ، ودعاؤه ، ونحو ذلك ، فكره بعضهم الزيادة على التلبية الواردة عن رسول الله . وقالوا : إن الأفضل هو الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والاقتصار على لفظ تلبيته ، الثابت فى

الصحيحين وغيرهما ، لأن الله تعالى يقول : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ".وهو صلى الله عليه وسلم يقول : " لتأخذوا عني مناسككم".

وقال بعض العلماء : إن الزيادة التى وردت لا بأس بها . ودليلهم على ذلك : ما رواه مسلم في صحيحه ، عن ابن عمر ، بعد أن ساق حديثه بلفظ تلبية النبي ، قال : كان عبد الله يزيد مع هذا : " لبيك لبيك وسعديك ، والخير بيديك لبيك ، والرغباء إليك والعمل ".

معنى التلبية :-

لبى : بمعنى أجاب ، فالتلبية إجابة دعوة الله تعالى لخلقه حين دعاهم إلى حج بيته ، على لسان خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وقت التلبية :-

أما أول وقت التلبية ، فأظهر أقوال أهل العلم فيه .. أنه أول الوقت الذى يركب فيه المحرم مركوبه .. عند إرادة ابتداء السير ، لصحة الأحاديث الواردة ، بأن النبي صلى الله عليه وسلم أهل حين استوت به راحلته .

قال البخاري في صحيحه : " باب من أهل حين استوت به راحلته قائمة ". عن نافع ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : " أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استوت به راحلته قائما " . وعن نافع أيضا ، كان ابن عمر ، إذا صلى بالغداة بذي الحليفة ، أمر براحلته فرحلت ، ثم ركب فإذا استوت به ، استقبل القبلة قائما ، ثم يلبي حتى يبلغ الحرم ، ثم يمسك ، حتى إذا جاء " ذات طوى " بات به ، حتى يصبح ،

فإذا صلى الغداة اغتسل . وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك .

وجميع الروايات الصحيحة الثابتة ، واضحة الدلالة . فى أن أول وقت الإحرام والتلبية عندما يركب . حاله الشروع فى السير من الميقات . ومن المهم أن نعرف : أن الملبي لا يقطع التلبية حتى يشرع فى رمى جمرة العقبة .

قال الفضل بن العباس – رضى الله عنهما – وكان رديف النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، من مزدلفة إلى منى .. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يلبي حتى بلغ الجمرة .

وقوله – فى هذا الحديث الصحيح – : " حتى بلغ الجمرة " هو حجة من قال بقطع التلبية عند الشروع فى الرمى ، لأن بلوغ الجمرة ، هو وقت الشروع فى الرمى . بيد أن بعض أهل العلم قال : " حتى ينتهي رميه إياها " ، واستدلوا على ذلك بما رواه مسلم أيضا :" أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يلبى حتى رمى جمرة العقبة ".

والأظهر فى قول الفقهاء .. أن الحاج يقطع التلبية عند الشروع فى رمى العقبة ، لأن رواية مسلم " حتى رمى جمرة العقبة " ، يراد به الشروع فى رميها – لا الانتهاء منه " .

ومن القرائن الدالة على ذلك ، ما ثبت فى الروايات الصحيحة ، من التكبير مع كل حصاة ، فزمن الرمى لا يستغرق غير التكبير مع الحصاة ، لتتابع رمى الحصيات .

حكم التلبية :-

وأما حكم التلبية ، فقد اختلف فيه أهل العلم اختلافا معروفا .. قال ابن حجر ، فى فتح الباري ، فى حكم التلبية مذاهب أربعة ، يمكن توصيلها إلى عشرة :

الأول : أنها سنة من السنن لا يجب بتركها شئ . وهو قول الشافعي وأحمد .

والثاني : أنها واجبة ، ويجب بتركها دم ، حكاه الماوردى عن أبي هريرة ، وقال إنه وجد للشافعي نصا يدل عليه .

والثالث : أنها واجبة ، لكن يقوم مقامها فعل يتعلق بالحج ، كالتوجه على الطريق ، وبهذا قال المالكية . وقال أصحاب الرأى : إن كبر أو هلل أو سبح ينوى بذلك الإحرام فهو محرم .

والرابع : أنها ركن فى الإحرام لا ينعقد بدونها ، حكاه ابن عبد البر، عن الثوري ، وأبى حنيفة ، وابن حبيب ، من المالكية .

وقال أهل الظاهر : هى نظيرة تكبيرة الإحرام للصلاة ، وهو قول عطاء ، قال : " التلبية فرض الحج ".

قال داود : أنه لابد من رفع الصوت بها ، وهذا قدر زائد على أصل كونها ركنا . فإذا عرفنا الآن مذاهب أهل العلم فى التلبية ، فيجب أن نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لبى - كما ذكرنا ، وقال : " لتأخذوا عنى مناسككم " . فعلينا أن نأخذ عنه من مناسكنا (التلبية) . وهذا القدر هو الذى قام عليه الدليل .

أما كونها مسنونة ، أو مستحبة ، أو واجبة ، لا يصح الحج بدونها ، وتجبر بالدم .. فكل ذلك لم يرد فيه دليل خاص .

فضل التلبية :-

أما فضل التلبية .. فيتضح لنا من قول الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجه ، عن جابر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من محرم يضحي يومه يلبى حتى تغيب الشمس ، إلا غابت ذنوبه ، فعاد كما ولدته أمه ".

الطواف :-

يقول النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم : " الطواف صلاة ، إلا أن الله تعالى أحل فيه الكلام ، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير " [١] .

ويقول أيضا : " ومن طاف فتكلم وهو فى تلك الحال ، خاض فى الرحمة برجليه ، كخائض الماء برجليه " . أى من تكلم بكلام الدنيا أثناء طوافه ، كان، فى رحمة الله برجليه فقط ، دون سائر جسمه ، بخلاف من يذكر الله فى طوافه ، فهو فى الرحمة بتمام جسمه وقلبه وعقله .

من هنا وجب على الطائف بالبيت الحرام ، أن يحفه الخشوع والرهبة من الله ، والرجاء فى عفوه ورحمته ، وألا يتكلم إلا بذكر الله ، إلا إذا كان أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر ، ويصون نظره ، ويحفظه مما لا يحل له النظر إليه ، وألا يدع قلبه يحتقر من حوله ، أو ينتقصهم أو يجهلهم ، ومن كان منهم فى حاجة إلى المعاملة الطيبة ، والنصح الكريم ،

---

(١) رواه الترمذى وابن حبان .

والخلق العظيم ، وأن يكون ذلك شأنه طوال مدة حجه . وليس المقصود من (الطواف بالبيت) أن يطوف الطائف بجسمه فقط ، بل المقصود أن يطوف بقلبه وروحه وجوارحه بذكر رب البيت عز وجل .

وفي الحج ثلاثة أطوفة :-

الأول : طواف القدوم : وهو واجب عند المالكية وسنة عند باقي الأئمة .

والثاني : طواف الإفاضة : وهو ركن بالإجماع ، بحيث لو سقط لبطل الحج بسقوطه .

والثالث : طواف الوداع : وهو سنة عند المالكية ، وواجب عند الجمهور ، غير أن من تركه لعذر لم يجب عليه فيه دم .

أما العمرة : فلها طوافان لا غير : طواف القدوم .. وهو ركن من أركانها . وطواف الوداع : وهو سنة لا واجب .

شروط الطواف :-

وللطواف شروط يجب إتباعها ، ذكرها العلماء والفقهاء وهي :

١.نية الطواف عند الشروع فيه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " (١) .

٢.الطهارة من الحدث ، والخبث ، وستر العورة ، لقوله صلى الله عليه وسلم :" الطواف حول الكعبة مثل الصلاة " (٢) .

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه الترمذي .

٣.أن يكون الطواف سبعة أشواط ، وأن يبدأ الطائف من الحجر الأسود ، وينتهي عنده ، فلو طاف أقل من سبعة أشواط ، لم يجز طوافه ، ولو بدأه دون الحجر الأسود ، أو أنهاه قبله لا يعتد بذلك الشوط .

٤.أن يكون الطواف بالبيت داخل المسجد ، فلو طاف خارج المسجد ، أو داخل البيت ، أو داخل جزء من أجزائهما ، لم يصح طوافه . غير أنه يجوز لضرورة الزحام أن يطوف بعيدا من البيت ، أو في الطابق العلوي .

٥.أن يوالى بين الأشواط ، فلو ترك الموالاة لغير عذر ، بطل طوافه ، وعليه أن يستأنفه . وإن كان لعذر كانتقاض وضوئه مثلا . فجدده بالقرب ، فلا حرج .

أن يكون البيت على يساره ، فلو طاف والبيت على يمينه ، لم يصح الطواف لمعاكسته فعل النبي – عليه السلام – في ذلك . ومن أراد الطواف راعى شروط الصلاة ، فالطواف بالبيت صلاة ، ولكن يباح فيه الكلام .

والمتمتع بالعمرة ، والقارن – وهو المحرم بحج وعمرة – ينويان بهذا الطواف طواف العمرة . أما المفرد بالحج ، فينوى به طواف القدوم ، وهو سنة . ويضطبع قبل ابتدائه بالطواف : فيجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ، ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر ، فيرخى طرفا وراء ظهره ، وطرفا على صدره . والإضطباع سنة للرجال فى كل طواف بعده سعى . ويرمل الرجل فى الأشواط الثلاثة الأول ، ويمشى فى الأربعة الباقية.

والرمل : الإسراع فى المشى مع تقارب الخطا . وهو سنة فى كل طواف بعده سعى .

ويستقبل الكعبة المعظمة عند نية الطواف ، جاعلا الحجر الأسود عن يمينه . ثم يستلم الحجر ويقبله إن أمكن ، أو يشير إليه بالاستلام ، ويقبل ما أشار به ، ثم يجعل البيت عن يساره ، ويطوف .

ويقول بعد نية الطواف : " بسم الله ، والله أكبر ، اللهم إيمانا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، وإتباعا لسنة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم " ، ويقول عند الباب : " اللهم هذا البيت بيتك ، والحرم حرمك، والأمن أمنك ، وهذا
مقام العائذ من النار " . ويقول عند الركن العراقي : " اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق " .

ويقول عند الميزاب : " اللهم أظلني فى ظلك يوم لا ظل إلا ظلك ، واسقني بكأس نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، شربة لا أظمأ بعدها أبدا. اللهم إني أسألك الراحة عند الموت ، والعفو عند الحساب " . ويقول بين الركن اليماني وركن الحجر الأسود : " ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ".

ويعيد ذلك فى كل شوط من أشواط الطواف . فإذا أتم الطواف سبعا [1] يأتي الملتزم – وهو بين الحجر الأسود وباب الكعبة – ويتعلق بأستار الكعبة ، ويلصق بطنه وخده الأيمن بجدارها ، ويبسط ذراعيه وكفيه ويدعو بما شاء.

---

(١) إذا شك فى عدد الأشواط بنى على الأقل احتياطا .

ثم يصلى ركعتين سنة الطواف ، والأفضل فعلهما خلف مقام إبراهيم عليه السلام .

وركعتا الطواف واجبتان ، إلا أنه لا يصليهما فى أوقات الكراهة ، بل يؤخرهما إلى أن يخرج وقت الكراهة . ثم يشرب من ماء زمزم متضلعا ، مستقبل القبلة ، داعيا بما شاء .

السعى :-

السعى بين الصفا والمروة واجب . ويبتدئ فى سعيه بالصفا ، فينوى السعى ، ثم ينزل ماشيا على هينة ، حتى ينتهي إلى الميل الأخضر - وهو علامة خضراء على جانبي المسعى - فإذا حاذاه أخذ الرجل فى السير السريع ، وهو الرمل ، حتى يصل إلى الميل الأخضر الآخر . ثم يعود إلى المشى بهينة . ويكثر من ذكر الله تعالى ، والاستغفار والدعاء . فإذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعد الصفا .

وقد حصل بفعله هذا من السعى مرة . فإذا عاد إلى الصفا حصل مرتان ، يفعل ذلك سبع مرات . ويرمل فى موضع الرمل فى كل مرة ، ويمشى فى الباقي كما سبق .

وفى كل مرة يصعد الصفا والمروة . ثم يدعو بعد تمام السعى بما شاء .ويبقى فى إحرامه إن كان محرما بالحج ، أو بالحج والعمرة . ويتحلل بالحلق أو التقصير ، إن كان محرما بالعمرة . ويجتهد فى عشر ذي الحجة ما استطاع من عبادة وذكر وتسبيح وتهليل وتحميد ...

ملاحظة : ليس السعى عبادة مستقلة ، بل هو تابع لطواف حج أو عمرة .

الذهاب إلى عرفات :-

يخرج يوم التروية ، وهو الثامن من ذي الحجة ، بعد صلاة الفجر متوجها إلى منى ، ويبيت فيها ليلة التاسع ، فإذا أصبح يوم عرفة ، يصلى الصبح ، ومتى أشرقت الشمس يتوجه إلى عرفات مكثرا من التلبية والدعاء . فإذا أتى عرفات لينزل بمسجد نمرة فى أول عرفات ، ويغتسل للوقوف إن أمكن ، فإذا زالت الشمس ، يصلى مع الإمام الظهر والعصر جمع تقديم ، ثم يدخل عرفة. والوقوف بعرفة ركن الحج الأعظم.

ويقف عند الصخرات الكبار التى فى أسفل جبل الرحمة ، ويستقبل القبلة ، ويكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عز وجل ، والدعاء والتوبة والاستغفار ، والتلبية . ولا يصوم هذا اليوم ليقوى على مواظبة الدعاء . ولا يقطع التلبية يوم عرفة، بل الأحب أن يلبى تارة، ويدعو أخرى . ويتصدق بعرفة ولو بشيء يسير .

وليكثر من الدعاء ومن المأثور فيه : بسم الله الرحمن الرحيم .. لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شئ قدير .

اللهم اجعل فى قلبي نورا ، وفى سمعي نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى لساني نورا . اللهم اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري . اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك. اللهم اهدني بالهدى ، واغفر لي فى الآخرة ، والأولى .

يا خير مقصود ، وأسنى منزول به ، وأكرم مسئول ما لديه ، أعطني العشية أفضل ما أعطيت أحدا من خلقك وحجاج بيتك ، يا أرحم الراحمين.

اللهم يا رفيع الدرجات ، ومنزل البركات ، ويا فاطر الأرضين والسموات، ضجت إليك الأصوات ، بصنوف اللغات ، يسألونك الحاجات، وحاجتي إليك أن لا تنسانى فى دار البلاء ، إذا نسيني أهل الدنيا.

اللهم لك صلاتي ونسكى ومحياى ومماتي ، وإليك مآبي ، وإليك ثوابي . اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدر ، وشتات الأمر ، وعذاب القبر . اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل ، ومن شر ما يلج فى النهار ، ومن شر ما تهب به الرياح ، ومن شر بوائق الدهر .

إلهي إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاها ، ولا للاعتذار وجها، ولكنك أكرم الأكرمين . إلهي إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل أن تبلغني ، ورحمتك وسعت كل شئ ، وأنا شئ . إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظاما ، ولكنها صغار فى جنب عفوك ، فاغفرها لي يا كريم . اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرى وعلانيتي ، ولا يخفى عليك شئ من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، دعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه . يا خير من دعاه داع ، وأفضل من رجاه راج ، بحرمة الإسلام ، وبذمة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أتوسل إليك ، فاغفر لي جميع ذنوبي ، واصرفنى من موقفي هذا ، مقضى الحوائج ، وهب لي ما سألت ، وحقق رجائي فيما تمنيت .

اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رؤوفا رحيما .يا خير المسئولين ، وأكرم المعطين . إلهي من مدح لك نفسه ، فإني لائم نفسي . إلهي أخرست المعاصي لساني ، فمالي وسيلة من عمل ، ولا شفيع سوى الأمل .

اللهم إليك خرجنا ، وبفنائك أنخنا ، وإياك أملنا ، وما عندك طلبنا ، ولإحسانك تعرضنا ، ورحمتك رجونا ، ومن عذابك أشفقنا ، وإليك بأثقال الذنوب هربنا ، ولبيتك الحرام حججنا .

يا من يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمائر الصامتين . يا من ليس معه رب يدعى ، ويا من ليس فوقه خالق يخشى ، ويا من ليس له وزير يؤتى ، ولا حاجب يرشى . يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما ، وعلى كثرة الحوائج ، إلا تفضلا وإحسانا .

إلهي أنت أنت ، وأنا أنا ، أنا العواد إلى الذنوب ، وأنت العواد إلى المغفرة . إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك ، فإلى من يفزع المذنبون ؟إلهي تجنبت عن طاعتك عمدا ، وتوجهت إلى معصيتك قصدا ، فسبحانك ما أعظم حجتك على ، وأكرم عفوك عني . فبوجوب حجتك على ، وانقطاع حجتي عنك ، وفقري إليك وغناك عني ، إلا غفرت لي .

اللهم إنك جعلت لكل ضيف قرى ، ونحن أضيافك ، فاجعل قرانا منك الجنة . اللهم إن لكل وفد جائزة ، ولكل زائر كرامة ، ولكل سائل عطية ، ولكل راج ثوابا ، ولكل ملتمس لما عندك جزاء ، ولكل مسترحم عندك رحمة ، ولكل راغب إليك زلفى،ولكل متوسل إليك عفوا ، وقد وفدنا إلى

بيتك الحرام، ووقفنا بهذه المشاعر العظام ، وشهدنا هذه المشاهد الكرام ، رجاء لما عندك ، فلا تخيب رجاءنا .

إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعتق ما ملكت أيماننا ، ونحن عبيدك ، وأنت أولى بالتفضل ، فأعتقنا .

وإنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ، ونحن فقراؤك ، وأنت أحق بالتطول ، فتصدق علينا ، ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا ، وقد ظلمنا أنفسنا ، وأنت أحق بالكرم ، فاعف عنا . ربنا اغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

وليدع بما بدا له ، وليستغفر لنفسه ولوالديه ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، وليلح فى الدعاء ، وليعظم المسألة ، فإن الله تعالى لا يتعاظمه شئ . وأفضل الدعاء ما كان بالمأثور من القرآن الكريم ، ومنه:ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد . ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين .

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد .

حسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين .

أعمال الحج بعد الوقوف بعرفة :-

ثم يفيض من عرفة بعد غروب الشمس بسكينة ووقار ، لايطأ ضعيفاء ولا يؤذى مسلما . ويرفع صوته بالتلبية فى الطريق ، ويجمع بين التلبية والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما ذكرنا فى أول الإحرام .

فإذا بلغ مزدلفة قال : " اللهم إن هذه مزدلفة ، جمعت فيها ألسنة مختلفة ، تسألك حوائج مؤتلفة ، فاجعلني ممن دعاك فاستجبت له ، وتوكل عليك فكفيته ".

ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة جمع تأخير فى وقت العشاء قاصرا لها ، بأذان وإقامتين ، ليس بينهما نافلة ، لكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين .

ويمكث تلك الليلة بمزدلفة . والوقوف بها بعد الفجر ولو لحظة واجب، من تركه فعليه دم . ويحيى هذه الليلة الشريفة بالعبادة والدعاء . فإذا صلى الصبح يقف عند المشعر الحرام – وهو آخر المزدلفة – ويلبى ويدعو ، ويتزود منها بسبع حصيات خفاف ، أو يزيد احتياطا .

ثم يتوجه إلى منى ، فإذا انتهى إلى وادى محسر – وهو بين مزدلفة ومنى – فيستحب له أن يسرع ، لأنه موضع أهلك الله تعالى فيه أصحاب الفيل . فإذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبى تارة ويكبر أخرى .

وإذا انتهى إلى منى يقصد جمرة العقبة – وهى الأخيرة – فيرميها بسبع الحصيات التى جاء بها من المزدلفة .

ويدخل وقت رمى جمرة العقبة بعد طلوع فجر يوم النحر ، ويسن تأخيره إلى ما بعد طلوع الشمس . ويمتد وقته إلى غروب الشمس ، ويكره التأخير إلى ما بعد الغروب إلا لضرورة .

ويسن عند الرمى أن يقف مستقبلا القبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس، ويرميها حصاة باليد اليمنى بين السبابة والإبهام ، ويقطع التلبية ، ويكبر مع كل حصاة قائلا : " الله أكبر ، على طاعة الرحمن ، ورغم الشيطان ، اللهم تصديقا بكتابك ، واتباعا لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ".وإن شك فى عدد الحصيات ، بنى على الأقل ، كما يفعل إذا شك فى عدد ركعات الصلاة ، أو عدد مرات الطواف .

ويشترط صحة المرمى ، وتحقق إصابته بالحجر ، فإن شك لم يحسب. وهذا الرمى واجب ، فلو تركه فعليه دم .

فإذا رمى قطع التلبية والتكبير ، إلا التكبير عقب الصلوات إلى آخر أيام التشريق . ثم يذبح إن كان متمتعا بالعمرة أو قارنا . ثم يستقبل القبلة ويحلق أو يقصر . والأفضل تعميم الرأس بالحلق ، وأقل الواجب ربع الرأس . ويؤخذ من شعر المرأة بقدر الأنملة . وحينئذ حصل للمحرم

التحلل الأول ، وحل له كل محظورات الإحرام إلا النساء . والترتيب بين الرمى والذبح والحلق واجب .

ثم يفيض إلى مكة ، ويطوف طواف الزيارة ويقال له : طواف الإفاضة ، وهو ركن من أركان الحج، ويسعى بعده سعى الحج ، إن كان متمتعا ، أو قارنا ، أو مفردا ، ولم يكن سعى قبل الخروج إلى عرفة . وفعل هذا الطواف فى أيام النحر الثلاثة واجب ، فإن أخره فعليه دم. ثم يعود إلى منى قبل الزوال ، ويبيت بها أكثر أيام التشريق ، وهى الأيام المعدودات ، وهذا المبيت سنة .

وفى صبيحة اليوم الثاني ، يلتقط من منى إحدى وعشرين حصاة ، ويدخل وقت الرمى فيه وفى بقية أيام التشريق بعد الزوال . يرمى كل جمرة بسبع حصيات على الترتيب ، مبتدئا بالأولى ، وهى القريبة من مسجد الخيف . ويقف بعدها جانبا ، مستقبل القبلة ، ويحمد الله تعالى ويهلل ويكبر ويسبح ويدعو طويلا.

ثم يرمى الجمرة الثانية – وهى الوسطى – ويقف عندها ويدعو .

ثم يرمى الجمرة الثالثة – وهى جمرة العقبة التى رماها فى صبيحة يوم النحر – ولا يقف عندها ، بل يمضى بعد رميها : ورمى الجمرات واجب ، يلزم بتركه دم .

ويكثر مدة إقامته بمنى من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، ويكبر عقب الصلوات إلى آخر أيام التشريق . ولا يستصحب شيئا من تراب الحرم ولا من حجره ، عند عودته إلى بلده.

التحلل من الحج:-

للحج تحللان :-

- **الأول** : بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر ، وبعد الذبح لمن كان عليه ذبح . ويكون بحلق شعر الرأس أو تقصيره ، فيؤخذ منه قدر أنملة . فإن كان دون الأنملة تعين الحلق . والترتيب بين الرمى والذبح والحلق واجب . وبهذا التحلل تحل جميع محظورات الإحرام ماعدا النساء ، وهذا هو التحلل الأصغر .
- **الثاني** : بعد طواف الزيارة وتحل به باقي محرمات الإحرام .

ما يفسد الحج :-

ويفسد الحج بالجماع إذا كان قبل الوقوف بعرفة ، ويمضى فى حجه الفاسد، ويقضى فى العام القادم ، وعليه شاة . أما إذا كان الجماع بعد الوقوف بعرفة ، فلا يفسد الحج ، وعليه بدنة - أى جملا أو بقرة - .

العمرة

ويستحب للحاج مدة بقائه فى مكة أن يكثر من الاعتمار . والعمـــــرة : هى الزيارة .

والعمرة شرعا : إحرام وطواف وسعي ثم حلق أو تقصير . وهى سنة مؤكدة فى العمر مرة ، وقيل بوجوبها . ووقتها جميع أيام السنة ، إلا يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . ويكره لأهل مكة فعلها فى أشهر الحج ، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة . ومثل أهل مكة فى ذلك كل مقيم فيها .

كيفية العمرة :-

يحرم للعمرة من كان خارج الميقات من الميقات . ومن كان في مكة يخرج للإحرام بها إلى الحل . وأفضل أمكنة الحل للإحرام بالعمرة التنعيم ، وفيه مسجد السيدة عائشة رضى الله عنها ، ثم الجعرانة . وأحكام الإحرام بالعمرة كأحكام الإحرام بالحج ، وتخالفه فى الأمور الآتية :

١.كل شوط من أشواط السعي فى العمرة واجب .

٢.ومن طاف للعمرة جنبا أو بلا وضوء فعليه دم . وكذا لو ترك شوطا واحدا من طوافها ، أو شوطا من أشواط سعيها ، فإنه يذبح شاة ، لأن الصدقة لاتجبر نقصان العمرة ، بخلاف جنايات الحج .

٣.ولا يلبي المعتمر فى أثناء السعي .

الجنايات

تعريفها :-

الجنايات : جمع جناية ، وهى مايمتنع فعله بسبب الإحرام أو الحرم .

أنواعها :-

الجنايات نوعان :

١.جناية على الإحرام : وهى تختص بالمحرم بالحج أو العمرة .

٢.وجناية على الحرم : فلاتختص بالمحرم ، بل تعم كل مكلف .

الجناية على الإحرام :-

والجناية على الإحرام منها مايوجب بدنة ، ومنها مايوجب دمين ، ومنها مايوجب دما واحدا ، ومنها مايوجب صدقة ، ومنها مايوجب دون ذلك ، ومنها مايوجب القيمة .

مايوجب بدنة :-

فالتى توجب بدنة : يعنى جملا أو بقرة ، ويفرق لحما على فقراء الحرم :

١. إذا طاف طواف الإفاضة جنبا أو طافت المرأة حائضا أو نفساء .

٢.إذا جامع زوجته بعد الوقوف بعرفة ، وقبل الحلق والطواف . أما الجماع قبل الوقوف بعرفة فإنه يفسد الحج ، وعليه دم ، ويمضى بحجته الفاسدة حتى يتمها ، ثم يقيضها فى العام المقبل .

مايوجب شاة :-

والجناية التى توجب دمين : كل جناية يجب بها على المفرد دم ، فإن الواجب فيها على القارن دمان .

والجنايات التى توجب دما واحدا ، وهو ذبح شاة يفرق لحمها على فقراء الحرم :

[١] أن يطيب المحرم البالغ عضوا كاملا،كالوجه والرأس والعضد واليد...

[٢] لبس الثياب المخيطة لبسا معتادا .أما لو اتزر بالثوب أو وضعه على كتفيه ولم يكن عباءة ، فلاشئ عليه ، لأنه ليس لبسا معتادا ، لكنه يكره . هذا إذا دام لبس الثوب أو ستر الرأس يوما كاملا أو ليلة

كاملة ، أو بمقدار أحدهما كنصف يوم مع نصف ليلة ، وجبت عليه الصدقة . والصدقة : نصف صاع من قمح ، أو قيمة ذلك .

[٣] حلق ربع الرأس .

[٤] تقليم أظافر اليدين والرجلين معا ، أو أظافر اليدين فقط ، أو الرجلين فقط ، أو أظافر يد واحدة ، أو رجل واحدة فى مجلس واحد ، فعليه شاة . أما إذا قلم أظافر كل عضو منها فى مجلس ، وجب عليه فى كل عضو شاة .

[٥] لو طاف للقدوم أو للوداع جنبا ، أو طاف طواف الإفاضة بلا وضوء فعليه شاة . والحائض كالجنب لاستوائهما فى الحكم .

[٦] إن ترك من طواف الإفاضة ثلاثة أشواط فما دونها . أو ترك طواف الوداع ، أو أربعة أشواط منه . أو ترك السعى أو أكثره ، أو ركب فيه بلاعذر ، أو ترك الوقوف بمزدلفة . فعليه شاة فى كل واحد من هذه الأمور .

[٧] إن طاف حول الكعبة وربع عضو من العورة مكشوف ، أعاد الطواف مادام بمكة ، فإن لم يعد حتى خرج من مكة ، فعليه دم . وهذا فى الطواف الواجب ، أما فى غيره فعليه صدقة .

[٨] لو ترك رمي الجمرات كلها أو أكثرها ، أو ترك رمي يوم واحد أو أكثر ، أو ترك رمي جمرة العقبة – أى يوم النحر – أو أكثره ، ذبح شاة . أما لو ترك الأقل من ذلك فعليه لكل حصاة صدقة . إلا أن يبلغ المجموع دما ، فينقص من مقدار مجموع الصدقة شيئا ينزله عن مقدار ثمن الدم .

[٩] من جامع قبل الوقوف فسد حجه ، ولو كان ناسيا أو مكرها فعليه شاة ، ويمضى فى حجه ويقضيه .

[١٠] إن جامع بعد الحلق قبل طواف الزيارة ، فعليه شاة .

مايوجب الصدقة :-

المراد من الصدقة هنا نصف صاع من القمح – كيلوين تقريبا – أو قيمة ذلك من النقود . **والذى يوجبها مايلي :-**

١. أن يطوف للقدوم أو للوداع بلا وضوء . أما لو طاف جنبا فعليه شاة كما سبق بيانه .

٢. أن يلبس الثياب المخيطة،أو أن يستر رأسه أقل من يوم أوأقل من ليلة.

٣. أن يقلم ظفرا واحدا . ولو قلم أقل من خمسة ، فعليه بكل ظفر صدقة، مالم تبلغ قيمة المجموع قيمة الدم ، فينقص ماشاء منه .

٤. أن ينقص حصاة من إحدى الجمار .

٥. أن يطيب المحرم أقل من عضو .

٦. أن يترك شوطا من طواف الوداع . وكذا لكل شوط من أقل الطواف أى من الثلاث الباقية بعد أن يطوف الأربعة الأولى..

٧. أن يحلق المحرم رأس غيره محرما كان أو غير محرم .

٨. أن يترك شوطا من سعى الحج ، أو ترك ثلاثة منه أو أقل ، فعليه لكل شوط منه صدقة ، إلا أن يبلغ دما فيخير بين الدم أو ينقص الصدقة .

٩. أن يحلق أقل من ربع الرأس،أو أقل من ربع اللحية، أو حلق شاربه .

١٠.لو تطيب أو لبس مخيطا أو حلق بعذر من الأعذار تخير بين الذبح فى الحرم ، أو التصديق فيه بثلاثة أصع على ستة مساكين ، أو صيام ثلاثة أيام .

مايوجب أقل من الصدقة :-

أى أقل من نصف صاع، فيتصدق بما شاء . وذلك إذا قتل جرادة أو قملة.

مايوجب القيمة :-

قتل المحرم صيدا أو دلالته عليه من يقتله . فيقومه رجلان عدلان خبيران فى مكان قتله ، أو فى أقرب موضع فيه . فإن بلغت القيمة مقدار الهدي من الإبل أو البقر أو الغنم ، فله الخيار بين شيئين :

[١] إن شاء اشترى الهدي وذبحه فى الحرم .

[٢] وإن شاء اشترى طعاما وتصدق به أين شاء ، بحيث يعطى كل فقير نصف صاع من قمح أو صاعا من تمر أو شعير . أو يصوم بدلا من طعام كل مسكين يوما . ولايشترط التتابع فى الصوم ، بل يجزئ ولو كان متفرقا .

والصيد المقصود هنا ، هو كل حيوان بري متوحش يتوالد ويعيش فى أصل خلقته فى البرارى والقفار ، سواء أكان مأكولا أم غير مأكول ، كالأسد والضبع والبوم والغزال والأرانب . فلا يعد من الصيد الكلب والهر والحية والعقرب والذباب والبعوض والسلحفاة والفراش والدجاج ... وكذلك كل حيوان يعيش فى البحر ، يتوالد فيه ، لأنه ليس بحيوان بري . وكذلك كل حيوان كان أهليا ثم توحش فهرب من يد صاحبه . وكذلك كل مايجوز

ذبحه كالشاة والبعير والبقرة والدجاجة ، لأنها من الحيوانات الأهلية التى لاتعد من الصيد .

الجناية على الحرم :-

الجناية على الحرم لاتختص بالمحرم ، بل تعم كل مكلف موجود فى أرض الحرم . وتتعلق هذه الجناية بالصيد ، وبقطع الشجر . والحرم له حدود خارج مكة ، متفاوتة فى البعد عنها ، وفى كل طريق مؤد الى مكة أعلام منصوبة مكتوب عليها (حدود الحرم) . فمن أراد الصيد خرج الى مابعد هذه الحدود . ولايجوز لمن كان داخل الحرم أن يصطاد فيه شيئا ، لأنه حرام على المحرم وغير المحرم . ويستثنى من ذلك كل مؤذ كالحية والعقرب والفأرة والكلب العقور والحدأة .

أما جزاء الصيد فى الحرم ، فهو القيمة . ففى الظبى شاة ، وفى الأرنب عناق – وهى الأنثى من ولد المعز لم تبلغ حولا – وفى النعامة بدنة – جمل أو بقرة – .

فإن بلغت قيمة الصيد قيمة الهدى أو أكثر ، تخير بين شراء الهدى وذبحه أو شراء الطعام بقيمته ، وتوزيعه على الفقراء . هذا فى المحرم ، أما غير المحرم لو قتل صيد الحرم لايجزيه الصوم بل تتعين فى حقه القيمة والتصدق بها .

أما بالنسبة الى شجر الحرم ، فهو على أربعة أنواع :-

ثلاثة يحل قطعها والانتفاع بها بلاجزاء ، وهى :

١ – كل شجر أنبته الناس ، وهو من جنس ماينبته الناس كالزرع .

٢ - وكل شجر أنبته الناس ، وهو ليس من جنس ماينبته الناس ، كشجر الأراك - أى شجر السواك ..

٣ - وكل شجر ينبت بنفسه ، وهو من جنس ماينبته الناس .فلو قطع شجرا رطبا ، أو قطع ماينبت بنفسه كالحشيش الأخضر ، فإن كان نابتا فى أرض غير مملوكة لأحد ، فعليه قيمة لحق الشرع ، إلا اليابس منه ، لأنه صار حطبا وإلا الأذخر - وهو نبت معروف طيب الرائحة -.وإن كان نابتا فى أرض مملوكة، فعليه قيمتان :-

(١) قيمة لحق الشرع . (٢) وقيمة لمالك الأرض .

قائمة المراجع والمصادر

أولا : القرآن الكريم

ثانيا :

- " الإتقان فى علوم القرآن " – للسيوطى .
- " أسباب النزول وبهامشه الناسخ والمنسوخ " – للواحدى النيسابورى – عالم الكتب – ببيروت.
- " أسرار ترتيب القرآن " للسيوطى – تحقيق : عبد القادر عطا ، طبعة دار الإعتصام بالقاهرة – سنة ١٩٧٨ م.
- " الإصابة فى تمييز الصحابة " – لابن حجر العقلاني .
- " إعجاز القرآن " – لمصطفى صادق الرافعى .
- " أقسام القرآن " – لابن القيم .
- " الإيضاح " للخطيب / القزوينى .
- " بديع القرآن " – لابن أبى الأصبع .
- " البرهان فى علوم القرآن " – للزركشى .
- " بلاغة القرآن " – لمحمد الخضر حسين .
- " تاريخ القرآن " – لإبراهيم الإبيارى – دار القلم سنة ١٩٦٥م .
- " التبيان فى أقسام القرآن " – لابن قيم الجوزية .
- " التبيان فى علوم القرآن " – لمحمد على الصابونى .
- " تفسير المنار " للشيخ / محمد رشيد رضا .

- " تفسير الطبرى " – لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى – طبعة دار المعارف .
- " التفسير الكبير للرازى " – للإمام فخر الدين الرازى – دار الكتب العلمية – طهران .
- " التفسير والمفسرون " – للدكتور / محمد حسين الذهبى – مكتبة وهبه
- " الجامع لأحكام القرآن " – للقرطبى – دار الكتاب العربى .
- " دراسات فى القرآن والسنة " – د./ أحمد جمال العمرى .
- " الدر المنثور فى التفسير بالمأثور " – للإمام جلال الدين السيوطى – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت .
- " روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم " – للألوسى البغدادى – طبعة دار الفكر ببيروت .
- " الشريعة الإسلامية " – عبد الحليم الجندى – طبعة دار المعارف .
- " صحيح البخارى " – تحقيق الدكتور / مصطفى ديب – دار ابن كثير – دمشق.
- " صحيح مسلم " – للإمام أبى الحسين سليم بن الحجاج القشيرى – تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي – طبعة الحلبي .
- " فقه السنة " – السيد سابق ، مكتبة دار التراث .
- " الكشاف " .... للزمخشرى .
- " لسان العرب " – لابن منظور – طبعة بيروت .
- " مباحث فى علوم القرآن " – لصبحى الصالح .

- " مباحث فى علوم القرآن " – لمناع القطان – الطبعة التاسعة – مكتبة وهبه .
- " المدخل لدراسة القرآن الكريم " – د./ محمد محمد أبو شهبه .
- " المصباح المنير " – للشيخ الفيومي – المطبعة الأميرية بالقاهرة.
- " معجم مفردات ألفاظ القرآن " – للراغب الأصبهانى – دار الكتاب العربى ببيروت .
- " مناهل العرفان فى علوم القرآن " – للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى – طبعة الحلبى .

فهرس الموضوعات

--